أسرار ملكوتية وإشراقات عرفانية

الشهيد مصطفى روح الله الخميني قدس سره

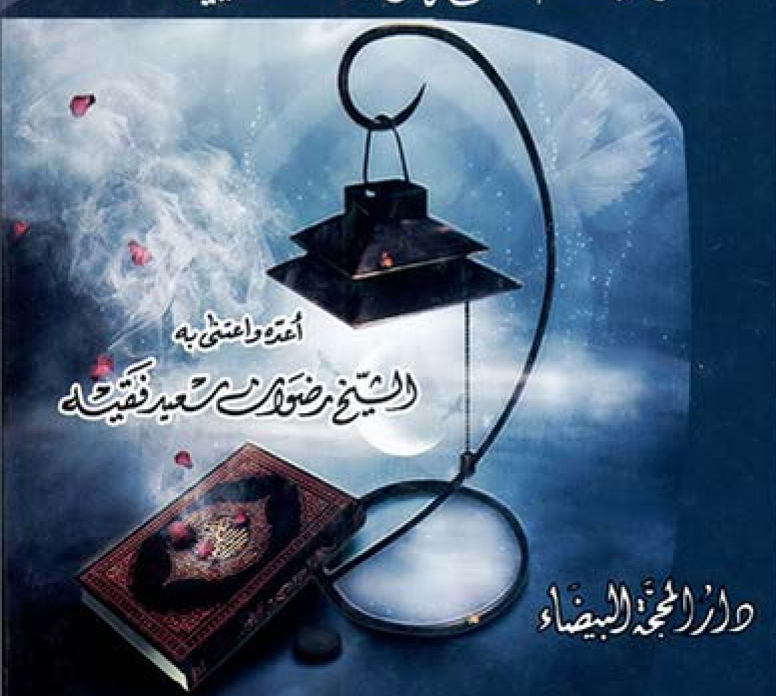

أعده واعتنى به

الشيخ رضوان سعيد فقيه

دار المحجة البيضاء

بسم الله الرحمن الرحيم

أسرار ملكوتيّة
وإشراقات عرفانيّة

الشّهيد مصطفى روح الله الخميني (قدس)

أعدّه واعتنى به

الشيخ رضوان سعيد فقيه

دار المحجة البيضاء

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م

شبكة كتب الشيعة
shiabooks.net
mktba.net < رابط بديل

دار المحجة البيضاء
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان

الرويس - مفرق محلات محفوظ ستورز - بناية رمال
ص.ب: ١٤/٥٤٧٩ - هاتف: ٠٣/٢٨٧١٧٩ - ٠١/٥٤١٢١١
تلفاكس: ٠١/٥٥٢٨٤٧ - E-mail: almahajja@terra.net.lb
www.daralmahaja.com info@daralmahaja.com

المقدّمة

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على جميع الأنبياء والمرسلين سيّما على مَن دنا فتدلّى فكان قاب قوسين أو أدنى محمد بن عبد الله ﷺ الجالي لصدء القلوب والفاتح لخزائن الغيوب الموري لقبس الهدى بعد أن غشي ظلام الجهل بصائر القلوب والرافع لموضحات الأعلام بعد أن ضلّ الدليل وتاه المدلول، صلِّ اللّهمَّ عليه وعلى آله الصلوات الزاكيات التامّات ذات الآيات الجليّة والكرامات العليّة الفائزين من مقامات القُرب بأقربها وأسماها والحالّين من الدرجات بأعلاها، والجارية ينابيع الحكمة على لسانهم، والساطع فجر الحقّ من أفق برهانهم، والظاهرة من وادي كمالهم أعلامهم الزاهرة، تلوّح إلى شرف قوّتهم القدسيّة آياتهم الباهرة.

وبعد:

أخي القارىء العزيز بعد التوفيق لمطالعة كتاب (تفسير القرآن الكريم) للشهيد السعيد مصطفى روح الله الخميني (قدس) والذي وجدت فيه العديد من الفوائد أحببت أن أضع بين يديك جملة من المواضيع التي انتقيتها من كتابه (التفسير)، هذه المواضيع تتضمّن

العديد من الأسرار الملكوتيّة والأنوار العرفانيّة كما سنعرف من خلال مطالعة هذا الكتاب، وقد أسميته (أسرار ملكوتيّة وإشراقات عرفانيّة).

ثمّ إنّه من حقّ الشهيد مصطفى رحمه الله علينا أن نذكر نبذة من سيرة حياته فنقول:

وِلد الشهيد السعيد مصطفى روح الله الخميني (قدس) في مدينة قمّ المقدسة عام ١٣٠٩هـ.ش، سمّاه أبوه المقدّس الخميني (محمداً) وطوّقه بـ(مصطفى) لقباً، وكنّاه (أبي الحسن)، وغلب عليه لقبه فاشتهر بالسيّد مصطفى، والدته التقيّة هي كريمة الميرزا محمد الثقفي، حلمت به الوالدة قبل أن يولَد حيث رأت في منامها الصدّيقة الشهيدة الطاهرة سيّدة نساء العالمين فاطمة الزهراء جالسة في بستان واضعة في حجرها سيّد الشهداء الحسين بن عليّ عليهما السلام وهو صغير، وعبّروا لها هذا المنام أنَّ الله تعالى سيرزقها ولداً ذكَراً ولكن غفل المعبّرون حينها أنَّ ذلك الطفل سيُرزَق الشهادة.

ترعرع الشهيد مصطفى في قمّ المقدّسة واشتغل بدراسة العلوم العصريّة أوائل صباه حتّى ست سنوات، ثمّ اشتغل بعد ذلك بدراسة العلوم الدينيّة، وارتدى زيَّ العلماء وهو ابن سبع عشرة سنة وذلك بإصرار من والده (قدس).

درس العلوم الأدبيّة باتّقان حتى اجتهد فيها، ودرس العلوم الأخرى فقهاً وأصولاً ورجالاً وحديثاً وفلسفة وعرفاناً، وقد ألمَّ رحمه الله بهذه العلوم في فترة قياسيّة وجيزة، حتّى قال عنه والده المقدّس الخميني: (إنَّ مصطفى أفضل منّي حينما كنت في سنّه).

درس على يد العديد من العلماء الأعاظم في عصره على رأسهم

آية الله العظمى السيّد البروجردي قدّس الله نفسه الزاكية، ونذكر أنّه أحصيَ للشهيد مصطفى أكثر من ستّة عشر كتاباً وأكثر من اثني عشرة تعليقة على عدّة من الكتب الأدبيّة والفقهيّة والرجاليّة والفلسفيّة والعرفانيّة، ثمَّ إنَّه كان ترجماناً صادقاً وأميناً لآراء والده (قدس) ومعتقداته في رحلة جهاده ونهضته الإسلاميّة المباركة، ونذكر أيضاً أنَّ الشهيد قد تعرّض للاعتقال على يد سلطات الشّاه وأُخرِجَ بعد شهرين نتيجة الضغط الجماهيري.

قضى الشهيد مصطفى رحمه الله تعالى نحبه في ظروف غامضة عام ١٣٥٦هـ.ش عن عمر ناهز السابعة والأربعين فانطوت صفحة من صفحات الخلود ووريَ الثرى إلى جنب جدّه أمير المؤمنين وإمام المتّقين عليّ بن أبي طالب عليه السلام.

وأسأل الله تعالى الرحمة والمغفرة لي وله ولكلّ المؤمنين والمؤمنات وأن يتقبّل أعمالنا بحقّ محمد وآله الطاهرين.

رضوان سعيد فقيه
عين قانا
١ محرّم ١٤٢٩ هـ
١٠ كانون الثاني ٢٠٠٨م

علم الحروف والأعداد

هنا مقامات:

المقام الأوّل

في سرّ الحروف والأعداد

اعلم أنَّ علم الحروف والأعداد من العلوم الشريفة، وهو يتكفَّل العلوم الغريبة، ولها مبادىء علميَّة وحسابات دقيقة، وله أرباب وأصحاب يشتغلون به في الأزمنة الطويلة، وفيه كتب كثيرة مطبوعة وغير مطبوعة، **ومنه يُشتقّ علم الجفر والرمل**، ولا شبهة في أنَّ الجفر من العلوم الشريفة، وقد وردت فيه آثار وأخبار[1].

وقال العلاَّمة المجلسي رحمه الله: إنَّه كان يُصرّ شديداً أن يتعلَّم الجفر الجامع، عن شيخه وملاذه البهائي رحمه الله، وهو يأبىٰ أن يُعلِّمه، وآخر الأمر مات ولم يتمكَّن من إرضائه، ولكنَّه نقل عنه رحمه الله أنَّه قال: إنَّ لي الجفر الجامع على وجه التمكُّن من إخراج «قواعد الأحكام» للعلاَّمة رحمه الله.

(١) الكافي ١: ص١٨٥، باب فيه ذكر الصحيفة والجفر والجامعة، بصائر الدرجات: ص١٧٠ ـ ١٨١.

ومعنى هذه العبارة واضح عند أهله، وإجماله: أنَّ له إمكان القبض والبسط والتكسير والردّ حسب القواعد المحرّرة، بحيث إذا سئل عنه، ما قواعد العلامة؟ يجيب بجميع القواعد من أوّلها إلى آخرها.

ولست أنا أهلاً لذلك، ولكن كان بعض أصدقائي المُتَوفّىٰ في الشهر الماضي عام ١٣٨٩، العلاَّمة الشيخ زين العابدين، المعروف بالإمام الأبهري، من أكابر هذ الفنّ، وقد سافرتُ في سالف الأيَّام إلى بلدته، ووجدتُ عنده بعض مخطوطاته الَّتي إذا كان صرف عمره الشريف في تأليف العلوم الظاهرة، ربَّما بلغت مصنّفاته ـ حسب ما قال ـ بمقدار مصنّفات المجلسي رحمه الله.

فبالجملة: قد رأيت في محلّه، تقاسيم الحروف إلى أقسام عديدة: ناريَّة ونورية ومائيَّة وترابيَّة وهوائيَّة، وفي هذه التقاسيم لطائف وذوقيَّات وخواصّ وآثار، وعليها مباني الطّلسمات والمخطَّطات، وإليك نبذة منها إجمالاً:

تنقسم باعتبار إلى الحروف الأبجدي والأبتثي والأهطمي والأيقفي وغير ذلك.

أمَّا الأبجدي: فاعلم أنَّ في رواية عن ابن عبَّاس: أنَّ أوَّل كتاب أنزله الله تعالىٰ من السَّماء، أبو جاد[(١)].

وتوهَّم السيوطي: أنَّه عربيّ لا يجوز أن يكون إلاَّ عربيّاً[(٢)]، وهو غلط.

---

(١) محاضرة الأوائل ومسامرة الأواخر: ص٢٦.

(٢) محاضرة الأوائل ومسامرة الأواخر: ص٢٦.

قال ابن عبَّاس في معناه: أبىٰ جد؛ أي أبىٰ آدم عليه السلام من النهي بسبب نسيانه، وجدّ في أكل الشجرة. هوَّز: أي نزل من السَّماء إلىٰ الأرض. حطّي: أي حُطَّت عنه ذنوبه بالتوبة. كلمن: أي أكل من الشجرة ومنَّ عليه ربّه بالتوبة. سعفص: أي أخرجه ربّه من نعيم الجنَّة إلىٰ كدر الدُّنيا. قرشت: أي أقرَّ بالذَّنب وسَلِم من العقوبة[١]. انتهى.

وقيل: أوَّل من وضع الكتاب العربي جماعة، تُسمَّىٰ أبجد وهوَّز وحطّي وكلمن وسعفص وقرشت، وكانوا ملوكاً، فسُمِّي الهجاء بأسمائهم[٢].

ويؤيّد ذلك ما قاله المسعودي في تاريخه: كان أبجد ملكاً مكرّماً بالحجاز، وكان هوَّز وحطّي، ملكين بأرض الطائف ونجد، وكان كلمن وسعفص وقرشت ملوكاً بمصر، وكان آل مرامر بن مرَّة من العرب العاربة، وقد كان يُسمِّي كلّ واحد من أولاده بكلمة من أبجد، وهم ثمانية، ولأجل ذلك جعل جماعةٌ هذه الكلمات عربيَّة، وبعضهم جعلها عجميَّة[٣].

وقيل: كلمات أبجد ـ أي المركَّبات الأبجديَّة ـ أسماء ملوك أصحاب الأيكة من العمالقة، وقيل: من غيرها، وتكون تلك الحروف رموزاً إلى المعاني العجيبة والدقيقة، وقد ورد في الخبر ـ كما يأتي تفصيله ـ: «خُذوا معنىٰ أبجد، ففيه عجائب كثيرة: ألف، آلاء الله، باء بهجة الله، جيم مجد الله، دال دين الله، هاء هاوية، واو ويل، زاء

---

(١) المصدر السابق: ص٢٦ ـ ٢٧.

(٢) المصدر السابق: ص٢٦.

(٣) أنظر المصدر السابق.

زاوية في النَّار»، هذه ليست من العجائب، بل العجائب هي العلوم المبتنية عليها، وأعظمها علم الجفر، وأهمّها الجفر الجامع الوارد في الخبر القطعي: «عندنا الجفر الجامع ومصحف فاطمة»[١].

وأمَّا الأبتثي فهو: تركيب آخر متَّخذ عمَّا نسب إلى النبيّ ﷺ في «شمس المعارف»، قال: لمَّا سُئل النبيّ ﷺ عن حروف المعجم قال: «هي أ ب ت ث وهي عربيَّة، وفيها أسرار جميع الكتب والصحف المنزَّلة»[٢]. لأنَّه بها يمكن كشف جميع الكتب السماويَّة قبل نزلها. ولذلك ورد: إنَّه كان يقرأ الآيات قبل نزولها والله العالم.

وفي تركيب الأبتثي: الألف الَّتي هي حرف الذَّات الأقدس تعالىٰ، هي الأوَّل وهي الآخر من الياء، وهما تُسمَّىٰ الهمزة لقبولهما الحركة، وهي من حروف اللين، المتقوّم بها جميع بِنية التراكيب باختلاف الأشكال والقوالب، فهو مثاله تعالىٰ في تقويم الحروف.

وأمَّا الأهطمي فهو: التركيب المنسوب إلى الفهلويِّين وكثير من أرباب الحكم، الَّذي يكون من الحلق إلى الشفة، إشارة إلىٰ نزول الوجود من الأعلىٰ إلىٰ الأدنىٰ، ومن المبدأ في قوس النزول إلىٰ حاشية الوجود، وهي الهيُولىٰ والشفة، ثمَّ منه يصعد، وهكذا.

وهذا هو تركيب الحروف بِحيَلٍ أربع علىٰ ترتيب العناصر الأربعة:

فالحروف الناريَّة تركيبها هكذا: «أهْطَمْفَشَذْ»، والهوائيَّة هكذا:

---

(١) الكافي ١: ١٨٦/١، بصائر الدرجات: ص١٧٠ ـ ١٨١.

(٢) شمس المعارف الكبرىٰ: ص٣٠٤.

«بُويْنْصَقُضْ»، والمائيَّة هكذا: «جِزْكِسٍ قَنَظْ»، والترابية هكذا: «و ح ل غ ر خ غ» وإعراب الأُولىٰ الفتح، والثانية الضمْ، والثالثة الكسر، والرابعة الجزم.

وأمَّا الأيقفي وهو: تركيب الحروف بحيث يكون ما يُكتب برقم واحد من الأرقام الهنديَّة، متَّصلاً واحداً والجملة واحدة؛ مثلاً: الألف والياء، قيل: وهذا هو ما اصطلح عليه بشماء الحكيم، وهو اصطلاح يشمل الأعداد لجمع كلّ كلمة منه على مراتب الأعداد من الآحاد والعشرات والمئات والألوف، والقاف والغين تكتبان هكذا: ايقغ، والباء والراء، والكاف تكتب هكذا: «بكر»، وهكذا إلىٰ آخر ما تحرَّر في الكتب المفصَّلة وأساطير الأوَّلين.

ثمَّ إنَّها تنقسم باعتبار آخر: إلى المنقوطة وغير المنقوطة المعبّر عنها بالناطق والصامت، وكل قسم منها أربعة عشر حرفاً علىٰ عدد المعصومين ﷺ.

وباعتبار ثالث: إلىٰ المفردة والمثاني والمثالث: باعتبار وجود الشريك وعدمه، وباعتبار وحدة النقطة وكثرتها.

وبعبارة أُخرى: ما لا شريك له في الحروف المقطَّعة يُسمَّىٰ مفردة، وهي الألف والكاف واللام والميم والنون، وهكذا، وما لها شريك واحد يُسمَّىٰ بالمثاني، كالدال والذال إلى الفاء والقاف، وما له الشريك ـ أي في الكَتْب والرسم ـ اثنان يُقال له: المثالث، كالباء إلى الخاء المعجمة في الترتيب الأبتثي، وهو المتعارف عليه اليوم بين النَّاس.

وغير خفيّ: أنَّ هنا اعتباراً آخر في التسمية وهو أنَّ ما له النقطة

الواحدة يُقال له: المفردة، والمنقوطة بالنقطتين تُسمّىٰ بالمثاني، وبالثلاثة بالمثالث.

وقيل في الاعتبار الأوّل: ينقسم إلى المحكمات والمتشابهات، فالمحكمات ما لا تشابه له في الخطّ، والمتشابهات ما له مشابه واحد أو أكثر مأخوذين من قوله تعالى: ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾[١].

وينقسم بالاعتبار الثالث من الانقسامات الرئيسة: إلى الملفوظي والمسروري والملبوبي.

والملفوظي هو: الحرف الّذي يُتلفّظ في اسمه بثلاثة أحرف، ولا يكون أوّله عين آخره كالألف والجيم والسين والشين وغيرها.

والمسروري مثله: إلاّ أنّ أوّله عين آخره، كالنون والميم والواو، «نمو» «منو»، وتُسمّىٰ بالحروف المستديرة أيضاً.

وأمّا الملبوبي فهي: الحروف الّتي يُتلفّظ في اسمها بحرفين، كالباء والتاء ونحوهما، وتُسمّى أيضاً بالحروف القلبيّة، وتركيبها هكذا: «حظير» «ثبت» «خفطز».

وينقسم رابعة: إلى المفاصلة والمواصلة.

والأولىٰ: هي الحروف الّتي لا تتّصل بما بعدها وإن تتّصل بما قبلها، كالألفِ ونحوه، وهي ستّة تركيبها: «أو ذر زد»، والستّة الأيّام الّتي خلق الله السّمٰوات والأرض فيها، والخمسة الطيّبة مع الرّبّ الغفور، كما يكتب عندنا بصورة ستّة، وخامسه إلى النُّورانيّة

---

(١) آل عمران (٣): ٧.

والظلمانيَّة، وسادسه إلىٰ المدغم فيها اللام التعريف، كالدَّال وهو الدائم، وإلى المظهرة، وهي كالألف وهو الأحد، وهؤلاء أربعة عشر بعدد المعصومين عليهم الصلاة والسلام أيضاً، وبعدد أربعة عشر من منازل القمر الَّتي هي ظاهرة، وفوق الأرض أبداً، والأربعة العشر الَّتي هي مخفيَّة: وتحت الأرض دائماً.

وهذه مختصرة قدَّمناها لمقصود منَّا يأتي في سائر المقامات، وتفصيلها يطلب من محالّها.

ومن العجيب ما صدر عن «تفسير المنار» حيث قال: «والفاتحة مشتملة على مجمل ما في القرآن، وكلّ ما فيه تفصيل للأُصول الَّتي وضعت فيه، ولست أعني بهذا ما يعبِّرون عنه بالإشارة ودلالة الحروف، كقولهم: إنَّ أسرار القرآن في الفاتحة، وأسرار الفاتحة في البسملة، وأسرار البسملة في الباء، وأسرار الباء في نقطتها، فإنَّ هذا لم يثبت عن النبيّ ﷺ وأصحابه، ولا هو معقول في نفسه، وإنَّما هو من مخترعات الغُلاة الَّذين ذهب بهم الغُلُوّ إلى سلب القرآن خاصَّته وهي البيان»(١) انتهىٰ.

والعذر عنه جهله بالمعارف الإلٰهيَّة والرموز الخفيَّة على الخواصّ، فضلاً عنه، وهو من العوام لدىٰ أُولي البصائر والأبصار؛ كيف وقد ثقل على النَّاس ما أتىٰ به المولويّ في القرن الثامن:

ما رميت إذ رميت فتنه اى

صد هزاران خوشه اندر حفنه اى

---

(١) تفسير المنار ١: ٣٥.

آفـــتـــابـــى در يـــكـــى ذره نـــهـــان
نـــاگـــهـــان آن ذره بـــگـــشـــايـــد دهـــان
ذرّه ذرّه گـــردد افـــلاگـــ وزمـــيـــن
بيش آن خورشيد چون جست از كمين(١)

ولو كان يسمع ذلك ويخطر بباله مثله لكذّبه ولأهانه: لعدم معقوليَّة مثله، واليوم ـ بحمد الله وله الشُّكر ـ تبيَّن حديث القنبلة الذرِّيَّة ومسألة تفكيك البروتون والنترون وقصَّة القنبلة الهيدوجينيَّة، وغير ذلك من الأسرار الكامنة تحت الطبائع الظاهرة.

فيكون هذا النظام الشمسي في كلّ ذرَّة موجوداً بوجه يناسبه، وسنورد في الباب الأخبار الواردة عن أئمَّة الكتاب وأرواح الأصحاب وأهل البيت الَّذين أمرنا أن نأخذ العلوم عنهم ونأتي أبوابهم، وهؤلاء المحجوبون عن العترة الطاهرة والأئمَّة الباهرة ـ عليهم صلوات الله تعالىٰ ـ قد أصبحوا على شفا حُفرة من النَّار وأبطلوا عمرهم فيما لا يعني ـ والله يعصمنا من الزلل والخطأ ـ ولمثل هذا الحجاب الكبير وقعوا في حَيْصَ بَيْصَ، ولم يتمكَّنوا من درك الحقائق والمعاجز والعلوم السرّية والغريبة الَّتي تكون عندنا وعند أهل البيت عليهم السلام؛ كيف وقد سمعت عن شيخنا البهائي ما قاله، أفهل يمكن تكذيبه، أو يمكن للجهلة تصديقه، والله من ورائهم محيط.

ثمَّ اعلم: هنا إجمال ما في أساطير الأوَّلين(٢): إنَّ الألف أوَّل الحروف، ومن الحروف النورانيَّة، وأوَّل العدد، وهو أوَّل مرتبة

(١) مثنوى معنوى: دفتر ٦، بيت ٨١ ـ ٤٥٧٩.
(٢) أنظر شمس المعارف الكبرىٰ: ص٣٦.

لانقسام الحروف على العناصر، وقد أجمعوا ـ على ما قيل ـ على أنَّ حرف الألف ناريّ ذو بسط كبير وصغير، فبسطه الكبير ألف ولام، وبسطه الصغير هكذا: «ألف»، وإنَّ بسطه العددي موافق لبسطه الحرفي؛ لأنَّه «ا ل ف»، والعددي «ا ح د»، ولهذين العددين بسطان، ولكلّ واحد من هذه البسوط خواصّ وآثار وأسرار، وقد جعل له ـ لأجل أنَّه الأوَّل في الحروف والأعداد ـ القوَّة الأزليَّة، فصار أوَّل الأيَّام «الأحد» موافقة ومناسبة للطبع والشرف. ولهذا الحرف شكلان لا يختلفان، وشكله العربي والهندي واحد.

والسرّ في كونه نارياً: كون القلم: لمَّا أمره الله تعالىٰ أن يكتب ما هو الكائن إلى يوم القيامة، وضع رأسه على اللوح، فساح منه نقطة من النُّور، ثمَّ ساح منه الألف، وهو ابتداء الاسم الشريف «الله»، فمن كتبه على صحيفة من ذهب، أو كاغد مصبوغ بالزعفران يوم الأحد في شرف الشَّمس، وضمَّخه بالعالية وحمله معه، أذهب الله عنه الحمَّىٰ إن شاء الله وهابه كلّ من رآه إن شاء الله، وله خواصّ أُخر مذكورة في المفصلات.

وقيل: هذه صفته وصورته عند الكَتَب «|||| |||»، وإذا نظرت إليها امرأة وقت الطلق وضعت، ومن وضع بسطه الأوَّل مكسّراً في ثلث في إناء من نحاس، ومحاه بماء ورد وسقاه لمن به روع، سكن[1]، وغير ذلك من الآثار وصورة كَتْبه مختلفة حسب اختلاف الخواص والآثار.

ثمَّ اعلم بعد ذلك: أنَّ الألف ـ على ما تقرَّر عند أهله ـ أسّ الحكم وأساس الكلم، وهو زبدة العالم والغاية القصوىٰ، بل هو

(١) المصدر السابق.

المرجع، وهو الأُمّة، وله أعمال كثيرة بغير خلوة واستخدام معها، والمَلَك الموكَّل عليه «طهطائيل» الرئيس الأكبر، وله من الخواصّ ما لا تُحصىٰ.

ولعلَّ إلىٰ هذه العوالم والآثار، تشير الكلمة المعروفة عن الأئمّة المعصومين ـ صلوات الله عليهم أجمعين ـ: «الألف آلاء الله»[١] فإنَّ الظاهر منه ليس أنَّ أوّل الآلاء الألف، فيكون إشارة إلىٰ تلك اللفظة، بل في نفس الألف آلاء الله، فيكون مؤيّداً لما تقرّر عنه.

وهل الحروف والأعداد من الآثار العجيبة المترتّبة علىٰ حروفها وأشكالها وأعدادها وأوفاقها؟

ولنا أن نسأل عمّا ورد عن ابن عبّاس أنّه قال: أخذ بيدي عليٌّ عليه السلام، وخرجنا إلى البقيع في أوّل اللّيل، وقال لي: «اقرأ يابن عبّاس». فقال: فقرأتُ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝١﴾ فأخذ يتكلّم في الباء ومقتضاها إلىٰ طلوع الفجر[٢]، وأنّه هل كان البحث حول الباء، أم كان البحث حول المسائل الأُخر الأجنبيّة عنه والبعيدة منه، أم يختصّ تلك المباحث بالباء أم يشترك معه سائر الحروف فيها، فتكون ذات آثار؟ ولولا خوف الخروج عن وضع الكتاب لسردتُ جملة منها، ونذكر في طيّ الكتاب بعض الآثار والأوفاق والطلسمات للمناسبات.

وقيل: إذا كُتب حرف الألف عددها الأصلي (١١١)، وربطت مع اسمك واسم من تريد، وحملتها معك، فإنَّ الله يعطفه عليك بعونه

(١) التوحيد: ص٢٣٠/ ١ و٢٣٣/ ١ و٢٣٧/ ٢.

(٢) ينابيع المودّة: ص٦٩، شمس المعارف الكبرىٰ: ص٥٥.

تعالىٰ، ويسهّل لك الأمور الصعبة، وإذا كُتبت الألف مع اسم الطالب والمطلوب، ورُبط الاسمان مع الحرف يوم الأحد ساعة الشَّمس، ويحملها فإنَّه يرىٰ منه ما يريد من الألفة والمحبَّة والقبول، وإذا كُتب حرف الألف على خاتم ذهب والقمر في الحوت ونجمته بإضمار الأحرف الآتية ودعوته، وكتب اسم صاحب الحرف، كان مقبولاً لكلّ من حمله من جميع الأكابر، وهذه صورته على الوجه الأخير إن شاء الله تعالىٰ[١].

٣٤	٤١	٣٦
٣٩	٢٧	٣٥
٣٨	٣٣	٤٠

ثمَّ اعلم: أنَّ حرف الباء ـ حسب ما تقرَّر ـ حالته: بارد يابس، هو أوَّل مراتب عنصر الأرض، لا يليق به غير يوم السبت، وزُحل كوكبه، والرصاص معدنه، فله شكلان: فشكله العربي هكذا «ب»، والهندي «٢»، والباء سطيح الألف، كما أنَّ الألف قائم بالباء، وله خواصّ وآثار كثيرة على اختلاف كتابة الأشكال، مذكورة في المفصَّلات، وله بسط صغير وكبير، فبسطه الصغير هكذا «ب»، وبسطه الكبير «ب اا ل ف»، وله بسط عدديّ وحرفيّ، وبسط نهاية الحروف.

واختلفت آراء أهل الفنون في الخصوصيَّات المذكورة، وهذا الاختلاف ناشيء من عظمة تأثير هذا الحرف بأشكاله، وكأنَّه ذو آثار في مختلف الأوفاق والأرقام، ولا يتمكَّن من تنظيمها، ولعلَّ إليه

(١) شمس المعارف الكبرى: ص٣٩٨.

يرجع ما كان بين أمير المؤمنين عليه السلام، وبين ابن عبّاس في البقيع في خصوص حرف الباء، حسب الرواية السابقة، والله العالم.

ولبُقراط الحكيم كلام في خصوصها، وينتهي إلى أنّه: إن جعلتَ هذا الحرف وبسطتَه بمركّبه العددي، ثمّ أخذت أعداد ذلك المركّب وقد أُخذ بسطه، وتُنزله في مثلّث علىٰ قليل من طين لم تمسسه النّار، ثمّ استخرج منها مستنقطاتها، واقسم علىٰ ذلك الملك على «٧» ورماها في بئر ذهب ماؤه... إلىٰ آخر كلامه[1].

وبالجملة: هو باطن الألف، وقيل: هو سِرّ الوجود، وتصريفها قائم إلىٰ يوم القيامة، وإشارة إلى جميع العوالم، علويّها وسُفليّها، وقد شرّف الله حرف الباء، وجعلها أوّل البسملة وأوّل صحيفة آدم وللمسمّيات[2].

وقد اعتقد بعض سُلاّك هذه الطريقة: أنّ الله تبارك وتعالىٰ لمّا أنزل القرآن على النبيّ صلى الله عليه وآله، قال له جبرائيل: إقرأ يا محمّد باسم ربّك، فكانت الباء مضمرة الذات والصفات؛ تضمر الذات بسرّ التجلّي، وتضمر الصفات بسرّ الأفعال، ولما خلق الله الباء خلق معها (٢٤) ملكاً، تحت يد كلّ ملك ما شاء الله من الملائكة يسبّحون الله تعالىٰ، ولأجل ذلك كانت مفتاحاً لكنوز الكُتب، وفيها سرّ البسط، وهي من أشكال الألف.

ولو كنت تكتب هذا الحرف بعددها الأصلي، وكتبتَ معها

---

(١) أنظر شمس المعارف الكبرىٰ: ص٣٠٦.

(٢) شمس المعارف الكبرىٰ: ص٤٠٠.

الأسماء الَّتي أوَّلها الباء، وحملها من تعسَّر عليه، يسَّر الله تعالىٰ ـ إن شاء الله ـ عليه.

ولها خادم وخلوة واسم الملك الموكَّل عليها «مهيائيل»، فإذا أردت استخدامه، فاكتب الحرف وضَعْه في رأسك بعد الرياضة، واتلُ الدعوة والقسم دبر كلّ صلاة (٣٨) مرَّة، واتلُ العزيمة والرياضة أربعين يوماً، فإنَّ الملك ليحضر بعونه تعالىٰ ويقضي الحاجة بإذنه المبارك، ومهما أردته تبخر وتقول: «أجب يا خادم حرف الباء» فإنَّه يحضر، هكذا أفيد.

وقيل: هذه صورته[1]:

ح	و	د	ب
د	ب	ح	و
ب	د	و	ح
و	ح	ب	د

ثمَّ اعلم: أنَّ السين من الحروف الرطبة المعتدلة والناطقة الترابيَّة، ومن كسّر مُركَّبة الحرفي في مربع (٤) في (٤) ونظرت إليه المرأة وهي تطلق، تضع حالاً، وله الآثار والخواصّ الكثيرة حسب اختلاف الكتابات المزبورة في المفصّلة.

وطريق استخدامه: أن تدخل الخلوة، وتتلو القسم (٩٠) مرَّة،

(١) المصدر السابق: ص٤٠١.

فإنَّه ـ على ما قيل ـ يهبط نوره كالشَّمس، فيقضي بإذنه تعالىٰ حاجتك، وتكون الصورة مكتوبة في الخلوة، وخادمه «طهقيائيل» يحضر حرفه، فيما تريد وتشتهي بإذن الملك الوهَّاب، وهذه صورته.

وله دعوة خاصَّة مذكورة في المفصّلات[١]، ولكلّ واحد من هذه الدعوات إضمار يطول البحث بذكره.

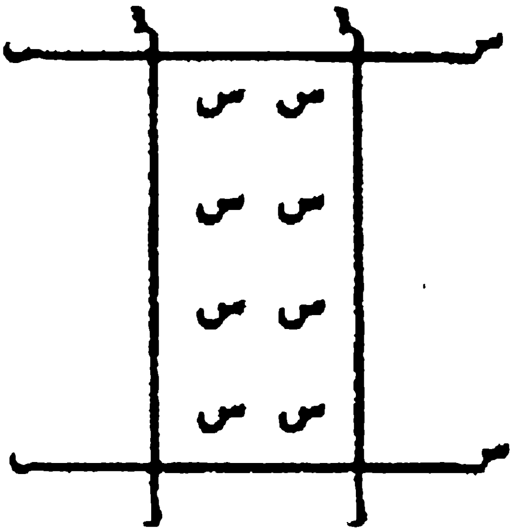

وقد يتكفَّل المباحث الآتية بسرّ سائر الحروف والأسماء وخواصّها، مع رعاية الإجمال؛ حذراً من الخروج عن حدّ الكتاب.

المقام الثاني
في سرد طائفة من الروايات والأخبار الواردة في خصوص هذه المسألة

ونذكر في طيّها بعض ما يفيد المعنىٰ العام، ويورث الاطمئنان بصحَّتها وإن كانت في المسائل الأُخرىٰ:

١ ـ أخرج الكليني بإسناده عن عبد الله بن سنان، قال: سألتُ

(١) المصدر السابق: ص٤٠٩.

أبا عبد الله عليه السلام عن تفسير ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾؟ قال: «الباء بهاء الله، والسين سناء الله، والميم مجد الله»[١].

٢ ـ وأخرج علي بن إبراهيم بأسناد مختلفة عن مفضل بن عمر، عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام تارة، وعن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام أخرى، والحسين بن خالد، عن أبي الحسن الرِّضا عليه السلام ثالثة، قال: سألته عن تفسير ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝١﴾؟ قال: «الباء بهاء الله، والسين سناء الله، والميم ملك الله»[٢] الحديث.

وفي موضع آخر قال الصدوق: حدَّثنا محمَّد بن الحسن بن أحمد بن الوليد، قال: حدَّثنا محمَّد بن الحسين الصفَّار، عن العبَّاس بن معروف، عن صفوان بن يحيى، عمَّن حدَّثه، عن أبي عبد الله عليه السلام: أنَّه سُئل عن ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝١﴾؟ فقال: «الباء بهاء الله، والسين سناء الله، والميم ملك الله، قال: قلت: الله؟ قال: الألف آلاء الله علىٰ خلقه من النعيم بولايتنا، واللام إلزام الله خلقه على ولايتنا. قلت: فالهاء؟ فقال: هوان لمن خالف محمَّداً وآل محمَّد صلوات الله عليهم أجمعين»[٣] الحديث.

فاعلم: أنَّه كيف صار التطابق والوفاق بين مفادها وما أخرجه صاحب «تفسير التذكير»، علىٰ ما حكاه العلاَّمة الشيخ علاء الدِّين في «محاضرة الأوائل ومسامرة الأواخر»، كما أشير إليه في كتب الأخبار: «خذوا معنى «أبجد» ففيه عجائب كثيرة: ألف آلاء الله، باء بهجة الله،

---

(١) الكافي ١: ١/٨٩.

(٢) تفسير القمّي ١: ٢٨.

(٣) التوحيد: ٣/٢٣٠، معاني الأخبار: ٢/٣.

جيم مجد الله، دال دين الله، هاء هاوية...»[١]. وقد مضى بتفصيله في المقام الأوّل: «فالهاء هاوية، وهي لأعدائنا أهلَ البيت عليهم السلام».

ومن كان له إلمام بعلم الرِّجال، يعلم صحَّة السند المزبور، ولا يتردَّد في إرسال مثل صفوان في خصوص هذه الرواية، المؤيّدة بكثرتها بالطرق الأُخر.

٣ ـ أخرج العيَّاشي في تفسيره عن عبد الله بن سنان، عنه عليه السلام في تفسير ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فقال: «الباء بهاء الله، والسين سناء الله، والميم مجد الله». وقال: رووا غيره عنه: «ملك الله»[٢] الحديث.

٤ ـ أخرج الصدوق في كتاب «التوحيد» عن الصَّادق عليه السلام عن ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١﴾، فقال: «الباء بهاء الله، والسين سناء الله، والميم مجد الله»[٣].

وفي خبر آخر: «والميم ملك الله»[٤].

وهكذا فيه ما رواه علي بن إبراهيم في تفسير «الله»[٥].

٥ ـ في «المجمع» عن النبيّ صلى الله عليه وآله: «خرجت الموجودات من باء ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾»[٦]. وعن عليّ عليه السلام: «أنا نقطة تحت الباء»[٧].

---

(١) محاضرة الأوائل ومسامرة الأواخر: ٢٧.

(٢) تفسير العيَّاشي ١: ٢٢/١٨ و١٩.

(٣) التوحيد: ٢٣٠/٢.

(٤) التوحيد: ٣٣٠/٣.

(٥) تفسير القمّي ١: ٢٨.

(٦) لم نجد هذا الحديث.

(٧) مشارق أنوار اليقين: ٢١، ينابيع المودَّة: ٦٩.

٦ ـ «عوالي اللآلي» عنه عليه السلام: «لو شئتُ لأوقرتُ سبعين بعيراً من باء ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝١﴾»[١].

٧ ـ كتاب «غرر الحكم» عن عليّ عليه السلام: «أنا النقطة، أنا الخطّ، أنا الخطّ، أنا النقطة، أنا النقطة والخطّ»[٢].

٨ ـ أخرج الصدوق بإسناده في «التوحيد» عن الرِّضا عليه السلام: «أنَّ أوَّل ما خلق الله عزَّ وجلَّ، ليعرف به خلقه الكتابة حروف المعجم... ـ إلى أن قال ـ ولقد حدَّثني أبي، عن أبيه، عن جدّه، عن أمير المؤمنين عليه السلام في «ا ب ت ث» أنّه قال: الألف آلاء الله والباء بهجة الله.... ـ إلى أن قال ـ: س ش فالسين سناء الله.... إلى أن قال ـ: م ن فالميم ملك الله يوم الدِّين يوم لا مالك غيره...»[٣] الحديث.

٩ ـ ما أخرجه أيضاً عن الكاظم عليه السلام: «أنَّه قال عليّ بن أبي طالب في جواب اليهودي والسائل عن الفائدة في حروف الهجاء، بعد أمره رسول الله صلى الله عليه وآله إيَّاه بجوابه: ما من حرف إلاَّ وهو اسم من أسماء الله عزَّ وجلَّ... ـ إلى أن قال ـ: وأمَّا الميم فمالك الملك»[٤] الحديث.

١٠ ـ وفيه أيضاً بإسناده عن أمير المؤمنين عليه السلام: «أنَّه سأل عثمان بن عفَّان، رسول الله صلى الله عليه وآله عن تفسير «أبجد»، فقال

---

(١) عوالي اللآلي ٤: ١٠٢/ ٥٠، مناقب آل أبي طالب ٢: ٤٣.
(٢) مناقب آل أبي طالب ٢: ٤٩.
(٣) التوحيد: ٢٣٢/ ١.
(٤) التوحيد: ٢٣٥/ ٢.

رسول الله ﷺ: تعلّموا تفسير «أبجد»، فإنّ فيه الأعاجيب كلّها، وويل لعالم جهل تفسيره. فقيل: يا رسول الله ما تفسير أبجد؟ فقال: أمّا الألف فآلاء الله، حرف من أسمائه، وأمّا الباء فبهجة الله. . . ـ إلى أن قال ـ: وأمّا الميم فملك الله الّذي لا يزول، ودوام الله الّذي لا يفنىٰ»(١).

١١ ـ وما رواه فيه في تفسير الصمد، أنّه قال: «وأمّا الميم فدليل علىٰ ملكه، وأنّه الملك الحقّ؛ لم يزل ولا يزال ولا يزول»(٢).

١٢ ـ وقد وردت في أذيال الحروف المقطّعة القرآنيّة ما يتعجّب منه الإنسان أكثر من التعجُّب من خلق السّموات والأرض، فإنّ الأسرار المكنونة فيها أكثر وأوفر من أسرار عالم الشهادة، فإنّ فيها سرّ الغيب والذات والشهادة والصفات، وفيه كلّ الشيء وكلّ الشيء في كلّ الشيء.

ولو شئنا نقل جميع ما ورد عن الأئمّة المعصومين ـ عليهم صلوات المصلّين ـ وما نُسب إليهم ﷺ لخرجنا عن الوظيفة في هذه الوجيزة، وسيظهر في طيّ المباحث حول الحروف والأعداد في المواقف المناسبة، ما يزيدك علماً وحكمة، فانتظر.

١٣ ـ قال المجلسي عليه الرّحمة: إنّه قد روت العامّة في «ألم» عن ابن عبّاس: «أنّ الألف آلاء الله، واللام لطفه، والميم ملكه، والهاء الحسن والسناء ـ بالمدّ ـ الرفعة والمجد والكرم والشرف» هكذا في «مرآة العقول»(٣).

---

(١) التوحيد: ٢/٢٣٧.

(٢) التوحيد: ٦/٩٢.

(٣) مرآة العقول ٢: ١/٣٧.

١٤ ـ قد روى القُرْطُبي عن عثمان بن عفَّان: أنَّه سئل رسول الله ﷺ عن تفسير ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾؟ فقال: «أمَّا الباء فبلاء الله وروحه ونضرته وبهاؤه، وأمَّا السين فسناء الله، وأمَّا الميم فملك الله، وأمَّا الله فلا إلٰه غيره، وأمَّا الرَّحْمٰن...»[(١)].

وفيه أيضاً: وروي عن كعب الأحبار أنَّه قال: «الباء بهاؤه، والسين سناؤه، فلا شيء أعلىٰ منه، والميم ملكه، وهوعلى كلِّ شيءٍ قدير، فلا شيء يعازّه»[(٢)].

وقيل: «إنَّ كلّ حرف هو افتتاح اسم من أسمائه... ـ إلى أن قال ـ: والراء مفتاح اسمه الرزَّاق، والحاء مفتاح اسمه حليم، والنون مفتاح اسمه نور»[(٣)] انتهىٰ.

١٥ ـ في كتاب التجارة من «الوسائل»، الباب ١٠٣ من أبواب ما يُكتسب به، عن «معاني الأخبار» و«الأمالي» عن محمَّد بن الحسن، عن الصفَّار، عن محمَّد بن الحسين بن أبي الخطَّاب وأحمد بن الفضَّال جميعاً عن ابن أسباط عن الحسن بن زيد عن محمَّد بن سلام عن ابن نباته، قال: قال أمير المؤمنين عليه أفضل صلاة المصلِّين: سأل عثمان رسول الله ﷺ عن تفسير أبجد، فقال رسول الله ﷺ: «تعلَّموا تفسير أبجد فإنَّ فيها الأعاجيب، ويل لعالم جهل تفسيره». فسأل رسول الله ﷺ عن تفسير «أبجد»، فقال:

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١: ١٠٧.
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق.

«أمّا الألف فآلاء الله حرف بحرف من أسمائه. وأمّا الباء فبهجة الله، وأمّا الجيم فجنّة الله وجلالة الله وجماله، وأمّا الدّال فدين الله.

وأمّا «هوّز»: فالهاء هاء الهاوية فويل لمن هو حيّ في النّار. وأمّا الواو فويل لأهل النّار. وأمّا الزاء فزاوية في النّار، فنعوذ بالله ممّا في الزاوية؛ يعني زوايا جهنّم.

وأمّا «حطّي»: فالحاء حطوط الخطايا عن المستغفرين في ليلة القدر وما نزل به جبرئيل مع الملائكة إلى مطلع الفجر. وأمّا الطاء فطُوبىٰ لهم وحسن مآب، وهي شجرة غرسها الله ونفخ فيها من روحه، وأنَّ أغصانها لتُرى من وراء سور الجنّة، تُنبت بالحُليّ والحُلَل متدلية على أفواههم. وأمّا الياء فيد الله فوق خلقه باسطة، سبحانه وتعالى عمّا يشركون.

وأمّا «كلمن»: فالكاف من كلام الله، لا تبديل لكلمات الله، ولن تجد من دونه ملتحداً. وأمّا اللام أهل الجنّة بينهم في الزيارة والتحيّة والسّلام، وتلاوم أهل النّار فيما بينهم. وأمّا الميم فملك الله الّذي لا يزول ودوامه الّذي لا يفنىٰ. وأمّا النون فنون ﴿وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾[1] والقلم قلم من نور وكتاب من نور في لوح محفوظ يشهده المقرّبون، وكفىٰ بالله شهيداً.

وأمّا «سعفص»: فالصاد صاع بصاع وفصّ بفصّ؛ يعني الجزاء بالجزاء، كما تَدين تُدان إنّ الله لا يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبادِ.

---

(١) القلم (٦٨): ١.

وأمّا «قرشت»: يعني قرشهم وحشرهم ونشرهم يوم القيامة، فقضى بينهم بالحقّ وهم لا يُظلمون».

ورواه في «معاني الأخبار» بإسناد آخر(١).

المقام الثالث

في ذكر ما قيل في هذه الروايات

حسب اختلاف أنظار الباحثين وتشتّت آراء الفضلاء البارعين في هذه المواقف والمحالّ.

فقد يُقال ـ بعد الفراغ عن أنّ اشتقاق باء البسملة من باء البهاء والبهجة ـ: ليس من الاشتقاق الصغير المتعارف في علم الصرف، بل ولا من الاشتقاق الكبير المتراءىٰ أحياناً في اللغات حسب اختلاف الألسنة والملل، بل هو نوع آخر من الاشتقاق هو الاشتقاق الأكبر.

إنّ معنىٰ الاشتقاق في حقائق الأسماءالإلٰهيّة على نوعين: إمّا ظاهر من شأنه الظهور، أو خفيّ من شأنه الخفاء بنفسه وإن ظهر في آثاره، والثاني أقرب إلى الحقّ؛ لكونه مثالاً للحقّ في غيبة الذات، وظهوره بالآثار فهي الرابطة بين الظهور والبطون؛ وذاته الخفيّة من طرف الحقّ وأثره من طرف الخلق، فهو آية الحقّ في الظهور والبطون، فالمطابق له في الألفاظ هو الألف، الّذي أوّل الحروف من حيث أوّليّة خفائه من أوائل أسماء الله سبحانه وغيرها كالبسملة لفظاً

---

(١) وسائل الشيعة ١٢: ٢٤٦ كتاب التجارة، أبواب ما يكتسب به، الباب ١٠٥، الحديث ١١، معاني الأخبار: ٢/٤٦، الأمالي، الصدوق: ٢/٣١٧، التوحيد: ٢/٢٣٧.

وظهوره كَتْباً إلاَّ في البسملة؛ حيث أبدل إظهاره بتطويل الباء لما ذكروه في موضعه، ونسبة الكتابة إلى اللفظ نسبة الجسد إلى الروح، فهو خفيٌ روحاً وظاهر قِشْراً، ومن حيث استقامته الَّتي هي الأصل في أشكال الحروف، ككون «الصراط المستقيم» هو صفة فعل الحقّ ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، ومن حيث اشتقاق سائر الحروف منه كتباً، فهو كالركن من الدائرة، كتوسّط الصّراط المستقيم بين السُّبُل ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾[1] ولأنَّ مخرجه أقرب إلى القلب الَّذي هو المبدأ الأوَّل في عالم الإنسان، فهو أوَّل الحروف مخرجاً، وأبعدها ظهوراً، وأكثرها امتداداً؛ لجريانه من قريب السُّرَّة إلى الفم، فهو يمرُّ على وسط المخارج كالصّراط المستقيم إلى غير ذلك، فهو الآلاء بمعنى النعم الباطنيَّة الخفيَّة.

والأوّل علىٰ أقسام ثلاثة: إمَّا يكون ظاهراً بالمرآتيَّة المحضة للحقّ؛ بحيث يكون فاني الهويَّة في جنب الحقّ والاسم المكنون المخزون عنده سبحانه، وإمَّا يكون ظاهراً بنفسه وهويَّته أيضاً، وإمَّا يكون ظاهراً بنفسه في مظاهره، ومظهراً لها:

والأوَّل: مرآة ظهر بالمرآتيَّة، وخفي بنفسه كالمرآة الصافية الَّتي لا تظهر بصفات نفسها للأبصار، وإنَّما شأنه إظهار الشيء.

والثاني: مرآة يتعلَّق بها بنفسها الإدراك، وتظهر فيها الصورة علىٰ ما هي عليه، كأكثر المرائي الصافية.

والثالث: مرآة ضعف مرآتيَّته في ظهور نفسه ومظهر هويَّته في

(١) الأنعام (٦): ١٥٣.

صفاته المنايرة، كما هو مرآة له، فصار مبدأ لظهور الكثرة وخفاء الوحدة الحقيقيَّة الَّتي هي مرآة له. ومن البيّن سبق الأوّل على الثاني، وسبقه على الثالث.

فالأوّل: هو الباء يتلو الألف مرتبة، ولا يفارقه كتباً إلاّ بانحراف طرفيه وبقاء الباقي بعد الانبساط، وهو بهاء الحقّ ومرآة حسنه، ليس لها صفة وراء إظهار حسن الحقّ؛ إذ الحقّ هو الحقّ المطلق والجميل المطلق، فمرآته مرآة الحسن والبهاء وهو حقيقة الاسم الحاكي عن صفاته الذاتيَّة، وهو متَّصف بصفة الفناء، فهو خالٍ عن نفسه بخلاف الثاني، وعن سائر الأشياء بخلاف الثالث، ومعطَّل عمَّا سوىٰ شأن المرآتيَّة، فيوافقه المعنىٰ الثاني للبهاء، وهو مظهر الفخر الذاتي، فيوافقه المعنى الثالث، وهو أصل مقام الأُنس المنبعث عن الوصل؛ إذ لا وصل إلاّ بالفناء والبقاء، فيوافقه الرابع الَّذي للباء ممدوداً، فهو مبدأ البهجة والسرور بالحقّ، الَّذي هو السرور الحقّ والبهجة الحقَّة؛ إذ لا سرور للعارف إلاّ بذلك وغيره باطل عاطل.

والثاني: هو السين الَّذي هو الباء بزيادة التصرُّف في وسطه وحبله كالطرفين، فصار له أضراس ثلاثة: وهي سناء الحقّ، وضوء برقه، ونوره الظاهر بنوارنيَّة الحاكي عن مبدأ وجوده، كما أنَّ سناء البرق ظاهر بنفسه، ويكون شعاعاً للبرق، ودالاً عليه؛ بحيث لا يكاد يُفارق أحدُ اللحاظين الآخر عند إدراكه، ولَمَعان وظهور البرق لأمر مغاير له منفصل عنه، كذا سناء الله ظاهر بنفسه وهويَّته، مُظهِر للحقّ وآية له، لا يغلب أحد اللحاظَين الآخر، وهو لَمَعان وظهور لفعل الحق والمرتبتين المتقدّمتين عليه، فكانت

السابقة برقاً لا يظهر بهويّته للأبصار بنفسه، واللاحقة ضوءه الَّذي ظهر بنفسه، وأظهر البرق بظهوره، فكأنَّه عبد قائم بصفة العبوديَّة المقتضي لملاحظة السابق عليه، فانٍ عن نفسه باقٍ بربّه، وهذا السناء أرفع من جميع الإبداعات الظاهرة، فهو رفعة الحقّ ومظهرها، فيصحّ أخذه بالمعنى الثاني.

والثالث: فهو الميم المستدير الحاكي عن معنى دائرة الإمكان، ويقابل الألف من حيث إنَّه صفة الاستقامة المتقابلة للاستدارة؛ من حيث إنَّه آخر المخارج نزولاً، فيقابل مخرج الألف وهو ملكه ومجده وعلوّه على الأشياء، وهذا المعنى يقتضي ظهور الأشياء بصفة المقهوريَّة والمملوكيَّة؛ حتَّىٰ يظهر الحقّ فيها بصفة الملكيَّة والمالكيَّة والعلوّ، فهو البرزخ الحاكي عن الواجب بهذه الصفات وعن الممكنات بتلك، والجامع لحقائق الأسماء الإضافيَّة، وقد انضمَّ إلىٰ جهته الَّتي إلى الحقّ، وجهته في نفسه جهته إلى الخلق، وباعتبارها ظهر أعيانها بصفاتها، فشهدت لخالقها بأضدادها، وهو مقام الربوبيَّة الفعليَّة الَّتي تقتضي وجود المربوب.

وغير خفيّ: أنَّ الغرض من هذا البيان ليس حصر حقائق الأسماء في الحروف الأربعة، بل يشبه أن يكون هي أُصول الحقائق أو الأُولىٰ من كلّ نوع من الأنواع ما عدا الألف؛ إذ هو الأخير من مقام الغيب وقبله الألف، المشار إليه بلام ألف لا، وقبله النقطة، ويشهد لكثرة الأسماء وتقدّم البهاء عليها دعاء السحر المعروف، الوارد في سحور شهر رمضان؛ حيث قدَّم على الأسماء الكثيرة.

وقد يُقال في تحقيق ما نُسب إلى أمير المؤمنين وإمام الموحّدين

ـ عليه آلاف التحيَّة من المصلِّين ـ بعدما ورد: أنَّ القرآن في باء ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾: «أنا نقطة تحت الباء»[١].

اعلم ـ هداك الله يا حبيبي ـ أنَّ من جملة المقامات الَّتي حصلت للسالكين ـ السائرين إلى الله وملكوته بقدم العبوديَّة واليقين ـ أنَّهم يرون بالمشاهدة العيانيَّة كلّ القرآن، بل جميع الصحف المنزَّلة في نقطة تحت الباء من ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ بل يرون جميع الموجودات في تلك النقطة الواحدة، وقد تبيَّن في محلّه بالبرهان الحكمي: أنَّ بسيط الحقيقة كلّ الأشياء، وبه صرَّح معلّم المشَّائين في غير موضع من كتابه[٢].

ونحن نمثِّل لك في هذا المعنىٰ مثالاً من المحسوس يقرِّبك إلىٰ فهمه من وجه، فإنَّك إذا قلت: «لله ما في السَّماوات والأرض» فقد جمعت جميع الموجودات في كلمة واحدة، وإذا حاولت ذكرها بالتفصيل لافتقرت إلى مجلَّدات كثيرة، ثمَّ قس على نسبة اللفظ إلى اللفظ نسبة المعنى إلى المعنىٰ، على أنَّ فُسحة عالم المعاني والتفاوت بين أقسامها وأفرادها، لا يُقاس بفسحة عالم الألفاظ والتفاوت، ولو اتَّفق لأحد أن يخرج من هذا الوجود المجازي الحسِّي إلى أن تحقّق بالوجود العقلي، واتّصل بدائرة الملكوت السُّبحاني؛ حتَّى يشاهد معنىٰ ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾[٣]، ويرىٰ ذاته محاطاً بها مقهورة تحت كبريائه تعالىٰ، فحينئذٍ يشاهد وجوده تحت نقطة باء السببيَّة لمسبِّب الأسباب، ويعاين عند

---

(١) راجع ينابيع المودّة: ٦٩.
(٢) أنظر أثولوجيا: ١٣٤.
(٣) فصّلت (٤١): ٥٤.

ذلك تلك الباء الَّتي في ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾؛ حيثما تجلَّت له عظمتها وجلالة قدرها ورفعة سرّ معناها، هيهات نحن وأمثالنا لا نشاهد من القرآن إلاّ سواداً؛ لكوننا في عالم الظلمة والسواد، وما حدث فيه من مدّ هذا المداد؛ أعني مادّة الأبعاد والأجساد وهيولى الأضداد والأعداد، والمدرك لا يدرك شيئاً إلاّ بما في قوّة إدراكه دائماً يكون من جنس مدركاته، بل هي عينها كما تحرّر في محلّه، فالحسّ لا ينال إلاّ المحسوس، ولا الخيال إلاّ المتخيَّل، ولا العقل إلاّ المعقول، فلا يدرك النُّور إلاّ النُّور ﴿وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾.

فنحن بسواد هذه العين لا نشاهد إلاّ سواد أرقام ومدار نقوش الكتاب، فإذا خرجنا عن هذا الوجود المجازي والقرية الظالم أهلها؛ مهاجراً إلى الله ورسوله في قطع المنازل الَّتي بيننا وبين المطلب، وأدركنا الموت عن هذه النشآت والأطوار، الَّتي بعضها صور حسّيَّة أو خياليَّة أو وهميَّة أو عقليَّة، وقطعنا النظر عن الجميع ومحونا بوجودنا في وجود كلام الله، ثمَّ أحيانا الله بعد موتنا، وخرجنا من المحو إلى الصحو، ومن الفناء إلى البقاء، ومن الموت إلى الحياة حياةً ثابتة باقية ببقاء الله، فما نرىٰ بعد ذلك من القرآن سواداً أصلاً، إلاّ البياض الخالص والنُّور الصرف الَّذي لا يشوبه ظلمة، واليقين المحض الَّذي لا يعتريه شكّ، وتحقَّقنا بقوله تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ﴾[1] وبقوله: ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا﴾[2].

وعند ذلك نقرأ الآيات من نسخة الأصل، وهو الإمام المبين

---

(١) الشورى (٤٢): ٥٢.

(٢) الكهف (١٨): ٦٥.

والذكر الحكيم ومن عنده علم الكتاب، وهو أمير المؤمنين عليّ عليه السلام: لقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝٤﴾[1]، ولهذا نطق بما نطق من قوله عليه السلام: «أنا نقطة تحت الباء»[2]، وقوله عليه السلام مشيراً إلى صدره: «إنَّ هٰهنا لعِلماً جَمّاً»[3][4].

ولك أن تقول وجهاً آخرَ قريباً من أُفُق النّاس وأفهام الأُناس وهو: أنَّ الظاهر من كثير من الأخبار: أنَّ للحروف المفردة أوضاعاً ومعاني متعدّدة لا يعرفها إلاَّ حججِ الله تعالىٰ، وهذه إحدىٰ جهات علومهم واستنباطهم من القرآن، فعليه يمكن أن يكون هذا مبنيّاً على الاشتقاق الكبير والمناسبة الذاتيَّة بين الألفاظ ومعانيها، فالباء لمَّا كانت مشتركة بين المعنى الحرفي وبين البهاء، فلابدَّ من مناسبة بين معانيها، وكذا الاسم والسناء لمَّا اشتركا في السين فلذا اشتركا في معنىٰ العُلُوّ والرفعة، وكذلك الاسم لمَّا اشترك في معنى المجد والملك، فلابدَّ من مناسبة بين معانيها. وهذا باب واسع في اللغة يظهر ذلك للمتتبّع بعد تتبّع المعاني والمباني.

فالمراد من قوله عليه السلام: «فالسين سناء الله» أنَّ هذا الاسم في الاسم مناط لحصول هذا المعنىٰ فيه، وكذا البواقي، والتأمُّل في ذلك يكسر سَوْرة الاستبعاد عن ظاهر هذا الكلام.

وربَّما يُقال: لمَّا كان تفسيره بحسب معنىٰ حرف الإضافة ولفظ

---

(١) الزخرف (٤٣): ٤.
(٢) ينابيع المودّة: ٦٩.
(٣) راجع نهج البلاغة، صبحي الصالح: ٤٩٥، الحكمة ١٤٧.
(٤) هذا القول من أوّله إلى هنا قول صدر المتألهين، أنظر الأسفار ٧: ٣٢ ـ ٣٤.

الاسم، غير محتاج إلى البيان للعارف باللغة، أجاب عليه السلام بالتفسير بحسب المدلولات البعيدة، أو لأنّه لمّا صار مستعملاً للتبرُّك مُخرَجاً عن المدلول الأوّل، ففسّره بغيره ممّا لوحظ في التبرُّك.

والمراد بهذا التفسير: إمّا أنّ هذه الحروف، لمّا كانت أوائل هذه الألفاظ الدالّة على هذه الصفات، أُخذت للتبرُّك، أو أنّ هذه الحروف لها دلالة على هذه المعاني؛ إمّا على أنّ للحروف مناسبة مع المعاني بها وضعت لها، وهي أوائل هذه الألفاظ، فهي أشدّ حروفها مناسبة وأقواها دلالة على معانيه، أو لأنّ الباء لمّا دلّت على الارتباط والانضياف، ومناط الارتباط والانضياف إلى شيء وُجدانُ حُسن مطلوبٍ للطالب، ففيها دلالة على حُسن وبهاء مطلوبٍ لكلّ طالب، وبحسبها فُسّرت ببهاء الله، ولمّا كان الاسم من السموّ الدالّ على الرفعة والعُلوّ والكرم والشرف، فكلٌّ من الحرفين بالانضمام إلى الآخر دالّ على ذلك المطلوب، فنُسبت الدلالة على السناء ـ بحسب المناسبة ـ إلى السين، وفسّرها بسناء الله، والمراد على المجد أو الملك بحسبها إلى الميم، وفسّرها بالمجد أو الملك على الرواية الأخرى[١]. انتهى ما أردنا نقله عن جملة الأخبار وبعض الأعيان من العلماء بالله. والله وليّ التوفيق.

المقام الرابع

بعض الرموز المستورة تحت الباء ونقطتها

اعلم أنّ جميع ما قيل حسب أطوار الأفهام يصحّ في تلك المرتبة

(١) مرآة العقول ٢: ٣٧ ـ ٣٨.

وتيك المنزلة؛ وذلك لأنَّ للقرآن مراتب كمراتب الوجود، فمرتبة منه هو الوجود الخارجي الواجبي؛ لأنَّه علمه تعالىٰ، وعلمه عين ذاته الأزليَّة القديمة، فهو تعالىٰ والقرآن في تلك المرتبة واحد، وهذا معنى قول من يقول: القرآن قديم، ومرتبة منه الوجود الخارجي الإمكاني؛ إلى أن تصل في التحرُّف والتنزُّل إلى مرتبة العرض غير القارّ، وهو الصوت أو الكيف المخصوص، فإذا فُسّر بالمعنىٰ المناسب له، فهو لا ينافي التفسير الآخر؛ لاختلاف مراتب المفسِّرين طولاً أو عرضاً، وهو تختلف مراتبه طولاً وعرضاً كالوجود، إلاَّ أنَّ أنحاء التشكيك مختلفة ومتشتِّتة، حسب ما تحرّر في محلّه.

ثمَّ إنَّ هنا طائفة من الأخبار يظهر منها: أنَّ الوجود ظهر من باء ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾، كما حُكي عن محيي الدِّين العربيّ: أنَّ بـ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ظهر الوجود، وبالنقطة تميّز العابد عن المعبود[1]، وطائفة أُخرىٰ مشتملة على بيان الرموز والإشارات.

أمّا الأولى: فربَّما تكون ناظرة إلى أنَّ كيفيَّة نزول الوجود ليس مثل كيفيَّة نزول سائر الأشياء، بل هو في النزول يُشبه نزول النُّور من الشَّمس في وجه تخيّلي، وهو أنَّ المنزلة الأُولى من النُّور الساطع، هي تمام الأنوار اللاحقة عليها والمتأخِّرة عنها، فإذا صدر النُّور الأوَّل، يصحّ أن يُقال: بالنُّور الأوَّل صدر الوجود كلّه والأنوار كلّها؛ لانطواء ما دونها فيه، فإذا تكلَّم الحقّ ـ جلَّ اسمه ـ في خلق السَّماوات والأرض والملكوت الأدنىٰ والأعلىٰ، فلابدَّ أن يتكلَّم

---

(١) الفتوحات المكيَّة ١: ١٠٢، أنظر مشارق أنوار اليقين: ٣٨، حيث يُستفاد منه أنَّ العبارة رواية عن المعصوم.

باسمه الشَّريف، كما أمر عباده بذلك، فبمجرَّد ظهوره بالكلام الوجودي المناسب له لا يبقى الوجود المتأخّر، بل يوجد كلّ المتأخِّرات بأوّل الظهور وبأوّل التجلّي، وهو التجلّي الَّذي في كلامه المسموع والمقروء يكون الباء، فالباء في الكلام النفسي والذهني والعقلي ـ حسب اختلاف آفاق الموجودات المتوسِّطة، كجبرئيل وغيره ـ هو الباء في المتجلّي الأوّل العيني، فإذا تجلّى فبأوّل تجلّياته القيُّوميَّة صدر كلّ شيء، وجفّ القلم بما هو كائن، فعلى هذا يصحّ أن يُقال: بالباء ظهر الوجود.

وحيث إنَّ الوجود لا امتياز له ـ لأنَّ صرف الشيء لا يتكرَّر ـ فالامتياز بالأمر الآخر، وهو الماهيَّة أو الإمكان الفقري، وبمثابة ذلك الباء، فإنَّها لا تمتاز عن التاء والثاء إلاَّ بالنقطة، فبها ظهر الوجود، وبالنقطة تميَّز العابد عن المعبود، وإذا نظرنا إلى الوجود فلا يحكم عليه إلاَّ بالوجوب، وإذا اعتبر فيه التنازل والتشكيك يحصل العنوان المقابل للوجود، وهو الإمكان الفقري أو العقل والماهيَّة أو النُّور المضاف، فكلّ ذلك هي حقيقة الإنسانيَّة الَّتي عبَّر عنها الأمير عليه السلام: بـ«أنا نقطة تحت الباء» حسب ما نُسب إليه. والله العالم.

وأمَّا الثانية: فقد تقرَّر في محلّه: أنَّ كلّ شيء في كلّ شيء، وقد ذكرنا في تعاليقنا على الإلٰهيَّات من الأسفار[1]: أنَّ هناك ثلاث قواعد:

الأولى: قاعدة الكلّ في الكلّ، وهي قاعدة طبيعيَّة.

---

(١) أنظر تعليقات المصنّف على الأسفار الأربعة ذيل ٦: ١٧٤، الفصل الثاني في إثبات علمه بذاته.

والثانية: قاعدة كلّ شيء فيه معنىٰ كلّ شيء، وهي قاعدة تستعمل في علم الأسماء والعرفان.

والثالثة: قاعدة كلّ شيء في كلّ شيء، وهي قاعدة تستعمل في الفلسفة العليا.

والنظر في الثانية إلى أنَّ جميع الأشياء بقضّها وقضيضها ومن صدرها إلى ذيلها، مظهر جميع الأسماء، ولا يشذّ عن الوجودات الخارجيَّة اسم من الأسماء، وكلّ الأشياء على العموم الاستغراقي مستجمع لمقتضيات جميع الأسماء الإلٰهيَّة، وإنَّما الاختلاف في الظهور والبطون.

وهذه القاعدة مُبرهنة في الفلسفة العليا بالقاعدة الثالثة وهو: أنَّ بعد القول بأنَّ الوجود أصيل، وهو أصل كلّ كمال وجمال، وأنَّ التشكيك فيه خاصّي، فلا يكون في الوجود مرتبة إلاَّ وهو جامع لجميع الكمالات على نعت الضعف، لا الفقدان، وإلاَّ يلزم أن لا يكون التشكيك خاصّياً.

فعلى هذا الأصل المسلَّم عند أهله، وعلى تلك القاعدة المحرّرة في محلّه، جميع الموجودات مظهر جميع الأسماء والصفات، وفيه جميع التجلّيات.

بل عن الوالد الخرّيت في هذا الميدان ـ مدَّ ظلّه ـ: أنَّ الأسماء المستأثرة أيضاً ذات تجلّيات، إلاَّ أنَّها بنحو الخفاء الذاتي، كما هو في الحقّ بنحو الاختفاء الأبدي(١).

---

(١) تعليقات الإمام الخميني على مصباح الأنس: ٢١٨، تعليقات الإمام الخميني على شرح فصوص الحكم: ٢٦.

ومن تلك الموجودات الباء والألف والسين والميم... وهكذا، فكما أنَّ الأئمَّة الحقّ والأفراد الكاملين من البشر، مظهر جميع الأسماء والصفات الكاملة، ولكنَّهم في مرحلة الظهور يوصفون بالاسم الخاصّ: الصَّادق والكاظم والرِّضا والجواد والعابد... وهكذا، كذلك سائر الوجودات في كلّ مرحلة ومرتبة، فالباء والألف والسين والميم واللام والهاء، مظاهر الأسماء الجماليَّة والجلاليَّة، فبعض منها مظهر الجمال بغلبة الرَّحمة، وبعض منها مظهر الجلال بغلبة القهر، وبعض منها يستوي فيه المظاهر والظهورات، وهكذا في نفس الأسماء الإلٰهيَّة والوجودات الَّتي هي الأسماء حقيقة، فإذا قيل: «الباء بهجة الله»، فهو لأجل غلبة اسم البهجة فيه، وظهور بائها في الباء الَّذي هو من الموجودات ومظهر كلّ شيء، وهكذا سائر الحروف، ومن تلك التقاريب في الطائفتين من الأخبار، يظهر معنىٰ ما نُسب إليه عليه السلام: «أنا النقطة، أنا الخطّ، أنا الخطّ، أنا النقطة، أنا النقطة والخطّ»[1].

وإن شئت قلت: هي إشارة إلى القاعدة الأُخرىٰ المحرّرة في الفلسفة العليا أيضاً، وهي قاعدة الوحدة في الكثرة والكثرة في الوحدة، فإنَّ الخطّ هي الكثرة الحاصلة من تجلّيات النقطة، والنقطة هي الخطّ في مرحلة البساطة والوحدة، وهو عليه السلام حافظ مراتب الوحدة والكثرة، لا تشغله الدُّنيا عن الآخرة ولا الآخرة عن الدُّنيا، لا تنثلم وحدته بتوجيه النظر إلى الكثرات في مختلف النشآت، ولا يسهو عن أحكام تلك التجلّيات المتشتّتة مع توغّله في الوحدة، فافهم واغتنم.

(١) مناقب آل أبي طالب ٢: ٤٩.

تكملة: بحث عن أسرار حروف البسملة

الحروف الملفوظة لهذه ثمانية عشر، والمكتوبة تسعة عشر، وإذا انفصلت الكلمات وكُتبت مفصّلة تصير إلى اثنين وعشرين:

فالثمانية عشر إشارة إجماليَّة إلى العوالم الكثيرة، البالغة كناية إلى ثمانية عشرَ ألفَ عالَم؛ إذ قد عرفت أنَّ الألف هو العدد التامّ المشتمل على مراتب الأعداد والكلمات فهي أمّ المراتب بِرُمَّتها، فعبَّر عنها عن أُمَّهات العوالم في الغيب والشهادة، وهي عالم الجبروت وعالم الملكوت والعرش والكرسيّ والسَّماوات السبع والعناصر الأربعة والمواليد الثلاث.

وأمَّا التسعة عشر فهي إشارة إليها مع العالم الإنسانيّ، فإنَّه وإن كان داخلاً في الحيوان الَّذي من المواليد الثلاث، إلاَّ أنَّه باعتبار جامعيَّته للكلّ وحصره للوجود عالم آخر، كالخيط بالنسبة إلى الدّرر المنظومة به، والألفات المحتجبة الثلاث الَّتي متمِّم الاثنين والعشرين، إشارة إلى العالم الإلٰهي الحقّ باعتبار الذات والصفات والأفعال، فهي ثلاثة عوالم عند التفصيل، وفي اعتبار عالم واحد.

وقيل: هو هكذا عند التحقيق، والثلاثة المكتوبة إشارة إلى ظهور تلك العوالم على المظهر الأعظمي الإنساني[1].

وقيل: لاحتجاب العالم الإلٰهي حين سئل رسول الله ﷺ عن ألف الباء: أين ذهبت؟ قال: «سرقها الشيطان»، وأمر بتطويل باء ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ تعويضاً عن ألفها، إشارة إلى احتجاب ألوهيَّة الإلٰهيَّة

(١) أنظر تفسير القرآن الكريم المنسوب إلى محيي الدِّين ابن عربي ١: ٨ ـ ٩.

في صورة الرَّحمة الانتشاريَّة، وظهورها في الصورة الإنسانيَّة بحيث لا يعرفها إلاَّ أهلها، ولهذا نُكّرت في الوضع، فالذات محجوبة بالصفات، والصفات بالأفعال، والأفعال بالأكوان والآثار، فمن تجلَّت عليه الأفعال بارتفاع حجب الأكوان توكّل، ومن تجلَّت عليه الصفات بارتفاع حجب الأفعال رضي وسَلَّم، ومن تجلَّت عليه الذات بانكشاف حجب الصفات فني في الوحدة، فصار موحّداً مطلقاً فاعلاً ما فعل وقارئاً ما قرأ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾[1].

وقيل: إنَّ الألف المحذوفة قراءة وكَتْباً إشارة إلى القائم الغائب، الَّذي به قوام الوجود في الصعود، فالألف هو المقوّم للحروف غائب في ابتداء الكتاب الإلٰهي مشيراً إلى غياب القائم من آل محمَّد ﷺ.

علم الأوفاق:

اعلم أنَّ الاسم «الله» عند هؤلاء الأعلام، هو الاسم الأعظم، وعليه دعوىٰ الاتّفاق، وله من العدد ٦٧ لفظاً و٩٩ رقماً، وأمَّا أسماء حروفه ٢٦ تشير إلى اسمين جليلين، وهما عليّ قديم، ومن كتب في شرق الشَّمس على جسم شريف احترق به كلّ شيطان مريد، وإذا أمسكه معه في يوم شديد البرد وأكثر من ذلك لا يحسّ بألم البرد الشديد، وإذا تختَّم به صاحب الحمَّىٰ البلغميَّة ذهتب لوقتها، وإذا نقش مربّعه على رَقّ والشَّمس في الأسد، وحمله بعد ذكره ٣١٧ مرَّة، فلا يضع يده على ماء إلاَّ غار بإذن الله تعالىٰ؛ بشرط أن يكون صاحب حال مع الله تعالى، ومن عرف قدره استغنىٰ به عن كلّ ما سواه؛ لأنَّه اسم الله تعالىٰ الأعظم الَّذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئل به أعطىٰ

(١) المصدر السابق ١: ٩.

ومن ثمَّ كانت قواه الظاهرة تشير إلىٰ قولك: مجيب، وهو ـ علىٰ ما قيل[١] ـ أوَّل الأسماء المظهرة، والجامع لحقائقها، والمشتمل على دقائقها ورقائقها، وله مخمَّس جليل القدر من رسمه وحمله لم يعسر عليه أمر من الأمور، وبه تسهل الشدائد، وهو ذكر أكابر المؤلّهين من أهل الخلوات، يصلح ذكراً لمن كان اسمه محمَّداً، فليكثر من ذكره يقول: «الله الله» لما نُسب إليه ﷺ: «اللَّهُ اللَّهُ رَبِّي لاَ أُشرك به شيئاً» يصلح أيضاً لمن كان اسمه عبد الله، وهذه صورته[٢].

١٨	١٥	٢٣	١٤	١
١٢	٤	١٦	٨	١٥
٦٠	٢٤	١٥	٢	١٩
٥	١٧	٩	٢٣	١٣
٢١	٧	٣	٢٠	٧

(١) شمس المعارف الكبرىٰ: ١٧.

(٢) صورة أكثر الأسماء في هذا التفسير غير موسومة في المخطوط بل بيمناها من كتاب شمس المعارف الكبرىٰ. أنظر شمس المعارف الكبرىٰ: ١٦١.

علم الحروف والأعداد والأوفاق

نقل القرطبي عن الصّادق عليه الصلاة والسلام ـ في قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ـ: «مَن حَمِد بصفاته كما وصف نفسه فقد حمد؛ لأنَّ الحمد حاء وميم ودال، فالحاء من الوحدانيَّة، والميم من الملك، والدال من الدَّيموميَّة، فمن عرفه بالوحدانيَّة والدَّيموميَّة والملك فقد عرفه، وهذا هو حقيقة الحمد لله»[١] انتهىٰ.

وإجمال هذا المجمل: أنَّ الإحاطة العرفانيَّة بالذات الوحدانيَّة هو العرفان بالقِدَم، فإذا عرفه بالقدم والبقاء، وأنَّ كلّ ما في الوجود ـ وما تحت هذا العنوان ـ تحت ظلّه، فقد عرفه حقيقةً، فإذاً لا حقيقة للحمد إلاّ عرفانه القلبي فإنَّه الحمد الأخصّ، الَّذي لا يناله إلاّ الأوحدي.

ثمَّ اعلم أنَّ طريق استكشاف تلك البارقة، وسبيل عرفان أنَّ الحاء تنتهي إلىٰ الوحدانيَّة، والميم إلىٰ الملك، والدال إلىٰ الدَّيموميَّة حسب الحساب، لا يمكن أن يُنال إلاّ بعد الاطّلاع على رموز الأسماء الإلٰهيَّة بالإرتياضات النفسانيَّة.

فاعلم أنَّ الحاء من أسرار الحياة[٢]، وعددها (٨)؛ لأنَّها من

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١: ١٣٤.

(٢) أنظر شمس المعارف الكبرىٰ: ٤٠٤ ـ ٤٠٥.

نسبة الكرسي، وهو في أوّل الدرجة من الفلك، ولها الخواصّ الكثيرة، والمَلَك الموكَّل عليها ـ علىٰ ما قيل ـ «طفيائيل»، فاكتب الحرف، وادخل الخَلْوة، واقرأ الأسماء، فتقول: يا حرف الحاء إلاَّ ما أجبتَ وأجلبتَ لي المَلَك «طفيائيل»، فيحضر بعون الله وقوّته وإذنه، ويقضي حاجتك إن شاء الله تعالىٰ، ولتكن حاجتك الاطّلاع علىٰ الوحدانيَّة اطّلاعاً عرفانيّاً.

وقيل: يقرأ ويريد منه دُبُر كلّ صلاة (١٨) مرَّة.

وهنا بعض الطِّلَّسمات والتركيبات المذكورة في المفصَّلات، وتحت ذلك سرّ الأحديَّة والواحديَّة والمحبَّة الذاتيَّة.

واعلم أنَّ الميم ثلاث عوالم[1]: الملك والملكوت والجبروت ولها الخواصّ الكثيرة، ومنها: أنَّه إذا كُتب أربعين مرَّة ـ ومعه يُكتب ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ إلى آخر الآية ـ العدد المذكور، وحملها الإنسان، فتح الله له الأمور الخفيَّة، ووفَّقه للكشف عن عالم الملك والملكوت، وهذا هو معنىٰ «أنَّ الميم ملك الله».

والمَلَك الموكَّل عليه «مهيائيل»، فإذا أردت إحضار الميم بإحضار الملك، فله خلوة تدخلها، وتكتب الميم في الحائط، وتتكلَّم عليه بالدعوة أربعين مرَّة، فإنَّ الملك ـ بعون الله ـ يحضر، ويقضي حاجتك إن شاء الله تعالىٰ. والاستخدام يمكن بتلاوة الدعوة دُبُر كلّ صلاة أربعين مرَّة وأنت تقول: «أجب يا خادم حرف الميم، وأعطني من روحانيَّتك روحاً يخدمني فيما

(١) المصدر السابق: ٤٠٨.

أُريد»، وتلك الدعوة والدُّعاء مسطور في المفصَّلات، ولتكن دعوتك الإحاطة العرفانيَّة بالملك.

واعلم أنَّ الدال ـ علىٰ ما قيل[1] ـ من الحروف الباردة الرطبة، ربَّما استكملت به الطبائع الأربعة واعتدلت، ولها الخواص والآثار.

ومنها: أنَّها إذا كُتبت مع اسم أوَّل الدال كـ«ديَّان» و«دائم» في لوح مربَّع، وحمله إنسان، وكتب في كلّ ناحية من الوفق أربع دالات، فإنَّه محبَّة عظيمة.

فبالجملة: حرف الدال من أسرار الديموميَّة، وهي مغناطيس القلوب في المحبَّة، وله الخلوة الجليلة، وخادمه «شلهائيل»، فإذا أردت استخدامه فتربَّص (٢٨) يوماً، وامكُث في الخلوة (١٤) يوماً، وتتلو الدعوة دُبر كلّ صلاة، فإنَّه يحضر بعون الملك الوهَّاب، ويخاطبك ـ إن شاء الله ـ بما تريد وتشتهي، وهي صورته في الأوفاق، وتلك الدعوة بصيغتها مسطورة في المفصَّلات.

نقل وإيقاظ:

في بعض التفاسير عن عليّ عليه السلام لمَّا حُكي عن عهد موسى عليه السلام أنَّ شرح كتابه كان أربعين جملاً: أنَّه عليه السلام قال: «لو أذن الله ورسوله لأشرع في شرح ألف الفاتحة حتَّىٰ تبلغ مثل ذلك؛ يعني أربعين وَقْراً أو جملاً»[2].

وعنه عليه السلام أنَّه قال لابن عبَّاس: «إذا صلَّيتَ العشاء الآخرة

(١) أنظر شمس المعارف الكبرىٰ: ٤٠٢.
(٢) بحار الأنوار ٨٩: ١٠٤/ ٨٣.

فالحقني إلى الجبَّان. قال: فصلَّيت ولحقته وكانت ليلة مقمرة، قال: فقال لي: ما تفسير الألف من الحمد؟ قال: فما علمت حرفاً فيها أجيبه، قال: فتكلَّم في تفسيرها ساعة تامَّة. قال: ثمَّ قال لي: ما تفسير اللام من الحمد؟ قلت: لا أعلم، فتكلَّم في تفسيرها ساعة، ثمَّ قال: ما تفسير الحاء من الحمد؟ قال: فقلت: لا أعلم، فتكلَّم في تفسيرها ساعة تامَّة. قال: ثمَّ قال: ما تفسير الميم من الحمد؟ إلىٰ أن قال: ما تفسير الدال؟ قلت: لا أدري، فتكلَّم فيها إلىٰ أن برق عمود الفجر، فقال لي: قم يا أبا العبَّاس إلى منزلك، فتأهَّب لفرضك. قال أبو العبَّاس، عبد الله بن العبَّاس: فقمت وقد وعيت كلُّ ما قال، ثمَّ تفكَّرتُ فإذا علمي بالقرآن في علم عليّ عليه السلام كالقرارة في المثعنجر»[1].

---

(١) نفس المصدر.

علم الحروف والأعداد
(من أسرار البسملة)

قد مرَّ أنَّ لهذه العلوم شأناً راسخاً عند أهله، وشرافة خاصّة لدىٰ أربابه، وبغضاً وعناداً بارزاً وظاهراً عند جهلته، والأمر سهل.

اعلم: أنَّ المروي أنَّ الكتب المنزَّلة من السَّماء إلىٰ الأرض مائة وأربعة: صحف شيث ستّون، وصحف إبراهيم ثلاثون، وصحف موسىٰ قبل التوراة عشرة، والتوراة والإنجيل والزبور والفرقان، وقيل أكثر من ذلك لما كان لنوح أيضاً كتب، وجميعاً في الفرقان، ومعانيها في الفاتحة، ومعاني الفاتحة في البسملة، ومعاني البسملة مجموعة في بائها، ومعناها: بي كان ما كان، وبي يكون ما يكون.

فهنا طور آخر من البحث: أنَّ حروف البسملة تسعة عشر حرفاً؛ علىٰ عدد الملائكة الموكّلين بالنّار، عافانا الله منها[(١)]. وقد أُشير إلىٰ هذا البحث طيّ بعض المباحث السابقة، وفي ذلك خواصّ وآثار كثيرة مذكورة في المطولات. وعددها ٧٨٦، ومن

(١) شمس المعارف الكبرىٰ: ٣٣.

قرأها بهذا المقدار ستّة أيّام متوالية على نيَّة أمر، كان له كلّ ذلك؛ من جلب خير ودفع شرّ وغيرهما إن شاء الله تعالىٰ.

وقيل: إذا تُلِيت علىٰ قدح من الماء عددها وسُقِيت لمن شاء، أحبَّه حبّاً شديداً[١]. وفي ذلك البركات الأُخر إن شاء الله تعالىٰ، ومربَّعه الوفقي لمن يريد قمع كلّ جبَّار، فليكتب وفق ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝١﴾ في قطعة رصاص، ويضع اسم من يريد في الوفق، ويُبَخِّره بالحلتيت والثوم الأحمر، ويدفنه قريباً من نار دائمة الوقود، وإيَّاك أن تلحق النَّار الرصاص، فإنَّ المعمول ــ علىٰ ما قيل ــ يهلك وأنت المطالَب به بين يدي الله تعالىٰ.

وهذه صورته[٢].

بسم	الله	الرحمن	الرحيم	فلان
الله	الرحمن	الرحيم	فلان	بسم
الرحمن	الرحيم	فلان	بسم	الله
الرحيم	فلان	بسم	الله	الرحمن
فلان	بسم	الله	الرحمن	الرحيم

وهنا طور آخر من الكلام وهو: أنَّ هذه التسعة عشر ولها جدول آخر بتوفيق عدديّ، وليكن علىٰ ذكر من أنَّ تلك الحروف

(١) المصدر السابق: ٣٧.

(٢) المصدر السابق: ٣٩.

عشرة غير مكرَّرة وتسعة مكرَّرة، وهي هذه: «ب س م ا ل ل ه ـ ا ل ر ح م ا ن ـ ا ل ر ح ي م»، فتكرّر فيها الميم ثلاث مرَّات، واللام أربع مرَّات، والراء مرَّتين، والباء لم تكرّر والسين والهاء فالمكرّر تسعة أحرف، وهي هذه: «ا ل ر ح م ا ن» وتكرّر الميم والألف واللام والراء.

علم الأوفاق
(أسماء الله الحسنىٰ)

أمَّا اسمه تعالىٰ «رحمٰن» فله مربَّع ٥×٥، وله من العدد ٩٩، وهو زوج فرد ناقص أجزاؤه ٣٧ تشير إلىٰ اسمه تعالىٰ «مُبْقي». هذا من حيث رقمه.

وأمَّا من حيث لفظه فله من العدد ٣٩، وهو عدد فرد ناقص أجزاؤه ٤٧ تشير إلىٰ اسمه تعالىٰ «الإلٰه»، وأمَّا أسماء حروفه فهي ٤٩ تشير إلىٰ اسمين جليلين، وهما «مُبدِع فاطر».

وفي رواية عن الخضر ــ على نبيّنا وآله وعليه السلام ــ أنَّه قال: «من صلَّىٰ عصر الجمعة واستقبل القبلة وقال: يا الله يا رحمٰن إلى أن تغيب الشَّمس، لم يسأل الله تعالىٰ شيئاً إلاَّ أعطاه إيَّاه»[1]. وإذا نقش مربَّعه بسرّ الله دخل في شرف زُحل، فصاحبه ــ كما قيل ــ لا يزال يتقلَّب في رضوان الله تعالىٰ، ولا يراه أحد إلاَّ رقَّ له، وتتوالىٰ عليه النعم، ومن وضعه في ماء وسقىٰ منه صاحب الحمَّى الحارَّة ذهبت عنه لوقتها، ومن

(١) شمس المعارف الكبرىٰ: ١٦١.

أكثر من ذكره نظر الله له بعين الرَّحمة، ويصلح ذكراً لمن كان اسمه عبد الرَّحمٰن.

وتلك الصورة هي هذه:

ر	ح	م	ا	ن
٤	٣٨	١٩٨	١١	٣٨
٩	٢١٠	٢	٥١	١٩٦
٤٩	٩٩	٧	٣١	٥
٣٧	٣	٥٢	٢٩	٦

وأمّا اسمه الآخر الجليل قدره «الرَّحيم» فله المربّع ٤×٤، وله من العدد ٢٥٨، وهو زوج فرد مستطيل مركَّب يُثنّي «اللطيف»، ويُثلّث «البديع»، ويسدّس «الأوّل» وهو عدد زائد أجزاؤه ٢١٩ تشير إلىٰ اسمه الكريم، وأمّا أسماء حروفه ٣١٣ تشير إلىٰ اسمه تعالىٰ «يا بصير» بياء النداء.

وقيل: إنَّ «الرَّحمٰن والرَّحيم» أذكار شريفة للمضطرّين، وأمان للخائفين، ولا ينقشهما أحد في خاتم يومَ الجمعة آخر النَّهار وتختّم به، إلاَّ كان ملطوفاً به في سائر حركاته وأحواله[١]، وإذا كتبه بسرّ الله دخل، ومن أكثر من ذكره كان مُجاب الدعوة، وهو أمان من سطوات الدَّهر، والوقت اللائق به شرف القمر، وهو نافع لجميع الحُمَّيات الحارَّة، ويكتب معه أيضاً: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ﴾[٢].

---

(١) شمس المعارف الكبرىٰ: ١٦١.

(٢) الإسراء (١٧): ٨٢.

ويصلح ذكراً لمن كان اسمه إبراهيم، ويُضاف إليه اسمه المطهَّر، وهذه هي الصورة[١]:

ر	ح	ي	م
١١٠	٣٩	٣١	٣١
٣٨	٨	٢	٢٠٢
٩	٣٣	٣٧	٩

(١) أنظر شمس المعارف الكبرىٰ: ١٦١ ـ ١٦٢.

جدول سورة الحمد علىٰ حساب الحروف

قد تصدّىٰ بعض أرباب العلوم الغريبة لاستخراج جميع الحوادث الكونيّة والزمانيّة، وتواريخ القضايا الآتية علىٰ حساب الحروف والأعداد من سورة الفاتحة، وإنّا لسنا في ذلك الموقف، ولكن أردنا الإشارة إلىٰ جدول هذه السورة؛ حتّى تكون منافعها أكثر، ومن شاء تفصيله فليراجع مواضعها[1].

والصورة هكذا:

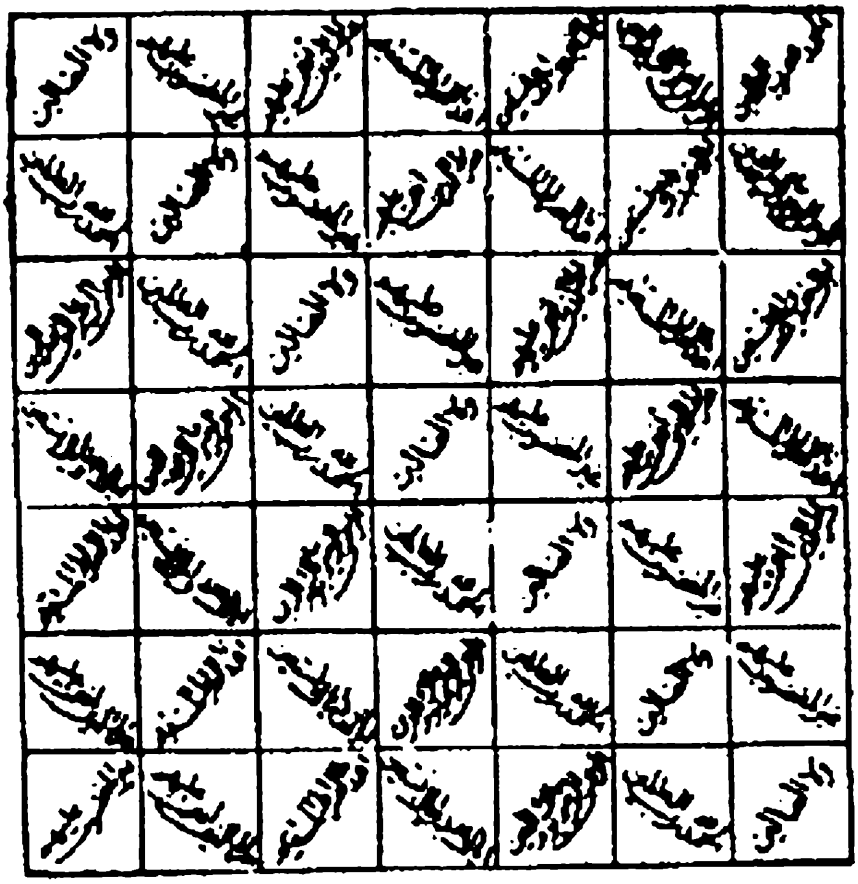

(١) راجع شمس المعارف الكبرىٰ ١: ٦٩ ـ ٧٨.

ثُمَّ إنَّ الحروف الساقطة ـ أي غير المذكورة في هذه السورة ـ سبعة: ج ز ظ ش ف خ ث، وقد تصدَّىٰ أربابهم لتحصيل الطلسمات المخصوصة بها، ونحن نشير لواحدة منها؛ ليكون من أرادها وأراد الاطّلاع على أسمائها في راحة.

أمَّا أسماؤها: فحرف الزاء زكي، وحرف الجيم جبَّار، وحرف الظاء ظهير، وحرف الشين شهيد، وحرف الفاء فرد، وحرف الخاء خبير، وحرف الثاء ثابت.

وأمَّا أوفاقها: فلا نذكر إلاَّ واحداً منها، وتكون من المسبَّعات، ولها الخاصَّة، وكلّ واحد من السبعة مرتبط بواحد من أيَّام الأُسبوع وبواحد من السيَّارات السبع(١).

جعل موضعاً لواحد منها، فمثلاً:

حرف الشين للمريخ وله يوم الثلاثاء

ظ	ز	ج	ث	خ	ف	ش
ج	ث	خ	ف	ش	ظ	ز
خ	ف	ش	ظ	ز	ج	ث
ش	ظ	ز	ج	ث	خ	ف
ز	ج	ث	خ	ف	ش	ظ
ث	خ	ف	ش	ظ	ز	ج
ف	ش	ظ	ز	ج	ث	خ

(١) راجع شمس المعارف الكبرى ١: ١٠٥ ـ ١٠٦ وقد ذكر فيه الجداول. والمصنّف.

خاتمة تشتمل على رموز ونكت

النكتة الأولىٰ
حول عدد السبع

اعلم أنَّ عدد السبع من الأعداد. . .

جاءت وسارت في العالم الكبير والصغير، وفي الكون الجامع، وفي المعجون الملكوتي الَّذي اكتُشف بالكشف التامّ الأحدي الأحمدي المحمَّدي ﷺ.

فالعوالم الكليَّة سبعة: عالم اللاهوت، والجبروت، والملكوت العُليا، والملكوت السُّفلىٰ، وعالم النُّفوس الكليَّة المعلَّقة، والنَّفس الجزئيَّة، وعالم الناسوت.

وعوالم الإنسان الصغير سبعة؛ عالم الطبع، وعالم النَّفس، والقلب، والروح، والسرّ، والخفيّ، والأخفىٰ.

والأعضاء الرئيسة في الأبدان سبعة: الرأس، والصدر، والبطن، واليدان، والرجلان.

والقوىٰ المجرَّدة سبعة: العقل، والنَّفس، والباصرة، والسامعة، والذائقة، والشامَّة واللامسة.

وتكبيرات الافتتاحيَّة سبعة، وأعمال الصلاة الواجبة بالاتّفاق سبعة: النيَّة، وتكبيرة الافتتاح، والقراءة، والركوع، والقيام المتصل بالركوع والسجود، والتشهُّد.

ومراتب خلقة الإنسان سبعة، وأطوارها سبع، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾﴾[(١)]، ولذلك ولأجل ذاك قيل: نور آيات الفاتحة يسري من ألفاظه المسموعة إلىٰ أعمال السبعة الظاهرة، ومنها إلىٰ المراتب السبع الإنسانية المعبَّر عنها باللطائف السبعة[(٢)].

هفت شهر عشق را عطار گشت ما هنوز اندر خم يک کوچه ايم

وتكون تلك السبع الروحيَّة المتأخرة انعكاس السبعة الماديَّة المتقدِّمة، والأخيرة تستكمل بتلك السبعة الأعماليَّة.

وبالجملة: السَّماوات سبعة، والسيَّارات المرئيَّة بالباصرة سبعة، وطبقات الأرض سبعة، والأرضون سبعة، والأقاليم سبعة، والألوان سبعة، وبنات النعش سبع، وما يرىٰ في الثريَّا بالباصرة سبع، وحجب الباصرة سبع: صلبيَّة، مشيميَّة، وشبكيَّة، وعنكبوتيَّة، وعنبيَّة، وقرنيَّة وملتحمة، والقرَّاء سبعة، وأصحاب الكهف وهم: يمليخا، ومكشلينيا، ومشلينيا، ومرنوش، وديرنوش، وشاذنوش، ومرطونش سبعة، والأخيار سبعة: قطب، وغوث، وأخيار، وأوتاد، وأبدال ونقباء،

(١) المؤمنون (٢٣): ١٢ ـ ١٤.

(٢) تفسير القرآن الكريم، صدر المتألهين ١: ١٦٤.

ونجباء، وفي بعض العلوم: الأجساد سبعة: الحديد، والمسّ، وروح توتيا، والسرب، والطلا، والقلعي، والفضّة، والحروف المائيّة سبعة: الجيم، والزاي، والكاف، والسين، والقاف، والثاء، والظاء. والحروف الناريّة سبعة: الألف، والهاء، والطاء، والميم، والفاء، والشين، والذال. والحروف الترابيّة سبعة: الدال، والحاء، واللام، والعين، والراء، والخاء، والغين. والحروف الهوائيّة سبعة: الباء، والواو، والياء، والنون، والصاد، والتاء، والضاد، والحروف الاستعلائية سبعة: الخاء، والصاد، والضاد، والغين، والطاء، والقاف، والظاء. وأعضاء البطن سبعة: المعدة، والطحال، والكبد، والرئة، والقلب، والمرارة، والكُلْية. والخطوط في جام جم سبعة: خطّ جور، وخطّ بغداد، وخطّ البصرة، وخطّ أزرق، وخطّ العبرة، وخطّ صانع الكأس، وخطّ فرودينة. ومواضع السُّجود سبعة، ومواضع الزينة سبعة، وأيّام الأُسبوع سبعة، وأفعال القلوب سبعة: حَسِبْتُ، وظَنَنتُ، وخِلْتُ، وعلمتُ، ورأيتُ، ووجدتُ وزَعمتُ. وأنواع الخطّ سبعة: الثُلُث، والمحقّق، والتوقيع، والربجان، والرقاع، والنسخ، والتعليق. ووجوه الصرف سبعة: الصحيح، والمثال، والمضاعف، واللفيف، والناقص، والمهموز، والأجوف، وسواقط الفاتحة ـ أي الحروف الَّتي لم تذكر فيها ـ سبعة: ز، ث، ف، ظ، ج، خ، ش. وسيأتي مزيد تحقيق حول هذه الأخيرة.

وإمكان المناقشة في بعضٍ غير مسدود، ولكن الَّذي يحصل من المجموع تطبيق في كتاب التدوين على التكوين، وانطباق التشريع على الطباع، والطباق الكلّي بين الكُتُب الصغيرة والكبيرة والقانونية.

ومن هنا ربَّما يُستخرج كيفيَّة اشتمال الفاتحة علىٰ الكلّ، كما يستظهر اتّحاد العترة والكتاب من أنَّ عدد الأئمَّة الاثني عشر الَّذين هم يسمّون بمحمَّد وعليّ سبعة، وسيأتي في مقام آخر كيفيَّة الاتّحاد علىٰ نعت الحقيقة إن شاء الله تعالى.

النكتة الثانية

حول انفتاح أبواب الجنَّة الثمانية عند القراءة

إنَّ أبواب الجنَّة ثمانية، ينفتح كلّ باب منه عند القراءة، فإذا وصل السالك إلى الاستعاذة، بعدما دخل في حريم الله تعالىٰ بافتتاح التكبيرات السَّبع الافتتاحية، وبعدما ترنَّم بتوجيه القلب إليه تعالىٰ تبعاً لإبراهيم الخليل، وقال: وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة، ينفتح له الباب الأوَّل، وهو باب المعرفة برفض جنود إبليس والحجب النُّورانيَّة، والتحلّي بحِلْية التوحيد الفعلي؛ لقطع آثار القوَّة الوهميَّة الباطلة والخياليَّة الراسمة وإذا قال ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ينفتح له باب الذكر، وبقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ينفتح له باب الشكر، وبقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ينفتح له باب الرجاء، وبقوله: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ينفتح له باب الخوف، وبقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ينفتح له باب الإخلاص والعبودة الكاملة المتفرّعة علىٰ تلك الانفتاحات، وبقوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ ينفتح له باب الدُّعاء والتضرُّع والعمل بقوله: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾، وإذا وصل إلىٰ قوله تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ﴾ إلىٰ آخره، ينفتح له باب الاقتداء بالأرواح الكُلّيَّة الإلٰهيَّة الطيِّبة

وبالأكوان الجامعة العرفانيّة والاهتداء إلى أنوارهم الصافية الخالصة، فيتمّ معراجه الروحاني بحمد الله وله الشُّكر(١).

النكتة الثالثة

حول تناسب الصلاة والفاتحة (أسرار عرفانيّة)

أعمال الصلاة غير القراءة والأذكار سبعة: القيام، والركوع، والانتصاب منه، والسُّجود الأوّل، والسُّجود الثّاني، والقعدة بينهما، وبعدهما. فهذه الأعمال في حكم الشخص، والفاتحة في حكم الروح، ويحصل الكمال الحقيقي عند الاتّصال بينهما.

قوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ بإزاء القيام؛ لأنّه أوّل الأعمال، ولأنّ الأشياء بـ«بسم الله» قامت.

وقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ بإزاء الركوع؛ لأنّ كليهما من الحالات المتوسّطة؛ ضرورة أنّ التحميد على الوجه المزبور ـ بملاحظة الربوبيّة والمخلوقين ـ تحميد متوسّط، وله الدرجة الأُخرى هي الأعلى منه.

وقوله: ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ يُناسب الانتصاب؛ لأنّ الانحناء من الركوع نقص، والعدول عنه إلى الاستقامة كمال، يحتاج إلى تذكّره بالرَّحمة الرّحمانيّة والرَّحيميّة.

وقوله: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ يُناسب السجدة الأولى؛ لأنّها

(١) راجع التفسير الكبير ١: ٢٧٧ ـ ٢٧٨، وتفسير القرآن الكريم، صدر المتألهين ١: ١٦٥ ـ ١٦٦.

غاية الخضوع، وهي تحصل من الخوف البارز في القلب من قراءته.

وقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ يُناسب القعدة الأُولىٰ؛ لأنَّ الجملة الأُولىٰ إخبار عن عبوديَّته، والثانية استعانة للتوفيق علىٰ السجدة الثانية.

وقوله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ يُناسب السجدة الأخيرة؛ لأنَّ غاية مقصوده من التعبُّد هو الاهتداء إلىٰ الصِّراط المستقيم، فإذا كانت في منتهىٰ سيره النزولي في العبادة، فلابدَّ وأن يطلب منتهىٰ الآمال والأماني.

وقوله: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ إلى آخره يُناسب القعدة الثانية؛ لأنَّه بعد العود إلىٰ الكثرة من التوجُّه التامّ والفناء الأخير، لابدَّ وأن يتوجَّه إلىٰ تكثير خصوصيَّات المسؤول عنه؛ بأن يكون صِراطَ المُنْعم عليهم، لا صراط المغضوب عليهم، ولا صراط الضالّين.

هذا ما في بعض الكتب(١) بتقريب منّا؛ حتَّىٰ يخلو عن المناقشات الكثيرة، ولا ينبغي أن يكون النظر إلىٰ هذه الأُمور نظراً علمياً برهانيّاً، بل هذه الذوقيّات الباردة نشأت من أرباب الخيال والشعر، ومع ذلك كلّه فهو ممّا لا بأس به في الجملة.

(١) راجع التفسير الكبير ١: ٢٧٤، وتفسير القرآن الكريم، صدر المتألهين ١: ١٦٧ ـ ١٦٨.

النكتة الرابعة

المناسبة بين السورة وآخر سورة البقرة

ربّما يُقال: كمال حال الرَّسول الأعظم البشري ﷺ إنّما يظهر في الدعوة إلى الله تعالىٰ، وتلك الدعوة تستكمل بأُمور سبعة ذكرها الله تعالىٰ في آخر سورة البقرة بقوله: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾(١) وهذه الأربعة متعلّقة بمعرفة المبدأ والربوبيَّة، ثمَّ بعد ذلك معرفته بالعبوديَّة، وهي مبتنية علىٰ أمرين: الأوَّل المبدأ، والثاني كماله، فما بحذاء المبدأ قوله تعالىٰ بعد تلك الأربعة؛ ﴿وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ والمراد من الكمال، هو التوكُّل عليه المتضمّن للإقرار به علىٰ نعت الكمال الإطلاقي، وبإزائه: ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾، وبذلك ينقطع نظر السالك العارف عن الأعمال البشريَّة والطاعات التوهميَّة، ويحصل له الالتجاء إليه، فإذا استكملت الربوبيَّة والعبوديَّة في ذاته، واستولت عليه صفاته الحميدة، وخرجت قواه الاستعداديَّة إلىٰ الفعليَّات النُّوريَّة، يحصل له التوجُّه التامّ بالانقطاع الكلّي إليه؛ بخلع جلباب البشريَّة ورفض صيصية الإنسانيَّة، فيترنّم بقوله: ﴿وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

فما هو مراتب الإنسان المبدأ والأوساط والمعاد، فإذا كان العبد في سلوكه الإنساني متوجّهاً إلىٰ ربّه الأعلىٰ، فيكون قارئاً في الآيات السَّبع القرآنيَّة ما يستوفي به تلك المراتب السَّبع الإنسانيَّة، وهو بالتضرُّع والتخشُّع في مراتب سبع:

---

(١) البقرة (٢): ٢٨٥.

فأوّلها: من البقرة ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ﴾[1] قال ينسىٰ ويتذكَّر أوَّل آية من سورة الفاتحة ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

وثانيها: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ﴾، فيقول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ علىٰ هذه المنَّة المخصوصة بنا.

وثالثها: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ﴾ فيترنَّم بـ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ لما فيه كمال رأفته ونهاية شفقته بالنسبة إليهم.

ورابعها: ﴿وَٱعْفُ عَنَّا﴾، فيقول: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ فإنَّ طلب العفو لأجل ظهور الخشية والإقرار بالمَلَكيَّة والحكومة المطلقة.

وخامسها: ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا﴾ فيناديه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، فيطلب الغفران لأجل عبادته والاستعانة منه.

وسادسها: ﴿وَٱرْحَمْنَآۚ﴾؛ وذلك لأجل قوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾.

وسابعها: ﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ حتَّىٰ لا أكون من المغضوب عليهم ولا الضالِّين[2].

النكتة الخامسة

تحصيل العدالة بقراءة السورة (الصور السبعة)

اعلم أنَّ العدالة من أُمَّهات الفضائل الأخلاقيَّة، وهي الحدّ الوسط بين الإفراط والتفريط، بل العدالة تمام الفضائل الباطنيَّة

---

(١) البقرة (٢): ٢٨٥.

(٢) التفسير الكبير ١: ٢٦٤ ـ ٢٦٦.

والظاهريَّة والروحيَّة والقلبيَّة والنفسيَّة؛ وذلك لأنَّ العدل المطلق هي الاستقامة المطلقة في جميع الجهات والجوانب؛ من غير فرق بين مقام المظهريَّة للأسماء والصفات، والتحقُّق بها الَّذي هو المخصوص بالإنسان الكامل، ويكون ربّه ـ عندئذٍ ـ حضرة الاسم الأعظم «الله» الَّذي هو على الصِّراط المستقيم من الحضرات الأسمائيَّة، وإليه الإشارة إمكاناً بقوله: ﴿مَا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾[1].

وبين مقام التجلّي بالمعارف الإلٰهيَّة، فإنَّ معنىٰ العدالة في هذه المرحلة عدم الاحتجاب من الحقّ بالخلق، فتتجلّىٰ العدالة في قلبه من غير احتجاب بالحقّ من الخلق، فيرىٰ الوحدة في الكثرة والكثرة في الوحدة، ومعنىٰ الإفراط والتفريط في هذا المقام، هو الاحتجاب من الخلق بالحقّ وبالعكس.

وبين مقام التخلُّق بالأخلاق النفسانيَّة، فإنَّ العدالة هنا هو تعديل القوىٰ الثلاثة الشهويَّة والغضبيَّة والشيطانيَّة، وهذه القوىٰ الثلاث أُمّهات الرذائل والأخلاق الفاسدة، فإنَّ القوَّة الوهميَّة الشيطانيَّة هي الأهواء النفسانيَّة، والقوَّة الغضبيَّة هي السبعيَّة الحيوانيَّة، والقوَّة الشهويَّة هي البهيميَّة الحيوانيَّة، وتلك القوىٰ تشتدّ وتضعف حسب الرياضات النفسانيَّة والمعاصي والتخلُّف عن الشرائع الإلٰهيَّة، وإذا كانت الثلاثة بين يدي العقل في الحدّ الوسط، فهو الكمال اللازم في هذه النشأة وأن لا يكون واحدة منها غالبة على الأُخرىٰ.

وربَّما تغلب إحداها على الأُخرىٰ فعندئذٍ تحصل الأُصول الممسوخة الملكوتيَّة البالغة إلىٰ السبعة:

---

(١) هود (١١): ٥٦.

أحدها: الصورة البهيميَّة، فإنَّها إذا غلبت على الأُخريين يصير الباطن متصوَّراً بصورتها، ويحشر حسب علم المعاد علىٰ إحدى صور البهائم كالحمار ونحوه؛ وذلك لأنَّ ميزان الصور في النشأة الآخرة على الأخلاق والباطن، كما ورد في الأحاديث ما يُومي إلىٰ هذه التجسّمات الأخلاقية.

ثانيها: الصورة السبعيَّة، فإنَّها إذا استكملت النَّفس في تلك القوَّة، وتصوَّرت بتلك الصورة ويحشر عليها، فيكون بشكل إحدى السباع في السلوك وفي البرازخ، وأحياناً إلىٰ يوم القيامة، فأعاذنا الله تعالىٰ من هذه التبِعات ووفقنا علىٰ هدم بنيانها في هذه النشأة إن شاء الله تعالىٰ.

ثالثها: الصورة الشيطانيَّة، فالنَّفس إذا استكملت فيها القوَّة الوهميَّة، وكانت أخيرة كمالاتها الفعليَّة التخلُّق بهذه الرذيلة العجيبة، تحشر يوم القيامة في صورة ملكوتيَّة شيطانيَّة، الَّتي تحسُن عندها القِردة والخنازير، وهكذا في البرازخ.

فهذه الثلاث هي أُصول المسوخ الملكوتيَّة البسيطة، وربَّما يحصل من النكاح بينها والازدواج المسوخُ الملكوتيَّة المركَّبة المتولِّدة، من تلك البسائط، وهي أربعة صور: ثلاثة منها ثنائيَّة؛ لأنَّها تتكوَّن من الشيطانيَّة والغضبيَّة تارة، ومن الشيطانيَّة والبهيميَّة أُخرى، ومن البهيميَّة والغضبيَّة ثالثة، فيحشر يوم القيامة على شكل مزدوج من الثلاثة، ويكون خارق العادة وغير مأنوس حتَّى لأهل العذاب، والرابعة منها هي المركَّبة من الثلاثة ويصير «اشتر گاوبلنگ» كما في اللغة الفارسية، وتحسن عندها سائر الصور، فضلاً عن القردة والخنازير.

وهذه المسوخات الملكوتيَّة موافقة للبراهين العلميَّة وللمكاشفات القطعيَّة، ولا يختصّ التصوُّر بهذه الصور مجال المفارقة والانتقال من هذه النشأة، بل الآن كاتب هذه السطور في باطنه الرذائل الجمَّة؛ بحيث يتمكَّن أرباب الكشف والشهود وأصحاب الأُنس والقلوب من مشاهدتها. فيا ربِّ يا الله! نعوذ بك من الشيطان الرَّجيم، الَّذي هو أُسّ هذه الانحرافات والضلالات من العدالة والاعتدال إلىٰ الإفراط والتفريط؛ لذلك يترنّم القارىء أوّلاً بالاستعاذة لرجوع جميع الخبائث إليه، ثمَّ يقرأ الآيات السَّبع من الفاتحة، فيكون كلّ واحد منها بإزاء واحدة منها، وليتحرز من مجموع تلك الرذائل السبعة بتلك السبعة الفاضلة، وليتجنَّب من الصور الباطلة الملكوتيَّة الممسوخة بحصول الصور السَّبع الملكوتيَّة الرُّوحانيَّة، فإنَّ النَّفس مادَّة قابلة لما يرد عليها من المحاسن والمفاسد، فإذا قاوم الإنسان الملتفت والمتوجّه هذه الصور بإيراد مضادَّاتها، وأدمن في ذلك، فربَّما تشمله العناية الربَّانيَّة وحكمته الإلٰهيَّة، فيخرج من المهالك والظُّلمات إلىٰ المُنجيات والأنوار، والله وليّ التوفيق، وعليه التكلان.

النكتة السادسة

في نظم سورة الحمد (أسرار ملكوتيَّة)

وهو علىٰ ما أفاده بعض أهل التحقيق[1] ـ وإن كان في وجهه الوجوه الكثيرة ـ: أنَّ للإنسان أيّاماً ثلاثة: الأمس، والبحث عنه يُسمَّىٰ

(١) تفسير القرآن الكريم، صدر المتألهين ١: ١٦٢ ـ ١٦٣.

بمعرفة المبدأ. واليوم الحاضر، والبحث عنه يُسمّىٰ بالوسيط، وبتعبير منّا العلوم الطبيعية، والغد، والبحث عنه يُسمّىٰ بعلم المعاد.

والقرآن مشتمل علىٰ رعاية هذه المراتب الثلاث، وتعليم هذه المعارف الثلاث الّتي كمال النّفس الإنسانيّة منوط بمعرفتها، ونفس الأعمال البدنيّة إنّما تراد لأجلها؛ لأنّ غايتها تصفية مرآة القلب من الغواشي البدنيّة والظُّلمات الدنيويّة؛ لأن يستعد لحصول هذه الأنوار العقليّة، وإلاّ فنفس هذه الأعمال الحسنة ليست إلاّ من باب الحركات والمتاعب، ونفس التصفية المترتّبة عليها، ليست إلاّ أمراً عدمياً لو لم يكن معها استنارة صفحة القلب بأنوار الهداية، وتصوّرها بصورة المطالب الحقّة الإلٰهيّة، والقرآن متضمّن لها، وهي العروة الوثقىٰ فيه لما ذكرنا، ولمّا كانت هذه السورة مع وجازتها، متضمّنة لمعظم ما في الكتب السّماويّة من المسائل الحقّة، والمقاصد اليقينيّة المتعلّقة بتكميل الإنسان وسياقته إلىٰ جوار الرّحمٰن، فلابدّ وأن يتحقّق فيها جميع ما يحتاج الإنسان إليه منها، فنقول: هي هكذا:

أمّا اشتمالها علىٰ علم المبدأ، فقوله تعالىٰ بعد التشرُّف بمقام الذكر بالتسمية: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، فإنّه يومي إلى العلم بوجود الحقّ الأوّل، وأنّه مبدأ سلسلة الوجودات، وموجد كلّ العوالم والمخلوقات، وقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ إلىٰ العلم بصفاته الجماليّة وأسمائه الحسنىٰ، وقوله: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ إلىٰ إثبات أنّه غاية وسبب نهائيّ للمخلوقات، مع الإشارة إلىٰ أسمائه الجلاليّة، ويشير إلىٰ العلم الوسط قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وهو

العلم بالأعمال والأحوال الَّتي يجب معرفتها ما دام في هذه النشأة وهذه الحياة، وهي بدنيَّة وقلبيَّة:

فالبدني: تهذيب المظاهر عن الأنجاس وتربيته بالصلاة والصيام والحجّ وغيرها.

والقلبي: تهذيب الباطن عن الغشاوات وخبائث الملكات.

وإلىٰ هذه الأسرار يُشير أيضاً قوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾.

وأمَّا اشتمالها علىٰ علم المعاد، وهو العلم بأحكام النَّفس بعد الفراق وخصوصيَّاتها، فلقوله: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ﴾ إلىٰ آخره، فإنَّه صراط الله العزيز الحميد، وباب الله الآتي منه إلىٰ الحقّ، فإنَّه حقيقة المُنعَم عليهم لا تصير معلومة إلاَّ بمفارقة جلباب الأبدان وصياصي الأجسام.

النكتة السابعة

حول الأسماء الخمسة المذكورة في السورة

قد اشتملت هذه السورة علىٰ الأسماء الخمسة «الله، الرَّحمٰن، الرَّحيم، الرَّبُّ، المالك»، وهي ربَّما تُحاذي الصفات الخمسة المذكورة فيها: وهي العبوديَّة والاستعانة، وطلب الهداية، وطلب الاستقامة، وطلب النعمة الخاصَّة.

وقال الفخر: كأنَّه قيل: إيَّاك نعبُد؛ لأنَّك أنت الله، وإيَّاك نستعين؛ لأنَّك أنت الرَّبُّ، واهدنا الصِّراط المستقيم، لأنَّك أنت

الرَّحمٰن، وارزقنا الاستقامة، لأنَّك أنت الرَّحيم، وأفض علينا سِجال نعمك وكرمك؛ لأنَّك مالك يوم الدِّين[١].

وقيل: الإنسان مركَّب من الأشياء الخمسة: البدن، ونفسه الشيطانيَّة، ونفسه الشهوانيَّة، ونفسه الغضبيَّة، وجوهره المَلَكي العقلي، فتجلَّىٰ الحقّ سبحانه بأسمائه الخمسة لهذه المراتب الخمسة[٢].

وقيل: إنَّ مراتب أحوال الخلق خمسة: أوَّلها الخلق، ثانيها التربية في مصالح الدُّنيا، وثالثها التربية في تعريف المبدأ، ورابعها التربية في تعريف المعاد، وخامسها نقل الأرواح من عالم الأجساد إلىٰ دار المعاد، فاسم الله منبع الخلق والإيجاد والتكوين والإبداع، واسم «الرَّبُّ» يدلُّ على التربية بوجوه الفضل والإحسان والإنعام، واسم «الرَّحمٰن» يدلُّ عليها في معرفة المبدأ، واسم «الرَّحيم» في معرفة المعاد؛ حتَّى يحترز عمَّا لا ينبغي، ويُقدِم علىٰ ما ينبغي، واسم «الملك» يدلُّ على أنَّه ينقلهم من دار الدُّنيا إلىٰ دار الآخرة والجزاء.

فإذا انتفع العبد من هذه الأسماء الخمسة في تلك المقامات الخمس، يحصل له كمال القرب، فيخاطبه ويناجيه بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[٣].

وهنا النكات والذوقيَّات الأُخر، إلاَّ أنَّ الكلام إذا لم يكن مشفوعاً بالبراهين العقليَّة، أو لم يكن مقروناً بالمكاشفات العرفانيَّة، لا

---

(١) التفسير الكبير ١: ٢٨٥.
(٢) التفسير الكبير ١: ٢٨٦.
(٣) التفسير الكبير ١: ٢٨٩.

متانة فيه؛ لأنَّ تلك الذوقيَّات تخيُّلات باردة واختراعات، تختلف حسب الأزمان والأفكار والأحوال والأفراد.

والحمد لله أوَّلاً وآخراً وظاهراً وباطناً.

وقد تمَّ بعونه وتوفيقه ما يتعلَّق بهذه السورة الشَّريفة في أوائل الليلة السابعة من ذي القعدة الحرام عام ١٣٩٠هـ، وكاتب هذه السطور ابن واحد وأربعين، جزاه الله خيراً، وغفر الله ذنوبه، وأسكنه بحبوحة رضوانه.

اللَّهمَّ ارفع عنَّا البلاء المبرَم من السَّماء، إنَّك على كلِّ شيءٍ قدير، يا رحيم!

السور المشتملة على الحروف المقطعة

اعلم أنَّ هذه الحروف قد تكرَّرت في تسع وعشرين سورة؛ افتتح بعضها بحرف واحد، وهي: ﴿ص﴾، ﴿ق﴾، ﴿ن﴾ وبعضها بحرفين، وهي سورة طٰهَ، طٰسٓ، يٰسٓ، حٰمٓ، ومن المحتمل كون الياء من ﴿يٰسٓ﴾ حرف نداء، والسين يكون من تلك الحروف؛ لقوله: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، وبعضها بثلاثة أحرف كما في سور هي: «الٓمٓ»، «الٓر»، «طٰسٓمٓ»[1]، وبعضها بأربعة أحرف، كما في سورتي «الٓمٓصٓ» و«الٓمٓرَ»[2]، وبعضها بخمسة أحرف، كما في سورتي «كٓهيعٓصٓ» و«حٰمٓ عٓسٓقٓ»[3].

ثمَّ إنَّه تختلف هذه الحروف أيضاً من حيث إنَّ بعضها لم يقع إلاَّ في موضع واحد مثل «ن»، وبعضها واقعة في مفتتح عدَّة من السور، مثل «الٓمٓ» و«الٓر» و«طٰسٓ» و«حٰمٓ»[4].

---

(١) الٓمٓ في مفتتح سور: البقرة، آل عمران، العنكبوت، الرُّوم، لقمان، والسَّجدة؛ الٓرٓ في مفتتح سور: يونس، هود، يوسف، إبراهيم، والحجر؛ طٰسٓمٓ في مفتتح سورتي: الشعراء، والقصص.

(٢) المٓصٓ في مفتتح سورة الأعراف والمٓرَ في مفتتح سورة الرَّعد.

(٣) كٓهيعٓصٓ في مفتتح سورة مريم وحٰمٓ عٓسٓقٓ في مفتتح سورة الشورى.

(٤) حٰمٓ في مفتتح سور: غافر، فصّلت، الزّخرف، الدُّخان، الجاثية، الأحقاف، وأمَّا الٓمٓ والٓرَ وطٰسٓمٓ فمرَّت.

وغير خفيّ: أنَّ البسائط والمركَّبات في الكلمات العربيَّة، كبسائط هذه الحروف ومركّباتها؛ في أنَّ المركَّب في الأسماء العربيَّة لا يزيد علىٰ خمس حروف ـ علىٰ ما قيل ـ ولعلَّه حكم غالبيّ.

هذا، وفي كون ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢﴾ من المركَّب إشكال؛ لأنَّهما عُدّا آيتين في المصاحف الموجودة، فيكون هنا أمر آخر، وهو أنَّ من السور تكون الآية الأُولى منها من الحروف المقطَّعة[١]، ومنها ما تكون الآيتان منها[٢]، ومن السور ما لا يكون مصدّراً بها[٣]، ومن السور ما تكون مُصدَّرة بها، ولكنَّها لا تُعَدّ آية[٤] حسب ما مرَّ تفصيله.

ثمَّ إنَّ مجموع الحروف المفتتح بها يبلغ إلىٰ ثمانٍ وسبعين حرفاً.

---

(١) وهي تسع عشر سورة: البقرة، آل عمران، العنكبوت، الرُّوم، لقمان، السَّجدة، الأعراف، مريم، طٰه، الشُّعراء، القصص، يٰس، غافر، فصّلت، الزُّخرف، الدُّخان، الأحقاف، والشورىٰ.

(٢) وهي سورة الشورى فقط.

(٣) وهي خمس وثمانون سورة.

(٤) وهي عشر سور: يونس، هود، يوسف، الرَّعد، إبراهيم، الحجر، النَّمل، ص، ق، ن والقلم.

حول ما ورد من الأخبار والمآثير

ونحن نذكر طائفة منها؛ لعدم إمكان استقصاء مجموعها، ونشير إلىٰ ما هو الأهمّ:

١ ـ عن «المعاني» عن الصّادق عليه السلام: «الٓمٓ هو حرف من حروف اسم الله الأعظم المقطّع في القرآن، الّذي يؤلّفه النبيّ أو الإمام، فإذا دعا به أُجيب»[١].

٢ ـ وعن أمير المؤمنين عليه السلام في تفاسير العامّة والخاصّة أنّه قال: «لكلّ كتاب صفوة، وصفوة هذا الكتاب حروف التهجّي»[٢].

٣ ـ وعن تفسير ينسب إلىٰ الإمام عليه السلام: «إنّ معنىٰ ﴿الٓمٓ﴾ ذلك الكتاب الّذي أنزلته هي الحروف المقطّعة الّتي منها: ألف، لام، ميم، وهو بلُغتِكُم وحروف هجائكم فأتوا بمثله إن كنتم صادقين»[٣].

٤ ـ وعن العيّاشي، عن أبي لبيد المخزومي، قال: قال أبو جعفر عليه السلام: «يا أبا لبيد إنّه يملك من ولد العبّاس اثنا عشر يُقتل بعد الثامن منهم أربعة، فتصيب أحدهم الذبحة فتذبحه، هم فئة قصيرة

---

(١) معاني الأخبار: ٢٣/٢.

(٢) راجع من تفاسير الخاصّة إلىٰ مجمع البيان ١: ٣٢ والعامّة إلى التفسير الكبير ٢: ٣.

(٣) راجع التفسير العسكري المنسوب إلى الإمام: ٦٢.

أعمارهم، قليلة مدَّتهم خبيثة سيرتهم، منهم الفُويسق الملقَّب بالهادي والناطق والغاوي، يا أبا لبيد إنَّ في حروف القرآن المقطَّعة لعلماً جمّاً، إنَّ الله تبارك وتعالىٰ أنزل ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾، فقام محمّد ﷺ حتّى ظهر نوره وثبتت كلمته، وولد يوم ولد وقد مضىٰ من الألف السابع مائة سنة وثلاث سنين. ثمّ قال: وتبيانه في كتاب الله في الحروف المقطّعة إذا عددتها من غير تكرار، وليس من حروف مقطّعة حرف ينقضي أيّام إلاّ وقام من بني هاشم عند انقضائه. ثمّ قال: الألف واحد، واللام ثلاثون، والميم أربعون، والصاد تسعون: فذلك مائة وإحدى وستّون، ثمّ كان بدو خروج الحسين بن علي عليه السلام ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ﴾، فلمّا بلغت مدّته قام قائم ولد العبّاس عند «الٓمٓصٓ»، ويقوم قائمنا عند انقضائها، بـ«الم» فأفهم ذلك وعِهِ واكتُمْه»[1].

وعن «المعاني» عنه عليه السلام في حديث: «وأمّا «الٓمٓ» في آل عمران فمعناه: أنا الله المجيد»، وعنه عليه السلام و«الٓمٓصٓ معناه: أنا الله المقتدر الصّادق»[2].

وبهذا المضمون قد انتسب إلىٰ أهل البيت أخبار كثيرة، ولكن نوعها مرسلات جدّاً.

وعن «تفسير القمّي» بإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ قال: «هذه أسماء الله مقطّعة»[3].

وعن «الإكمال» في حديث «أنّه سُئل ـ أي القائم عجّل الله تعالىٰ

(١) تفسير العيّاشي ٢: ٣/٣.
(٢) معاني الأخبار: ١/٢٢.
(٣) تفسير القمّي ٢: ٤٨.

فرجه الشَّريف ـ عن تأويلها؟ قال: هذه الحروف من أنباء الغيب أطلع الله عبدَه زكريَّا عليها، ثمَّ قصَّها علىٰ محمَّد ﷺ»[١] وعن «المناقب» مثله[٢].

وعن «المعاني» عن الصَّادق عليه السلام: «وأمَّا طٰهَ فاسم من أسماء النبي ﷺ، ومعناه يا طالب الحقّ الهادي إليه»[٣].

وعن «المجمع» عن النبيّ ﷺ: «لمَّا أنزلت ﴿طسٓمٓ﴾ قال: الطاء: طور سيناء، والسين: إسكندريَّة، والميم: مكَّة». وقال: «الطاء: شجرة طُوبىٰ، والسين: سِدْرة المُنتهىٰ، والميم محمَّد ﷺ»[٤].

وعن «الخصال» عن الباقر عليه السلام قال: «إنَّ لرسول الله ﷺ عشرة أسماء: خمسة في القرآن، وخمسة ليست في القرآن، فأمَّا الَّتي في القرآن: فمحمَّد ﷺ وأحمد وعبد الله ويٰس ون»[٥].

وعن «المجمع» عن الصَّادق عليه السلام: «أنَّ صاد اسم من أسماء الله تعالىٰ أقسم به»[٦].

وعن «العلل» عن الكاظم عليه السلام في حديث: «أنَّه سُئل وما صاد الَّذي أمر أن يغسل منه ـ يعني النبيّ ﷺ لمَّا أُسري به ـ فقال: عين

---

(١) كمال الدِّين ٢: ٢١/٤٦١ نقله عن سعد بن عبد الله القمّي فيما سأله حضوراً عن الحجَّة عجَّل الله فرجه.

(٢) مناقب آل أبي طالب ٤: ٨٤ نقله عن إسحاق الأحمر فيما سأله عن الحجَّة عجَّل الله فرجه.

(٣) معاني الأخبار: ١/٢٢.

(٤) مجمع البيان ٧: ١٨٤.

(٥) الخصال ٢: ٤٩٥.

(٦) مجمع البيان ٨: ٤٦٥.

تنفجر من ركن من أركان العرش يُقال له: ماء الحياة، وهو ما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾»[(١)] وعن «المجمع» ما يقرب منه.

وعن القمّي عن الباقر عليه السلام: «عَسَق أعداد سِنيّ القائم، وقاف جبل محيط بالدُّنيا من زُمرُّدة خضراء، فخضرة السَّماء من ذلك الجبل، وعلم كلّ شيء في عَسَق»[(٢)].

وعن «المعاني» عن الصّادق عليه السلام: «وأمّا ﴿نٓ﴾ فهو نهر في الجنَّة»[(٣)].

وقريب منه روايات أُخر مختلفة المضامين متَّفقة في هذا المعنىٰ[(٤)].

وعن ابن بابويه عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث طويل، قال في ذيله: «فذكر أبو جعفر عليه السلام: أنَّ هذه الآيات أُنزلت فيهم ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾. قال: وهي تجري في وجه آخر غير تأويل حَيِيّ وأبي ياسر وأصحابهما»[(٥)].

وقريب منه بعض الروايات الأُخر، وقد مضىٰ شطر منها في ابتداء سورة الفاتحة، وقد فصَّلنا الكلام هناك، وحكينا الأخبار المشتملة علىٰ الحروف البسيطة والأدوات المفردة وآثارها وخواصّها، ونقلنا هناك الرواية المفصَّلة الدالّة علىٰ أنَّ حروف التهجّي أسماء

---

(١) علل الشرائع ٢: ١/٣٣٥.
(٢) تفسير القمّي ٢: ٢٦٨.
(٣) معاني الأخبار: ١/٢٣.
(٤) راجع معاني الأخبار: ٢٢ ـ ٢٩.
(٥) راجع معاني الأخبار: ٣/٢٤.

للأعيان الخارجيَّة الأُخرويَّة أو الدنيويَّة[١]، وستظهر بعض الروايات الأُخرى الآتية إن شاء الله تعالىٰ.

وغير خفيّ: أنَّ من تجمَّد علىٰ تصحيح أسنادها حسب المصطلحات الأخيرة، وحسب ما هو الحقّ في تحسين الإسناد، فربَّما يُشكل الاعتماد علىٰ أكثر هذه الطوائف من الروايات، إلاَّ أنَّ اشتمال كتب المشايخ الثلاثة علىٰ طائفة منها ـ ولاسيَّما كتب الصدوق عليه الرَّحمة ـ يورث التواتر الإجمالي والوثوق بصدور بعض منها من أئمَّة الحقّ عليهم الصلاة والسلام.

ولا يخفىٰ أنَّ الروايات في هذه المسألة ـ وهي تفسير المراد من الحروف المقطَّعة ـ كثير من طرقها عاميَّة، وقد ضبطها الطبري في تفسيره الكبير[٢] بالأسناد المختلفة، ولكلٍّ رأي في المسألة علىٰ ما يأتي تفصيله رواية أو روايات، وربَّما يتمكَّن الخبير البصير بعد النظر فيما يأتي منَّا من الجمع بينها؛ لأنَّ هذه الطريقة ـ وهي طريقة الجواب عن السؤال بقدر فهم السائل عن حقيقة واحدة بعبائر مختلفة ـ كانت متداولة في العصور الماضية وفي هذا العصر أيضاً، وإلىٰ هذا يرجع كثير من اختلافات الأخبار.

وبالتدبُّر في تأويل الكتاب العزيز الَّذي هو عين التفسير، يظهر اتّحاد تلك الأخبار حسب الحقيقة والواقعيَّة، ولأجل الغفلة عن الأصل المحرّر في محلّه، وهو أنَّ المعاني تختلف حسب الهويَّات الوجوديَّة بالنسبة إلىٰ من يتصوَّرها، فإنَّ ما نتصوَّره من المعنىٰ هو

---

(١) راجع سورة الفاتحة: الناحية الأُولىٰ، علم الحروف والأعداد.

(٢) راجع تفسير الطبري ١: ٨٧ ـ ٨٨.

المفهوم الَّذي واقعيَّته عين الذهنيَّة والنفسانيَّة، وما يتصوَّره الله تعالىٰ هو عين الخارجيَّة والعينيَّة، فكلٌّ في كونه معنًى مشترك، واللفظ الحاكي للمعنىٰ المتصوّر لنا، يصحّ أن يحكي عن ذلك المعنىٰ الشامخ وإن لم يكن على نعت الحقيقة؛ لأنَّ المجازات في جميع الألسنة كثيرة، ولاسيَّما في هذا اللِّسان مع نهاية سعته، ولأجل الغفلة وقعوا في حَيْصَ بَيْصَ، توهّموا اختلاف الروايات وتشتُّت الآثار، والله وليّ الجمع والاتّفاق.

حول الآراء المحكيّة في هذه المسألة

وقد بلغت إلىٰ عشرين قولاً أو أكثر، ونحن لمزيد الاطّلاع نشير إليها إجمالاً:

١ ـ عن قتادة: أنّها اسم من أسماء القرآن، ولعلّ نظره إلىٰ أنّ كلّ الحروف المفتتح بها السورة تكون كذلك، وهو المحكيّ عن مجاهد والشّعبي وابن جريج[(١)].

٢ ـ وأيضاً عن مجاهد: هي فواتح يفتتح بها الله القرآن، وممّا يشهد علىٰ عموم دعواه، ما عن سفيان، عن مجاهد قال: ﴿الٓمٓ﴾ و﴿حمٓ﴾ و﴿الٓمٓصٓ﴾ و﴿صٓ﴾، فواتح افتتح الله بها[(٢)]، والأمر سهل.

٣ ـ وعن أبيّ: إنّما هي أسماء للسور[(٣)].

٤ ـ وعن ابن عبّاس: أنّها اسم الله الأعظم، ويظهر منه دعوىٰ اختصاص بعضها بذلك[(٤)].

---

(١) راجع تفسير الطبري ١: ٨٧، وتفسير التبيان ١: ٤٧، والتفسير الكبير ٢: ٦.
(٢) راجع تفسير الطبري ١: ٨٧، وتفسير التبيان ١: ٤٧.
(٣) راجع تفسير الطبري ١: ٨٧، وتفسير التبيان ١: ٤٧، والتفسير الكبير ٢: ٥.
(٤) راجع تفسير الطبري ١: ٨٧، والبحر المحيط ١: ٣٤.

٥ ـ وأيضاً عن ابن عبَّاس: هو قَسَمٌ أقسم الله به، وهو من أسماء الله، وهو المحكيّ عن عِكْرِمة[١].

٦ ـ وأيضاً عن ابن عبَّاس: هو حُروف مقطَّعة من أسماء وأفعال؛ كلّ حرف من ذلك لمعنًى غير معنىٰ الحرف الآخر، فـ﴿الٓر﴾ أنا الله أعلم، وهو المحكي عن سعيد بن جبير[٢].

وعن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب النبيّ ﷺ: قال: أمّا ﴿الٓمٓ﴾ فهو حرف اشتقَّ من حروف هجاء أسماء الله جلّ ثناؤه، وهكذا عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿الٓمٓ﴾ و﴿حمٓ﴾ و﴿نٓ﴾، قال: اسم مقطَّع[٣].

٧ ـ وأيضاً عن مجاهد، قال: فواتح السور كلّها ـ ﴿قٓ﴾ و﴿صٓ﴾ و﴿حمٓ﴾ و﴿طسٓمٓ ۝١﴾ و﴿الٓرٓ﴾، وغير ذلك ـ هجاء موضوع[٤].

٨ ـ وعن الربيع بن أنس: هي حروف يشتمل كلّ حرف منها على معانٍ شتَّىٰ مختلفة، وقول الله: ﴿الٓمٓ﴾ هي الأحرف من التسعة والعشرين حرفاً دارت فيها الألسن كلّها، ليس فيها حرف إلاَّ وهو مفتاح اسم من أسمائه وليس منها حرف إلاَّ وهو في آلائه وبلائه، وليس منها حرف إلاَّ وهو مدة قوم وآجالهم[٥].

---

(١) راجع تفسير الطبري ١: ٨٧، وتفسير التبيان ١: ٤٧.
(٢) راجع تفسير الطبري ١: ٨٨، والتفسير الكبير ٢: ٦.
(٣) راجع تفسير الطبري ١: ٨٨.
(٤) راجع تفسير الطبري ١: ٨٨، وتفسير التبيان ١: ٤٨.
(٥) راجع تفسير الطبري ١: ٨٨، والبحر المحيط ١: ٣٤.

٩ ـ وعنه أيضاً: هي حروف حساب الجمل[١].

١٠ ـ وعن بعض: أنَّ لكلّ كتاب سرّاً وسرّ القرآن فواتحه[٢].

١١ ـ هي حروف من حروف المعجم، استغني بذكر ما ذكر منها في أوائل السور عن ذكر بواقيها، الّتي هي تتمَّة الثمانية والعشرين، وإنَّ ذلك هو المتعارف، كما قد يتعارف أن يُتَّخذ في أثنائها ولا يُبتدأ بأوائلها، ولذلك رُفع الكتابُ؛ لأنَّ معنىٰ الكلام يصير هكذا: الألف واللام والميم وهكذا البواقي، ذلك الكتابُ الّذي أُنزل إليك مجموعاً[٣].

١٢ ـ وقال جماعة ابتدأت بذلك أوائل السور ليفتح لاستماعه أسماع المشركين؛ إذ تواصوا بالإعراض عن القرآن، فإذا أصغوا إليه واستمعوا له تُلي عليهم الكتاب المؤلّف منها[٤].

١٣ ـ هي الحروف الّتي استفتح الله بها كلامه؛ إعلاماً بتماميَّة الكلام الأوَّل واختتامه، وإبلاغاً بشروعه في الكلام المستأنف[٥].

١٤ ـ وعن قطرب وغيره: أنَّ المراد بها أنَّ هذا القرآن الّذي عجزتم عن معارضته، من جنس هذه الحروف الّتي تتحاورون بها في خطبكم[٦].

---

(١) راجع تفسير الطبري ١: ٨٨.
(٢) راجع تفسير الطبري ١: ٨٨، والبحر المحيط ١: ٣٤، وروح المعاني ١: ٩٤.
(٣) راجع تفسير الطبري ١: ٨٩، وتفسير التبيان ١: ٤٨.
(٤) راجع تفسير الطبري ١: ٨٩، والتفسير الكبير ٢: ٦.
(٥) راجع تفسير الطبري ١: ٨٩، والتفسير الكبير ٢: ٧.
(٦) راجع مجمع البيان ١: ٣٣، والبحر المحيط ١: ٣٤.

١٥ ـ إنَّها أسماء الله تعالىٰ بمعنى أنَّ النَّاس لو كانوا يعلمون لألّفوا منها تلك الأسماء واسم الله الأعظم، مثل «الر» و«حم» و«ن»، فإنَّها تكون «الرَّحمٰن»، وهذا أيضاً محكيّ عن ابن جُبير[١].

١٦ ـ وعن بعضهم، وهو مختار الطبري: أنَّ الجمع مهما أمكن أولىٰ من الطرح، وإذا كانت القضايا كثيرة، والإشارة إليها غير ممكنة، فلابدَّ من الإيماء إليها بلفظة واحدة، فتكون الألف فيها جميع هذه الآراء والأقوال.

وأمَّا قول من يدَّعي أنَّها لتلك الأغراض الَّتي أشرنا إليها أخيراً، فهو غير مسموع ومضروب به علىٰ الجدار؛ لأنَّه خلاف السُّنَّة والآثار[٢].

وقد مضىٰ قول: بأنَّها ليست من القرآن، وزيدت عليه في مرور الأزمان[٣].

وما أشدّ الفرق بينه وبين من يدَّعي أنَّه من القرآن، وفيه جميع الآثار والأخبار والأسماء والأوراد والأذكار؛ حسب علم الحروف والأوفاق والأعداد[٤]، وهكذا بين من يقول: بأنَّها من العلوم المستورة، ومن المتشابه الَّذي استأثر الله بعلمه، ومن الأسرار المحجوبة[٥]، وبين قول جماعة من المتكلّمين: أنَّها ليست كذلك، بل

---

(١) راجع التفسير الكبير ٢: ٦، والبحر المحيط ١: ٣٤.

(٢) راجع تفسير الطبري ١: ٩٠ وما بعدها.

(٣) تقدَّم عن طٰه حسين ذيل الجهة الأولىٰ.

(٤) أنظر شمس المعارف الكبرى١: ٦١ ـ ٦٦، والبحر المحيط ١: ٣٥.

(٥) التفسير الكبير ٢: ٣.

لابدَّ من كونها كسائر الآيات مورد الفهم والتفهيم، مستدلّين بالآيات والسُّنن والخطب والعقل[١]، والكلّ لا يرجع إلىٰ محصّل؛ لأنَّ جميع ما يثبت للقرآن لا ينافيه خروج بعض يسير منه، فإنّه تبيان كلّ شيء، وإنَّه بلسان عربيّ مُبين... وهكذا، ولكن لا تنافي بينه وبين ذاك بالضرورة، ولاسيَّما إذا نطقت الآثار الصحيحة؛ بأنَّها من الأسرار الإلٰهيَّة.

وممَّا يؤيّد ذلك ـ وإن استدلَّ به الخصم علىٰ مذهبه ـ: ما رُوي عن أمير المؤمنين عليه السلام: «عليكم بكتاب الله، فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل وليس بالهزل»[٢] انتهىٰ. فإنَّه يشهد على اشتماله على الأسرار غير القابلة للكشف بحسب الظاهر، وقوله عليه السلام: «عليكم بكتاب الله» لا ينافيه وجود بعض يسير منه غير قابل لفهم كلّ أحد، بل هو في مقام تعظيم الكتاب وحدود سعته الوجوديَّة، ولعلَّه إيماء إلى إرجاع النَّاس إلى أهله، وهم أهل البيت عليهم السلام.

١٧ ـ وعن عبد العزيز بن يحيىٰ: إنَّ الله تعالىٰ ذكرها لأن يتعلَّموها مفردة، ثمَّ يتعلَّموها مركَّبة، كما هو المتداول في تعليم الصبيان[٣].

١٨ ـ وعن آخر: أنَّ التكلُّم بهذه الحروف معتاد، ويعرفها كلّ

---

(١) راجع التفسير الكبير ٢: ٣ ـ ٤.

(٢) التفسير الكبير ٢: ٤، تفسير القرآن الكريم، صدر المتألهين، وانظر نهج البلاغة، صبحي الصالح: حكمة ٣١٣ «وفي القرآن نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحُكمُ ما بينكم».

(٣) التفسير الكبير ٢: ٦.

أحد، ولكن التكلُّم بأسمائها لا يمكن إلاَّ للعالم بها، فإخباره ﷺ بتلك الأسماء، مع أنَّه لا يعرف الكتابة، ولا يعلم شيئاً من هذه الكلمات، يكون من المعجزة، فأوَّل ما يسمع من الكتاب العزيز إعجاز، فضلاً عمَّا يأتي من الآيات الباهرات والسور الواضحات[١].

١٩ ـ وعن أبي بكر التبريزي أنَّ في ذلك ردّاً علىٰ قول من يتوهم أنَّ القرآن قديم وفي ذلك إعجاز وإخبار عن الغيب أيضاً بأنَّ جماعة من المسلمين يتخيّلون ذلك بالنسبة إلى الكتاب العزيز[٢].

٢٠ ـ وعن القاضي الماوردي: أنَّ ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾، معناه: أنَّه ألمّ بكم ذلك الكتاب؛ أي نزل عليكم، والإلمام الزيارة، وإنَّما قال الله تعالىٰ ذلك؛ لأنَّ جبرئيل ؑ نزل به نزول الزائر[٣].

٢١ ـ وعن ابن عطية: هي تنبيهات كما في النداء[٤].

وقال الجزيني: وهذا جيّد؛ لأنَّ القرآن كلام عزيز، وفوائده عزيزة، فينبغي أن يرد علىٰ مسمع متنبّه، فكان من الجائز أن يكون الله قد علم في بعض الأوقات كون النبيّ ﷺ في عالم البشر مشغولاً، فأمر جبرئيل بأن يقول عند نزوله: ﴿الٓمٓ﴾ و﴿الٓرٓ﴾ و﴿حمٓ﴾؛ ليسمع النبيّ ﷺ صوت جبرئيل ؑ، فيقبل عليه ويُصغي إليه، وإنَّما أبدع في التنبيه بتلك الحروف؛ لتكون أبلغ في قرع سمعه.

٢٢ ـ وعن بعضٍ: العرب كانوا إذا سَمِعوا القرآن لَغَوا فيه،

---

(١) التفسير الكبير ٢: ٧.

(٢) التفسير الكبير ٢: ٧.

(٣) راجع التفسير الكبير ٢: ٧.

(٤) البحر المحيط ١: ٣٤.

فأنزل الله تعالىٰ هذا النظم البديع ليعجبوا منه، ويكون تعجُّبهم منه سبباً لاستماعهم إلىٰ ما بعده، فترقّ القلوب وتلين الأفئدة.

٢٣ ـ وعن آخر: أنَّ المقصود بها الإعلام بالحروف الَّتي يتركَّب منها الكلام، فذكر منها أربعة عشر حرفاً، وهي نصف جميع الحروف، وذكر من كلّ جنس نصفه، فمن حروف الحلق الحاء والعين والهاء، ومن الَّتي فوقها القاف والكاف، ومن الحرفين الشفهين الميم، ومن المهموسة السين والحاء والكاف والصاد والهاء، ومن الشديدة الهمزة والطاء والقاف والكاف، ومن المطبّقة الطاء والصاد، ومن المجهورة الهمزة والميم واللام والعين والراء والطاء والقاف والياء والنون، ومن المستعلية القاف والصاد والطاء، ومن المنخفضة الهمزة واللام والميم والراء والكاف والهاء والياء والعين والسين والحاء والنون، ومن حروف القلقلة القاف والطاء[١].

٢٤ ـ وعن بعض المستشرقين، وتبعه صاحب كتاب «النثر الفنّي» الدكتور مبارك: أنَّها بيانات وإشارات موسيقيَّة يتبعها المرتِّلون، وقد كانت الموسيقيَّة القديمة بسيطة يُشار إلىٰ ألحانها بحرف أو حرفين أو ثلاثة، وكان ذلك كافياً لتوجيه المُغنّي أو المُرتِّل إلىٰ الصوت المقصود، وفي الكنيسة المسيحيَّة في أوروبا حيث لا تزال تحفظ تقاليد الغناء الفريفوري، وفي أثيوبيا ــ مثلاً ــ يوجد اصطلاح موسيقي مشابه لذلك، فإنَّ رئيس المرتّلين يبدأ الصوت بالحروف الَّتي تذكر بـ«الٓمٓ» في القرآن أو (A-0-I) في نشيد «رولان»، واستظهر الدكتور تأييداً

---

(١) راجع الكشّاف ١: ٢٩ ـ ٣٠.

لذلك: أنَّ «الَـمّ» تُقرأ هكذا: ألف، لام، ميم، فهي ليست رموزاً ولكنَّها رموزٌ صوتيَّة.

٢٥ ـ وعن مستشرق آخر ما مرَّ في بعض الجهات السابقة، وقد أخذ بها طه حسين، وهو أنَّها زيدت على القرآن بمرور الأزمان، وتكون رمزاً إلىٰ النُّسَخ المختلفة السالفة، كنسخة ابن مسعود وابن عبَّاس.... وهكذا.

٢٦ ـ أن تكون للامتحان والافتتان وهو: أنَّها ليس لها معنًى أصلاً، ولا مقصوداً رأساً، بل أُريد بذلك أن يُعلم العبد المنقاد المطيع من غيره، كبعض أفعال الحجّ، فإنَّ العبد مع توجّهه إلىٰ أنَّ المأمور به لا فائدة فيه يمتثل أمره، أقرب من العبد الَّذي لا يكون كذلك.

تذنيب: حول الأخبار الواردة في معناها:

اختلفت الآثار والأخبار وتشتّت الآراء والأقوال في ما أُرمز وأُشير إليه بهذه الحروف؛ من الأسماء الإلٰهيَّة والأفعال الربَّانيَّة:

١ ـ ﴿الٓمٓ﴾ معناه: أنا الله أعلم؛ أي أعلم من كلّ شيء، أو هو يعلم لا غير[١].

٢ ـ الألف من الله، واللام من جبرئيل، والميم من محمَّد ﷺ؛ أي القرآن نزل من الله على لسان جبرئيل عليه ﷺ[٢].

٣ ـ الألف دلَّ علىٰ قولك: لله، واللام على قولك: الملك

---

(١) التفسير الكبير ٢: ٦.

(٢) نفس المصدر.

العظيم القاهر للخلق أجمعين، والميم على أنّه المجيد المحمود في كلّ فعاله[١].

٤ ـ ﴿كٓهيعٓصٓ﴾: الكاف من الكافي، والهاء من الهادي، والياء من الحكيم، والعين من العليم، والصاد من الصّادق[٢].

٥ ـ الكاف كربلاء، والهاء الهلاك، والياء يزيد، والعين العطش، والصّاد الصّبر[٣].

٦ ـ الألف إشارة إلىٰ أنّه أحد، أوّل، آخر، أزلي، أبديّ واللام إلىٰ أنّه لطيف، والميم إلىٰ أنّه مجيد، ملك، منّان[٤].

٧ ـ الألف آلاؤه، واللام لطفه، والميم مجده[٥].

٨ ـ الألف أنا، واللام لي، والميم منّي[٦].

٩ ـ الألف إشارة إلىٰ ما لابدّ منه من الاستقامة في الشريعة في أوّل الأمر ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ﴾، واللام إشارة إلىٰ الحاصل عند المجاهدة ورعاية الطريقة ﴿وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾، والميم إشارة إلى صيرورة العبد في مقام المحبّة، كالدائرة

(١) راجع معاني الأخبار: ٢٥/ ٤.
(٢) معاني الأخبار: ٢٢ و٢٨/ ١ و٦، التفسير الكبير ٢: ٦.
(٣) كمال الدّين ٢: ٤٦١/ ٢١ نقله عن سعد بن عبد الله القمّي فيما سأله حضوراً عن الحجّة (عجّل الله فرجه)، مناقب آل أبي طالب ٤: ٨٤ نقله عن إسحاق الأحمر فيما سأله عن الحجّة (عجّل الله فرجه).
(٤) التفسير الكبير ٢: ٦.
(٥) التفسير الكبير ٢: ٦.
(٦) نفس المصدر.

الّتي تكون نهايتها عن بدايتها، وهو مقام الفناء في الله ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ﴾[١].

١٠ ـ الألف من أقصىٰ الحلق، واللام من طرف اللّسان، والميم من الشفة: أي أوّل ذكر العبد ووسطه وآخره لا ينبغي إلاّ لله ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾[٢].

١١ ـ ﴿الٓر﴾: أنا الله أرى[٣].

١٢ ـ وعن «تفسير الثعلبي» مسنداً عن الرّضا ـ عليه آلاف التحيّة والثناء ـ قال: سُئل الصّادق عليه السلام عن قوله: ﴿الٓمٓ﴾ فقال: «في الألف ستّ صفات من صفات الله عزّ وجلّ: الابتداء، فإنّ الله ابتدأ جميع الخلق، والألف ابتداء الحروف، والاستواء، فهو عادل غير جائز، والألف مستوٍ في ذاته، والانفراد، فالله فرد، والألف فرد، واتّصال الخلق بالله، والله لا يتّصل بالخلق، وكلّهم يحتاجون إلى الله، والله غنيّ عنهم، والألف كذلك لا يتّصل بالحروف والحروف متّصلة به، وهو منقطع عن غيره، والله تعالىٰ بائن بجميع صفاته من خلقه، ومعناه من الألفة، فكما أنّ الله عزّ وجلّ سبب أُلفة الخلق، فكذلك الألف عليه تألّفت الحروف، وهو سبب أُلفتها»[٤].

وغير خفيّ: أنّ مع انضمام هذه الأقوال إلىٰ تلك الآراء، تصير الوجوه ستّاً وثلاثين، وتزداد بما سيأتي توضيحه.

(١) التفسير الكبير ٢: ٧ ـ ٨.
(٢) التفسير الكبير ٢: ٨.
(٣) التفسير الكبير ٢: ٦.
(٤) راجع نور الثقلين ١: ٣٠ ـ ٣١.

إيقاظ وإرشاد:

اعلم: أنَّ استقصاء الاحتمالات والوجوه غير ممكن؛ لأنَّ الكلام إذا لم يكن علىٰ مبنى العقل أو النقل، لا ينتهي إلىٰ حدّ ولا ينقطع، وأنت إذا تأمّلت في هذه الآراء والأقوال الّتي لا نور لها ولا مستند ولا سند، تجد إمكان تكثير الوجوه إلىٰ ما لا يُحصيه إلاَّ الله تعالىٰ، لإمكان جعل الحروف المزبورة رمزاً وإشارة إلىٰ هذه المسائل، وإلى المسائل الأُخر المشابهة معها في الاسم واللفظ، وحيث لا يثبت لنا من طريق الوحي وجه معلوم، فلا نتمكّن من تعيين أحد هذه الوجوه، ولو كانت في حدّ نفسها نقيَّة من الأوهام والشُّبهات.

وإنّي تارك طول الكلام في المقام علىٰ بعض الوجوه المسطورة في المفصّلات، ونذكر ـ إن شاء الله تعالىٰ ـ بعض الوجوه الأُخر؛ لئلاَّ يخلو الكتاب من الإفادة والاستفادة من غير إمكان الاطمئنان والوثوق بالمقصود؛ ضرورة أنَّ نيل مقاصد المولىٰ لا يمكن إلاَّ من طريق الألفاظ الموضوعة، أو من طريق الكشف والشهود، ولا سبيل لنا إلىٰ الأوّل كما ترىٰ، ولا إلىٰ الثاني، كما نجد ونرى في أنفسنا، رزقنا الله تعالىٰ ذلك.

ونستعرض بعض الوجوه الجامعة لشتات الأخبار ولمختلف الآثار، بل به يمكن استجماع الأقوال والآراء، والله الهادي إلىٰ سبيل الرشاد وإلىٰ الصّراط السويّ وإلىٰ من اهتدىٰ.

ولعلَّ إلىٰ هذه المقالة تشير بعض الأخبار السابقة، الظاهرة في أنَّها من الأسرار الإلهيَّة والعلوم الربَّانيَّة المستورة، وقد اشتهر: أنَّ روايات أهل البيت تدلُّ على ذلك. ولكنَّك علمت أنَّ فيها ما تصدَّت لبيان بعض حدوده، وتضمَّنت توضيح بعض مقاصده.

حول الوجوه المفصلة المذكورة وما هو التحقيق في المسألة القريب إلىٰ أُفُق الواقع وهي كثيرة

أحدها: قال الشيخ في «الفتوحات»: اعلم أنَّ مبادىء السور المجهولة لا يعرف حقيقتها إلاَّ أهل الصور المعقولة... فجعلها تبارك وتعالىٰ تسعاً وعشرين سورة، وهو كمال الصورة ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ والتاسع والعشرون القطب الَّذي به قوام الفلك، وهو علَّة وجوده، وهو سورة آل عمران ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ﴾، ولولا ذلك لما ثبتت الثمانية والعشرون، وجملتها علىٰ تكرار الحروف ثمانية وسبعون حرفاً، فالثمانية حقيقة البضع، قال ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون»، وهذه الحروف ثمانية وسبعون حرفاً، فلا يكمل عبد أسرار الإيمان حتَّىٰ يعلم حقائق هذه الحروف في سورها... كما أنَّه إذا علمها من غير تكرار، علم تنبيه الله فيها على حقيقة الإيجاد وتفرُّد القديم سبحانه وتعالىٰ بصفاته الأزليَّة، فأرسلها في قرآنه أربعة عشر حرفاً مفردة مبهمة، فجعل الثمانية لمعرفة الذات والسبع الصفات، وجعل الأربعة للطبائع المؤلَّفة، فجاءت اثنتي عشرة موجودة، وهذا هو الإنسان من هذا الفلك، ومن فلك آخر يتركَّب من أحد عشر ومن عشرة ومن تسعة

وثمانية؛ حتَّىٰ يصل إلىٰ فلك الاثنين، ولا يتحلَّل إلىٰ الأحديَّة أبداً، فإنَّها ممَّا انفرد به الحقّ سبحانه.

ثمَّ إنَّه تعالىٰ جعل أوَّلها الألف في الخطّ والهمزة في اللفظ، وآخرها النون، فالألف رمز لوجود الذات علىٰ كمالها؛ لأنَّها غير مفتقرة إلىٰ حركة، والنون رمز لوجود الشطر من العالم، وهو عالم التركيب، وذلك نصف الدائرة الظاهرة لنا من الفلك، والنصف الآخر النون المعقولة عليها؛ الَّتي لو ظهرت للحسّ وانتقلت إلىٰ عالم الأرواح، لكانت دائرة محيطة، ولكن أخفيت هذه النون الروحانيَّة الَّتي بها كمال الوجود، وجعلت نقطة النون المحسوسة دالَّة عليها، فالألف كاملة من جميع وجوهها، والنون ناقصة، فالشَّمس كاملة، والقمر ناقص؛ لأنَّه محو، فصفة ضوئه مُعارة، وهي الأمانة الَّتي حملها، وعلىٰ قدر محوه وسرّه إثباته وظهوره ثلاثة لثلاثة، فثلاثة لغروب القمر القلبي الإلٰهي في الحضرة الأحديَّة، وثلاثة طلوع القمر القلبي الإلٰهي في الحضرة الربَّانيَّة، وما بينهما في الخروج والرجوع قدماً بقدم لا يختلّ أبداً.

ثمَّ جعل سبحانه وتعالىٰ هذه الحروف علىٰ مراتب: منها موصول، ومنها مقطوع، ومنها مفرد، ومنها مُثنًّىٰ ومجموع، ثمَّ نبَّه أنَّ في كلّ وصل قطعاً، وليس في كلّ قطع وصل يدلُّ على فصل، وليس كلّ فصل يدلُّ علىٰ وصل، فالوصل والفصل في الجمع وغير الجمع، والفصل وحده في عين الفرق، فما أفرده من هذه فإشارة إلىٰ فناء رسم العبد أزلاً، وما أثبته فإشارة إلى وجود رسم العبوديَّة حالاً، وما جمعه فإشارة إلى الأبد... إلى أن قال ما لا يرجع

إلىٰ محصَّل في القول، مع اندماج في الكلام بما لا يسعه المقام[١].

وفي موضع من محكيّ كلامه ما يشير إلىٰ أحكام الحروف ودقائق الأعداد، وهي ثلاثة آلاف وخمسمائة واثنان وثلاثون، وأوّل التفصيل من نوح إلىٰ إشراق يوح، ثمّ إلىٰ آخر التركيب الّذي نزل فيه الكلمة والرُّوح، فبعد عدده تضربه وتجمعه وتحطّ منه طرحاً وتضعه، يبدو لك تمام الشريعة حتّىٰ إلىٰ انخرام الطبيعة[٢].

وممّا يستأنس لذلك ما رواه العزّ بن عبد السلام: إنَّ عليّاً ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ استخرج وقعة معاوية من ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢﴾.

واستخرج أبو الحكم عبد السلام بن برجان في تفسيره، فتح بيت المقدس سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة من قوله تعالىٰ: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾[٣].

وقد ذكر الشيخ لاستخراجه طريقاً آخر وهو: أن تأخذ عدد ﴿الٓمٓ﴾ بالجزم الصغير، فيكون ثمانية، وتجمعها إلىٰ ثمانية البضع في الآية، فتكون ستة عشر، فتنزل الواحد الّذي للألف للأُسّ، فتبقىٰ خمسة عشر، فتمسكها عندك، ثمّ ترجع إلىٰ العمل في ذلك بالجمل الكبير، وهو الجزم، فتضرب ثمانية البضع في أحد وسبعين، واجعل ذلك كلّه سنين، يخرج لك في الضرب خمسمائة وثمانية وستّون سنة، فتضيف إليها الخمسة عشر، فتصير ثلاثة وثمانين وخمسمائة، وهو

(١) الفتوحات المكيّة ١: ٥٩ ـ ٦٠.

(٢) راجع روح المعاني ١: ٩٦، والإسراء إلى مقام الأسرىٰ، ضمن رسائل ابن العربي: ٧٧.

(٣) راجع روح المعاني ١: ٩٦.

زمان فتح البيت المقدس على قراءة «غَلَبت» بفتح الغين واللام و«سيُغْلَبون» بضم الباء وفتح اللام[١]. انتهى، والله العالم بخفيَّات كلامه وبأسرار آياته.

وقال في تفسيره: أشار بهذه الحروف الثلاث إلىٰ كلّ الوجود من حيث هو كلّ؛ لأنَّ «الألف» إشارة إلىٰ ذات هو أوَّل الوجود على ما مرّ، و«اللام» إشارة إلىٰ العقل الفعَّال المُسمَّىٰ بجبرئيل، وهو أوسط الوجود الَّذي يستفيض منه المبدأ، ويفيض إلىٰ المنتهىٰ، و«الميم» إلىٰ محمَّد ﷺ الَّذي هو آخر الوجود تتمّ به دائرته، وتتَّصل بأوَّلها[٢].

وعن بعض السلف: أنَّ «ل» ركّبت من ألفين؛ أي وضعت بإزاء الذات مع صفة العلم، اللذين هما عالَمان من العوالم الثلاث الإلٰهيَّة الَّتي أشرنا إليها، فهو اسم من أسماء الله تعالىٰ؛ إذ كلّ اسم هو عبارة عن الذات مع صفة ما، وأمَّا «م» فهو إشارة إلى الذات مع جميع الصفات والأفعال، الَّتي احتجبت بها في الصورة المحمَّديَّة الَّتي هي اسم الله الأعظم؛ بحيث لا يعرفها إلاَّ من يعرفها ألا تدري أنَّ «م» الَّتي هي صورة الذات كيف احتجب فيها، فإنَّ الميم فيها الياء، وفي الياء ألف.

والسرّ في وضع حروف التهجّي: هو أن لا حرف إلاَّ وفيه ألف، فمعنىٰ الآية: آلمّ ذلك الكتاب الموعود؛ أي صورة الكلّ المومىٰ إليها بكتاب الجفر والجامعة، المشتملة علىٰ كلّ شيء، الموعود بأنَّه يكون مع المهدي عليه السلام في آخر الزّمان، لا يقرأه كما هو بالحقيقة إلاَّ هو،

---

(١) الفتوحات المكيَّة ١: ٦٠.

(٢) راجع تفسير القرآن الكريم، المنسوب إلىٰ محيي الدِّين العربي ١: ١٣.

والجفر لوح القضاء الَّذي هو عقل الكلّ، والجامعة لوح القدر الَّذي هو نفس الكلّ، فمعنىٰ كتاب الجفر والجامعة الحاويين علىٰ كلّ ما كان ويكون، كقولك: سورة البقرة والنمل.

ثانيها[1]: أنَّ الإنسان الَّذي هو خلاصة جملة الموجودات له مراتب كمراتب العالَم، وكلّ مرتبة منه حقيقة أو رقيقة لما سواها، فكلَّما يجري علىٰ لسان بشريَّته رقيقة وتنزّل وظهور لما يجري علىٰ لسان مرتبة مثاله، وما يجري علىٰ لسان مثاله رقيقة لما يجري على لسان قلبه. . . وهكذا، وكلّ تلك الرقائق رقائق لما ثبت في المشيَّة، وفُضّل الإنسان بمقدار الاستشعار بتلك المراتب والاتّصال بها، ومن لا يدرك من الإنسان سوىٰ البشريَّة فقدره قدر البهيمة، وقد غفل أكثر النَّاس عن أكثر هذه المراتب، لا يدركون منه سوىٰ ما في ظواهره، والمستشعر بتلك المراتب والمتحقّق بها إذا تكلَّم هو أو غيره بكلمة، يستشعر بحقائق تلك الكلمة وصور حروفها في المراتب العالية أو يتحقَّق بها.

وما قيل: إنَّ كلّ حرف من القرآن في الألواح العالية أعظم من جبل أُحد، صحيح عند هذه المرتبة من الاستشعار أو التحقُّق.

وقد يتحقَّق الإنسان بالمراتب العالية أو يستشعر بها أوّلاً، ثمَّ ينزل من تلك المنازل والمراتب على بشريَّته الكلمات الَّتي هي رقائق ما يظهر عليه من الحقائق في تلك المراتب.

وقد حكي عن بعض: أنَّه كان إذا سمع كلمة دالَّة علىٰ المعاني

(١) أنظر تفسير بيان السّعادة ١: ٣٨.

العالية يأخذه الغشي، وينسلخ عن بشريَّته، وربَّما كان يتكلَّم حين الغشي بالحقائق الإلٰهيَّة، وقد كان رسول الله ﷺ يأخذه حالة شبيهة بذلك حين نزول الوحي، وكان ﷺ تظهر عليه الحقائق ـ حينئذٍ ـ في تلك المراتب بنحو التفصيل، وتنزل على بشريَّته أيضاً بنحو التفصيل، وتُسمَّىٰ النازلة بكلام الله وبالحديث القدسي.

وقد تظهر الحقائق بنحو الإجمال والبساطة وتنزل علىٰ بشريَّته كذلك، فيعبِّر عنها بطريق الإجمال وبالحروف المقطَّعة، مثل فواتح السور.

وتأويل القرآن: عبارة عن إرجاع ألفاظه إلىٰ حقائقها الثابتة في تلك المراتب.

وبطون القرآن: عبارة عن تلك الحقائق في تلك المراتب، ولكون المراتب باعتبار كلّيَّاتها سبعاً، وباعتبار جزئيَّاتها ترتقي إلىٰ سبعمائة ألف، اختلفت الأخبار والآثار في تحديد البطون. ولعدم إمكان التعبير عن تلك الحقائق للراقدين في مراقد الطبع إلاَّ بالأمثال ـ كما أنَّها تظهر للنائمين بالأمثال ـ اختلفت الروايات في المراد من فواتح السور، فلا يمكن الإحاطة بها، بل لابدَّ من الإرماز والإجمال والتشابه.

ثالثها[1]: اعلم أنَّ الحروف المفردة اللفظيَّة أصل للكلمات المركَّبة منها، والمفهوم من المركَّبة أُمور غير بسيطة بحسب الاستقراء في الغالب أو الكلّ، فالظاهر أن تكون تلك الحروف بإزاء أُصول

(١) أنظر تفسير الكمباني: ١٧٨ ـ ١٨٤.

العالَم الَّتي هي بسائط بالقياس إلىٰ أجزاء العالَم، كما أنَّ النَّفس الإنسانيَّة أوَّل ما يحصل فيها الحروف علىٰ حسب مراتبها، فتكون النَّفس الرَّحمانيَّة أيضاً محصلة لبسائط هي الأُصول للعوالم المقيّدة المركَّبة، ويكون كلّ حرف من الحروف الصادرة من الإنسان، بإزاء حقيقة من تلك الحقائق البسيطة؛ حتَّى تُطابق الآية ـ الَّتي هي الإنسان ـ ذا الآية، ويحصل الطِّباق بين مقام اللفظ والمعنىٰ؛ حتَّىٰ يصلح للمرآتيَّة.

وإذا لاحظتَ بعقلك نسبة البسيط إلىٰ المركَّب المفروض وجوده، فاحدس أنَّه لم يتحقَّق المركَّب في الأعيان إلاّ وقد سبقه فيها البسائط، الَّتي هي أُصول تلك المركَّبات، فيشبه أن يتقدَّم خلق البسائط علىٰ خلق المركَّبات؛ حسب اقتضاء النظام الأكمل حتَّى تكون بمنزلة الخزائن للحصص الَّتي عرضها التركيب في عالم المركَّبات، ولعلَّ إليها ينظر قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝٢١﴾[1].

والَّذي يناسب تلك البسائط والأُصول في عالَم الوضع والدلالات ـ ولاسيَّما إذا كانت الدلالة ذاتيَّة، كما عن الصيمري وابن عبّاد ـ هي الحروف المفردة، فيشبه أن تكون تلك الحروف دالَّة على تلك الحقائق بالذات أو الوضع.

وأمَّا الحقائق المستورة هي الأسماء الإلٰهيَّة، الَّتي ملأت أركان كلّ شيء بأشعَّتها وآثارها، وتدلُّ تلك الحروف المفردة علىٰ تلك الحقائق بأن يكون كلّ واحد بإزاء كلّ واحد، وإلىٰ مثله يشير ما مرَّ

---

(١) الحجر (١٥): ٢١.

من: «أنَّ الله تعالىٰ خلق في الابتداء حروف المعجم»[١]، وقد رواه ابن بابويه في التوحيد عن الرِّضا ـ عليه السلام والثناء ـ ويومي قوله: «ما من حرف إلاّ وهو اسم من أسماء الله»[٢].

ومرَّ منَّا تفاصيل معاني الحروف وإن كان بعضها ممَّا يُتراءىٰ منه أنَّه ليس باسم له سبحانه، ولكن إذا لاحظته منتسباً إلىٰ الرَّبِّ سبحانه، فربَّما يظهر لك المشتقّ الَّذي يصحّ أن يوصف به الحقّ، ولا يلزم أن يكون مدلول تلك الأخبار والآثار، أن تكون الحروف المفردة دالَّة علىٰ المركَّبات، كما ربَّما سبق إلىٰ الوهم، هل صحَّ أن يكون كلٌّ من الطائفتين دالَّة علىٰ تلك الحقائق العينيَّة وعلىٰ الله سبحانه باعتبارها؟!

وربَّما يدلُّ علىٰ ذلك ما سبق من: «أنَّ صفوة هذا الكتاب حروف التهجّي»[٣]، وكثير ممَّا مرَّ وسبق في بيان فواتح السور المفسّرة لها بأسماء الله سبحانه، أو بما يستشمّ منه ذلك كتفسير نون بالمداد من النُّور الَّذي كُتب به ما كان وما يكون[٤]، فإنَّ الظاهر منه أنَّه من البسائط الأوَّليَّة، ولا ينافيه كونه نهراً في الجنَّة[٥]، فإنَّ الجنَّة خَلْق روحانيّ وجسمانيّ، فهو نهر في المعاني الرُّوحانيَّة، وفي مقام الأسماء الإلٰهيَّة، أو أنَّه عند التنزّل إلىٰ الجنَّة المادِّيَّة والمقداريَّة يصير نهراً، فإنَّ النهر والنُّور والنون متناسبات في الألفاظ، فتكون هكذا في المعاني.

(١) راجع التوحيد: ٢٣٢/١، ومعاني الأخبار: ٤٣/١.
(٢) راجع التوحيد: ٢٣٥/٢، ومعاني الأخبار: ٤٤/٢.
(٣) راجع من تفاسير الخاصَّة إلىٰ مجمع البيان ١: ٣٢، ومن تفاسير العامَّة إلىٰ التفسير الكبير ٢: ٣.
(٤) راجع معاني الأخبار: ٢٣/١.
(٥) أنظر نفس المصدر.

وبالجملة: يؤيّد ذلك وصفه بالتوراة، وبأنّه ملك، فإنّ تلك الحقائق ربّما يصحّ أن يطلق عليها لفظ الملك، أو يستعار لها اسم الملك الموكّل عليها الواقع تحتها، كما يصحّ أن يطلق لفظ الجنّة مستعملاً في الجنّة وفي مبدئها وأصلها الّذي بتنزّلها ظهرت الجنّة، وما في ذيل خبر ابن إبراهيم القمّي[(١)] ربّما يؤيّد ذلك فلاحظه.

وما ورد في صاد: أنّه عين أو ماء عند العرش[(٢)]، فهو أيضاً مثل ما مرّ في نون، وعلىٰ مثله يُحمل أيضاً ما ورد من: تفسير بعض الفواتح بالنبيّ ﷺ وشجرة طوبىٰ وسدرة المنتهىٰ وطور سيناء[(٣)] وغيرها، أو يفسّر بالأمير عليه السلام بعض الآيات[(٤)]، الّتي حكي عن ابن شهرآشوب أنّ عدد تلك الآيات تبلغ إلىٰ ثلاثمائة، فإنّ حقيقة التأويل كون تلك الحقائق معاني لتلك القوالب، والألفاظ مظاهر لها؛ ضرورة أنّ السافلات حاكيات عن العاليات، وهي هي تنزّلاً، وذاك ذاك ترقّياً وعلوّاً، فإنّ المعلول حدّ ناقص للعلّة، والعلّة حدّ تامّ للمعلول.

وقريب منه الكلام في تفسير قاف بالجبل[(٥)]، فإنّ لحقيقة القاف في عالم البسائط ما إذا تنزّل يُعدّ جبلاً في عالم الألفاظ، وتكون جبلاً محيطاً بالعالم كلّه أو مجموعة من العوالم.

ومن هنا تظهر سائر التفاسير الواردة في الحروف المقطّعة المركّبة أو المفردة، فإنّ المركّبات منها منقطعات بشهادة قراءتها مفردة.

---

(١) راجع تفسير القمّي ٢: ٣٨٠.

(٢) راجع معاني الأخبار: ١/٢٢، وعلل الشرائع ٢: ٣٣٥.

(٣) مجمع البيان ٧: ١٨٤.

(٤) بحار الأنوار ٣٥: ١٨٣ وما بعدها.

(٥) راجع معاني الأخبار: ٢٢ ـ ١/٢٣، وتفسير القمّي ٢: ٣٢٣.

ثمَّ اعلم: أنَّ ظهور آثار هذه الحقائق في هذا العالم مختلفة حسب الدهور والأزمان، فتارة يقوىٰ ظهور بعضها ظهوراً بيّناً، ويخفىٰ مقابله، وأُخرى ينعكس، وثالثة يتوسَّط، فيكون لهما الظهور ولدولة كلٍّ منها واستيلائه زمان معيَّن وعصر خاصّ محدود علىٰ حسب ما به حكم الله سبحانه، وإذا جاء أجله كان الملك والسلطنة لأهل ذلك الاسم، وإذا انقضى ارتفعت عنهم، وذلك كالشَّمس إذا طلعت ظهر آثار طلوعها؛ من الإضاءة والتسخين وغيرها في العالم، وكلَّما ارتفعت ازدادت الآثار إلى نصف النَّهار على عكس حال الظلمة والبرودة والرطوبة، فإنَّها تضعف كذلك، وعند وسط السَّماء يبتدئ النزول والانتقاص إلىٰ غروب الشَّمس، فحينئذٍ تستولي الظلمة، والرطوبة متزايدة إلى نصف اللَّيل، ثمَّ تنقص بحسب المقتضى إلىٰ طلوع الشَّمس، وهكذا الأمر في أكثر وجودات هذا العالم، فإنَّها تبتدئ وتأخذ في الكمال إلى حين تقف، وترجع متناقصة إلىٰ ما يماثل الحال الأوَّل، فالإنسان يوجد ابتداء ضعيفاً من كلّ وجه، ويأخذ في القوَّة والاستكمال إلىٰ حدّ الشباب.

وبالجملة: لكلّ موجود طلوع وغروب، بل لكلّ صنف ونوع ظهور وبطون، تابعان لظهور اسمه وبطونه وطلوعه وغروبه، ومن هنا يظهر أنَّ لكلّ طائفة خاصَّة زماناً لطلوع سلطنتها وظهور استيلائها وشوكتها، هو زمان طلوع ذلك الاسم المنتسبة إليه، فإنَّ النَّاس علىٰ دين ملوكهم.

وممَّا يقتضيه الاعتبار: كون مدَّة تلك السلطنة موافقة لعدد حروف ذلك الاسم طبعاً وذاتاً، إذن الحرف هناك قالَب المعنىٰ، والأصل

يطابقه في صفات المعنىٰ، وحينئذٍ يصحّ أن يُقال: كلّ فاتحة من فواتح السور تدلُّ علىٰ استيلاء مظهر تلك الفاتحة وملكه في المدَّة المدلول عليها بحروف تلك الفاتحة.

وغير خفيّ: أنَّ فواتح السور المتعلقة بهذه المسألة مختلفة وكثيرة، فمنها ما يتعلَّق بقيام بني العبّاس وانقضاء دولة بني أُميَّة كـ ﴿الٓمٓصٓ ۝١﴾ على ما سبق[١]، ومنها ما يتعلَّق بانقراض الأديان والأحزاب ومدَّة حياتهم... وهكذا كما ترىٰ إلىٰ بعض الأخبار السابقة[٢].

وأمّا ما ورد من أنَّ ﴿عٓسٓقٓ﴾ عدد سنيّ القائم ـ عجّل الله تعالى فرجه[٣] ـ فهو موافق لكون علم كلّ شيء في ﴿عٓسٓقٓ﴾؛ إذ تلك السنين هو زمان ظهور العلم والمعرفة والحقيقة واضمحلال الباطل والجهل، ولما ورد من ترجمته بالعالم السميع القادر القويّ[٤]؛ إذ فيها يظهر حكم العلم والسمع مجتمعين مع القوّة والقدرة مؤتلفين معهما؛ إذ القوّة والقدرة بيد مظهر العلم السميع.

ويؤيّد ذلك كلّه: أنَّ لقراءة هذه الحروف ـ أعني حمٓ عٓسٓقٓ ـ تأثيراً عظيماً في انكشاف العلوم والمعارف، بل في ظهور دولة الحقّ في العالم الصغير؛ علىٰ ما هو الظاهر ممّا جرَّبه المجرّبون، وقد ورد هذا اللفظ ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ في الدُّعاء مكرّراً إمّا مُقْسَماً بهما أو جعلها

---

(١) تفسير العيّاشي ٢: ٣/٣.

(٢) راجع معاني الأخبار: ٣/٢٣ و٤.

(٣) تفسير القمّي ٢: ٢٦٨.

(٤) معاني الأخبار: ١/٢٢.

مدخولي حرف النداء[١]، والظاهر أنَّ لهما شأناً ومكاناً لمن كان من أهله، وهذا ممَّا يؤيّد كون مدلولهما من حقائق الأسماء العينيَّة الإلٰهيَّة.

وممَّا أشرنا إليه في ﴿عٓسٓقٓ﴾ ـ من اجتماع القدرة والعلم ـ يمكن استخراج وجه آخر لدلالة فواتح السور على زمان الملك في الجملة وهو: أنَّ كلّ موضع كان فيه بعض الحروف دالَّة على الملك والقدرة أو القوَّة أو ما شاكلها، فهو يقتضي ظهور معانيها في مظاهر باقي الحروف المجتمعة معه، فههنا يدلُّ على ملكيَّة العالم السميع، وفي سائرها على هذا القياس.

ثمَّ إنَّ الظاهر: أنَّ ما ذكرناه من كون حروف التهجّي دالَّة علىٰ حقائق الأسماء الإلٰهيَّة، أساسُ علم الحروف وأحكامه وآثاره المرتّبة عليها، وتلك الأسماء الإلٰهيَّة تنقسم إلىٰ اسم أعظم هو بمنزلة الكلّ في وحدة، وإلىٰ أسماء جمال وجلال، وإلىٰ أسماء كلّيَّة وجزئيَّة كما يشهد لذلك ما سبق في تفسير آحاد حروف التهجّي.

ومن ذلك يظهر وجه ما روي: «أنَّ فواتح السور حروف اسم الله الأعظم»[٢]، فإنَّ الظاهر منها أنَّ الفواتح تدلُّ على ما عداه من الأسماء المذكورة، فتلك المفردات إذا أخذت مستجمعات تدلُّ على ذلك الاسم الأعظم، والله العالم بالأسرار والخفيَّات.

---

(١) أنظر مجمع البيان ٦: ٥٠٢، وبحار الأنوار ٨٤: ٥٩/٢٥١ و٨٨: ٥٠ و١٨٩/١/١١ و٩١: ١/٣٢٩.

(٢) راجع معاني الأخبار: ٢/٢٣.

حول إعجاز القرآن وخلوده

أقول: لابدّ أن نُشير إلىٰ وجوه الإعجاز، وفي خلالها إلىٰ أنواع التحدّي المنتسبة إلىٰ القرآن العزيز، ثمّ بعد الفراغ عنها نُشير إلىٰ ما هو الحقّ عند ساطر هذه الأرقام ومؤلّف هذه الأسطر إن شاء الله تعالىٰ.

الوجه الأوّل

اشتماله علىٰ المعارف العالية

وهي أنّ القرآن يشتمل علىٰ المعارف الراقية والتوحيد العالي، الّذي لا يصل إليها بعدُ أفكارُ العرفاء الشامخين وآراء الفلاسفة البارعين، فإنّ القرآن أتىٰ بتوحيد يحكي عنه قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾، ولم يتمكّن البشر ـ إلىٰ هذه العصور الراقية ـ من فهم مَعِيَّة الذات الأحَدية الإلٰهيّة البسيطة مع الكثرات السّرابية الّتي بقيعةٍ، وبنوا علىٰ حمل الكريمة علىٰ المعيّة القيّوميّة، الّتي تكون للذات الإلٰهيَّة بالمجاز لا الحقيقة، وأنّ ما هو مع الكثير هو الوجود الظِّلّي المخلوق به المنبسط علىٰ رؤوس الماهيّات الإمكانية والأعيان الثابتة.

الوجه الثاني
اشتماله علىٰ أُصول الأخلاق

يشتمل القرآن العزيز علىٰ أُصول الأخلاق الإنسانية، وعلىٰ عروق الكمالات النفسانيَّة، وعلىٰ تذكير الإنسان بالمعارج الملكوتية والمحاسن اللاهوتية، فيُنادي بأعلىٰ صوته: ﴿...قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝١٥ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝١٦﴾[١]، ولا يتمكَّن البشر من الاطّلاع على تلك السُبل المختفية في زوايا القلوب والأرواح، وأنَّ البشر والإنسان البالغ إلىٰ حدّ الرِّضا بالرضوان، والمتحقّق بمقام الرِّضا، والمتشِّن بشأن هذه المنقبة العالية والصفة الراقية، يكون بعدُ في الظُّلمات، ويُخرجه منها القرآن العزيز إلى النُّور، ويهديه إلىٰ الصِّراط المستقيم، فهو بعدُ غير مستقيم.

فهذه الدعوىٰ من عجائب دعاوىٰ القرآن، ومن أعجب الآيات الإلٰهيَّة في الكتاب العزيز.

ويُنادي في تلك الظروف المعلومة لكلّ أحد: بأنَّ الدُّنيا دار فناء، ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾[٢]، وأنَّ جميع المصائب والمفاسد تنشأ من اتّباع الهوىٰ ومخالفة المولىٰ، وأنَّ مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوىٰ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ.

وغير خفيّ علىٰ ذوي العقول الإنسانية: أنَّ النداء والدعوة إلىٰ

(١) المائدة (٥): ١٥ ـ ١٦.

(٢) القصص (٢٨): ٨٨.

هذه الموائد الأخلاقية، وإلىٰ هذا البساط الإنساني البرهاني دعوة إلى الفطرة السليمة، فيكون الكتاب العزيز من هذه الجهة أيضاً منطبقاً علىٰ أُصول الفطرة، كما كان منطبقاً علىٰ الفطرة وأُصولها في الجهة الأُولىٰ.

الوجه الثالث
اشتماله علىٰ الحقائق الحكمية والطبيعيّة

إنّ القرآن كشف عن نقاب الحقائق الحكمية والمسائل الفلسفية في عبارات موجزة، فيُنادي ـ مثلاً ـ:

في موقف الإشارة إلىٰ مسألة وحدة الوجود وأصالته بقوله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾(١)، وبقوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾(٢)، وبقوله: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾(٣).

وينادي ـ مثلاً ـ في موقف مسألة كيفيَّة حصول الكثرة في العالم بالأيمان والأقسام في السور الأخيرة المكّيَّة، كسورة المرسلات والعاديات والنازعات، وفي هذه اليمينيات أسرار إلٰهيَّة ومسائل فلسفية بلغت غايتها في عبارات رائقة مختلفة المراتب؛ حسب اختلاف رُتب عقول البشر وأفكار القارئين.

وفي موقف وجود الوسائط بين الواحد الأوَّل البسيط والمادَّة الَّتي مثار الكثرة ينادي ـ مثلاً ـ بقوله: ﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾(٤).

(١) النُّور (٢٤): ٣٥.
(٢) المجادلة (٥٨): ٧.
(٣) الحديد (٥٧): ٣.
(٤) المؤمنون (٢٣): ١٤.

وفي موقف مسألة العلم ونفوذه بقوله: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ۝١٤﴾[١]، وقد أدّىٰ البرهان وبلغ إلىٰ ميقات الفرقان في أنَّ علمه تعالىٰ بكلّ شيء، ليس علىٰ سبيل العلوم الكلّية المتعلّقة بالمفاهيم العامّة.

وفي موقف نفوذ قدرته وسريان سلطنته، وفي مسألة الجبر والاختيار جاء بالآيات الكثيرة الّتي تشتمل على اختلاف النسب، فتارة ينسب فعلاً واحداً إليه تعالىٰ، فيقول: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾[٢]، وأُخرى يقول: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ...﴾[٣]، وفي سورة الواقعة آيات ثلاث بالغة إلىٰ غاية اضمحلال فعل العبد في فعله، فيقول: ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ۝٦٤﴾[٤] إلى آخره، فإنَّ فيها نداء إلىٰ إسقاط الإعداد والعلّيّة الناقصة، كما لا يخفىٰ على الخبير البصير.

وبقوله: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۝٩٦﴾[٥] يُنادي إلىٰ نهاية المأمول لأهل اليقين، وغاية المقصود لأصحاب العرفان والدِّين، وأنَّ قدرته وإرادته نافذة في كلّ شيء وكلّ فعل، كما عليه أحاديث أئمّتنا ـ عليهم الصلوات والسلام ـ وهو مقتضىٰ البراهين الحكمية والأدلّة الفلسفية المحرّرة في «الحكمة المتعالية» و«القواعد الحكمية».

وفي موقف صفاته وأسمائه، وأنّها عين ذاته، ينادي بقوله: ﴿هُوَ

---

(١) الملك (٦٧): ١٤.

(٢) الزمر (٣٩): ٢٣.

(٣) الشعراء (٢٦): ١٩٣ و١٩٤.

(٤) الواقعة (٥٦): ٦٤.

(٥) الصافّات (٣٧): ٩٦.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ... ﴿٢٣﴾﴾[١] فتدبّر جيّداً.

وفي موقف أنَّ بسيط الحقيقة كلّ الأشياء، وليس بشيء منها، ينادي ويشير ـ مثلاً ـ بقوله: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾[٢]، وبقوله: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ﴾[٣]، فإنّه يفيد أنَّ البسيط كلّ الأشياء؛ سواء كان آمراً أو أمراً.

وفي موقف مسألة امتناع صدور الكثير منه تعالىٰ ومن البسيط علىٰ الإطلاق، يُنادي ـ مثلاً ـ بأعلىٰ صوته: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ﴾.

وفي موقف لزوم السُّنخية بين العلّة والمعلول بقوله: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾[٤].

وفي موقف قوسي النزول والصعود بقوله: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾[٥].

وفي موقف تقسيم الموجودات إلىٰ المبدعات والكائنات، وأنَّه تعالىٰ فاعل بالتجلّي بقوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾[٦]، وأنَّ نسبة العالم إليه تعالىٰ كنسبة الصور الذهنية إلىٰ الأنفس المجرَّدة، مع فرق غير خافٍ علىٰ أرباب العقول والفحول من أصحاب الوصول.

---

(١) الحشر (٥٩): ٢٣ و٢٤.
(٢) النساء (٤): ٧٨.
(٣) القمر (٥٤): ٥٠.
(٤) الإسراء (١٧): ٨٤.
(٥) البقرة (٢): ١٥٦.
(٦) يس (٣٦): ٨٢.

وفي موقف ربط الحادث بالقديم الَّذي هو من أغمض المسائل الإلٰهيَّة، يشير أحياناً بقوله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[١]، وبقوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[٢]، وبقوله: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾[٣].

هذه جملة قليلة من الآيات الَّتي تكون رمزاً إلىٰ المسائل العالية العلمية الَّتي وصل إليها العلم الإلٰهي بعد مُضيّ الألف والأكثر.

وهناك آيات ربَّما تكون إشارة ورمزاً إلىٰ المسائل الطبيعيَّة العامَّة كمسألة الحركة الجوهرية وبعض المسائل الأُخر:

فمنها: قوله تعالىٰ في موقف مسألة حدوث النَّفس حدوثاً جسمانيّاً قبال القائلين بأنَّها حادثة بحدوث البدن، أو كان قديماً، وذلك قوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾[٤].

وقوله في موقف مسألة الحركة الجوهرية: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾[٥].

أو قوله: ﴿بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[٦].

وقوله في ترتيب مراتب الخلق من الماء والطين إلى النطفة والعلقة إلىٰ آخر الآية.

(١) النُّور (٢٤): ٣٥.
(٢) الحديد (٥٧): ٤.
(٣) البقرة (٢): ١١٥.
(٤) المؤمنون (٢٣): ١٤.
(٥) النمل (٢٧): ٨٨.
(٦) ق (٥٠): ١٥.

وفي موقف الجاذبة العامّة: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ۝٢٥ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾[١].

وفي موقف كيفيَّة حصول الكرات السَّماويَّة: ﴿نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾[٢].

وفي موقف الفلكيات وهدم أساس الهيئة القديمة آيات كثيرة مذكورة في محالّها، وقد جمعها العلاّمة الشهير الشهرستاني، وألَّف رسالة في هذه المسألة مستقلة في السنوات البعيدة.

وبالجملة: يشير الكتاب العزيز بحركة الأرض عند قوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾[٣]، وإلىٰ حاجتها إلىٰ الجبال في مسألة تعديل حركتها بقوله: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾[٤]، وربَّما يُشير إلىٰ المسألة الأُولىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾[٥] وإلىٰ مسألة كروية الأرض ربَّما يشير قوله تعالىٰ: ﴿...بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾[٦]، وإلىٰ مسألة إمكان الصعود إلىٰ السَّماء بالسلطان، فينهدم أساس امتناع الخرق والالتئام في الفلك بقوله تعالىٰ: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟﴾[٧] إلىٰ آخره، وإلىٰ مسألة مبدأ خلق السَّماء والأرض بقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾[٨] فإنَّ ما يثبت عند المحقّقين لا

(١) المرسلات (٧٧): ٢٥ و٢٦.
(٢) الرعد (١٣): ٤١.
(٣) النازعات (٧٩): ٣٠.
(٤) النازعات (٧٩): ٣٢.
(٥) النمل (٢٧): ٨٨.
(٦) المعارج (٧٠): ٤٠.
(٧) الرَّحمٰن (٥٥): ٣٣.
(٨) فصّلت (٤١): ١١.

يرجع إلىٰ أكثر من ذلك، وإلىٰ مسألة تعدُّد الأرض بقوله: ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾(١) خلافاً لما عليه حكماء السلف.

وبالجملة: تحتاج هذه الورطة إلىٰ كُتب أُخر غير كتابنا، ولو وفَّقني الله تعالىٰ لإتمام السِّفْر الحقير ـ لحقارة ساطره ـ لأشرنا خلال المباحث والآيات إلىٰ أعاجيب الكتاب، وما فيه من حلّ المشاكل والمعاضل.

وبالنتيجة: في كلّ وادٍ من المسائل العرفانية والأُلوهية والحكمية الإلٰهيَّة والفلسفة الطبيعية والمادّيَّة، يكون للقرآن قدم راسخ، وفيه آيات باهرة ظاهرة كاشفة عن تلك الحقائق برموز وإشارات وتنبيهات.

فمن المسائل الإلٰهيَّة مسألة التشكيك في الوجود وإليها ربَّما يشير قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾(٢)، وفيه الإشارة إلىٰ مسألة مجعولية الوجود وأصالة الوجود أيضاً.

ومن المسائل الشامخة الإلٰهيَّة المصرَّح بها في القرآن المبين مسألة نُطْق الأشياء والحيوانات وإدراكهم المركَّب وعملهم بالعلم وإليها تشير آيات؛ فمنها قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾(٣)، وقوله تعالى: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾(٤)، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾(٥)، وقوله: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾(٦)،

---

(١) الطلاق (٦٥): ١٢.

(٢) الرعد (١٣): ١٧.

(٣) الإسراء (١٧): ٤٤.

(٤) النُّور (٢٤): ٤١.

(٥) فصّلت (٤١): ٢١.

(٦) النمل (٢٧): ١٦.

وقوله: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ﴾[١] إلىٰ آخره، وغير ذلك من الباهرات الواضحة والواضحات الباهرة.

ثمَّ إنَّ مقتضىٰ البراهين القطعية العقلية جسمانية المعاد، ومعاد كلّ شيء إليه تعالىٰ، وإليه الإشارات والتصريحات في ذلك الكتاب المبين، الَّذي لا ريب فيه في ذلك العصر المظلم الممثَّل بالغياهب، ويشير فيه إلىٰ مسألة تجسّم الأعمال وأنَّ الجنَّة والنَّار تبعات الذات والأخلاق والأفكار، فينادي: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ﴾[٢]، ويقول: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾[٣]، ويقول: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧﴾[٤]، ويقول: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾[٥]، وقد بلغت هذه المسألة نصابها، وتوفَّرت الأدلَّة العقلية والسمعية ميقاتها، وتدلُّ بمجموعها علىٰ أنَّ الأعمال تجسّم بعد فراغ النَّفس عن البدن.

وربَّما يشير إلىٰ مسألة الروح وانفكاكها من البدن الآدمي ورفض المادَّة بالموت قوله تعالىٰ: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[٦].

فهل يمكن ـ مع ضيق المجال وطيلة ثلاثة وعشرين عاماً ـ صدور مثله عن مثله ﷺ، مع لحاظ كثرة الابتلاءات الخارجية، مع

---

(١) النمل (٢٧): ١٨.
(٢) آل عمران (٣): ٣٠.
(٣) الزلزلة (٩٩): ٧ ـ ٨.
(٤) الهمزة (١٠٤): ٦ ـ ٧.
(٥) البقرة (٢): ٢٤.
(٦) المؤمنون (٢٣): ١٠٠.

قيامه ﷺ بالحكومة والسلطنة والبسط والجهات والغزوات، وتشكيل الحكومة وتقنين القوانين العالية، الآتية في فصل علىٰ حِدة.

ولنعم ما يُقال خطاباً للإنسان أن يُقال خطاباً للكتاب:

أتزعمُ أنك جرمٌ صغير ... وفيكَ انطوىٰ العالَمُ الأكبرُ
وأنت الكتاب المبين الَّذي ... بأحرفه يظهر المُضمَرُ[(١)]

ولَعَمْري إنَّ إعجاز الإسلام الَّذي هي مهمَّتنا، ينكشف لأهل التفكُّر والتدبُّر ولأهل الوجدان والضمير من ملاحظات يسيرة؛ ملاحظة الكتاب وما يحتوي عليه، وملاحظة قصر زمان تحقّقه وتجمّعه، وملاحظة كثرة ابتلاءات من أتىٰ به وتحدَّىٰ به ـ بحمد الله وله الشُّكر ـ فإنَّ من ذلك يظهر أنَّ الإسلام معجز جدّاً وحقيقة، ولا يكون إلاَّ من عند القدير العليم، فيكون الإسلام ديناً ودليلاً. أمَّا الأوَّل فواضح، وأمَّا الثاني فإنَّه دليل على الصانع الغائب الخبير البصير واللطيف القدير، وإلاَّ فكيف يتمكَّن واحد من الآحاد من الإتيان بمثله.

وهناك ملاحظة رابعة وهي لحاظ تاريخ نبيّ الإسلام وحدود سيره ومشيه ومعاشرته ودراسته واطّلاعه على الأمور الدينية السالفة والدنيوية العصرية، وملاحظة جغرافيا بلدته في تلك العصور البعيدة عن جميع المزايا والمُثُل.

فالإسلام مُعجز المُلحدين القائلين بالدهرية والطبيعة، ومُعجز الكافرين والطوائف الباطلة؛ من المجوس واليهود والنصارىٰ، ومعجز خالد فيكون دليلاً على فساد المقالات المتأخِّرة، الواضح انحطاطها

---

(١) الإمام علي : ٥٧.

من غير حاجة إلى تكلُّف واستدلال، وتفصيل هذه المسألة ربَّما يأتي من ذي قبل إن شاء الله تعالىٰ.

الوجه الرابع

اشتماله علىٰ القوانين الفردية والاجتماعية

إنَّ القرآن يشتمل علىٰ القوانين الموضوعة المحتاج إليها البشر في حياتهم الفردية والاجتماعية، ويحتاج إليها الإنسان في سياسته المنزلية والبلدية والقطرية والمملكيَّة الكلّية.

إنَّ القرآن ناظم النظام الخاصّ وصاحب المكتب الحديث في كيفيَّة إدارة الملك وإعاشة الطبقات:

ففيه قوانين فردية راجعة إلىٰ العباد وخالقهم، وهي تربوية روحية لازمة؛ حفاظاً علىٰ النظام العامّ الاجتماعي، ومنها قوانين الطهارة والصلاة والصوم والاعتكاف.

وفيه القوانين المشتملة علىٰ النظام المالي، وعلىٰ المسائل الاقتصادية الَّتي عليها رحىٰ وجود الوحدات الاجتماعية الصغيرة والكبيرة، ومنها قانون الخمس والزكاة.

وفيه ما يكون من القوانين الارتباطية الفردية والاجتماعية، والمعارفة اللازمة بين العوائل الجزئية والكلّية، ومنها قانون الحجّ، وفيه قوانين إدارية وتحليل وتحريم بالنسبة إلىٰ المسائل الكلّية العقلائية، القائمة بها الأسواق الاختصاصية والمشتركة. ومنها قانون

حلّية التجارة وحرمة الربا، وحلّية النكاح والزواج وتحريم الزنا، وما يشبهه. ومنها قانون السلطة على الأموال وتحريم أكل مال الغير.

وفيه قوانين موضوعة للسياسة الاجتماعية اللأزم رعايتها جدّاً في الحياة الحسنة والمعاش المستريح، ومنها قوانين في موارد السرقات والزنا واللواط وجعل الديّات والحدود على التفصيل المحرّر في الأنظمة الفقهية والمنظّمات الإسلامية.

ففي هذه المراحل الثلاث روعي لكلّ جانب حقّه. وبالجملة، له مكتب خاصّ محرّر في محالّه، وليوفّقني الله تعالىٰ لتوضيحه في رسالة علىٰ حدة آمين.

فإليك أيُّها الإنسان المنصف بالفطرة والبعيد عن اللجاج بالطبع، وإليك أيُّها الإنسان العاقل بالخلقة والمتجنّب عن الحوسات بالمُثُل الاكتسابية المتحقّقة في وجودك وعليك أيّتها العائلة البشرية بعد ذاك وذلك بالتأمُّل حقّ التأمُّل والتدبُّر حقّه في هذا الكتاب من هذه الناحية، وأنّه كيف يمكن لبشر في تلك الأزمنة القصيرة المبتلىٰ بتلك المزاحمات الوجودية والمضادّات الخارجية والمعاندات المضبوطة في التأريخ، أن يأتي بمثل هذا الحديث ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً؟!

لست أقول: إنّ سائر الأنظمة البشرية لا تحتوي علىٰ المصالح الفردية والاجتماعية حتىٰ تقول: إنّ كثيراً من الممالك الراقية يعيشون أحسن المعيشة في الأقطار الإسلامية، مع أنّهم بأنفسهم تكفّلوا وضع القوانين وجعل الموادّ والأحكام.

بل أنا أقول: إنّ الإسلام يتمكّن من المحافظة علىٰ سعادات البشر الفردية والاجتماعية، وإنّ الإسلام يحتوي على النظام الخاصّ

ابتكاراً وابتداعاً، وكان سلاطين الإسلام يحكمون بها طيلة الأعوام والقرون ويكون حاوياً لقوانين خاصّة باقية باختلاف الأزمان والدهور، ويتمكّن من المحافظة على النظام اللاّزم في المنزل والبلد والمملكة أبداً، وهل هذا يمكن أن يترشّح من مخ إنسان كسائر الأناسي، ومن فكر بشر كسائر الأفراد، أم كلّ ذلك يكشف عن حقيقة وراء هذه المسائل، هي المدبّرة الناظمة، وهي القوّة الغالبة الملاحظة لجميع الأعوام والملل في جميع الأعصار والأمصار؟

وهذا من عجيب الأمر أنّه ظهر في الحجاز البرّ الفاقد لجميع نشآت الحياة ونشاطات العقل والدرك، موجود أتىٰ بهذا الكتاب لتدبير الممالك والمعيشات الجزئية والكلّية في القرون الآتية الّتي تبلغ فيها الحضارة أعلىٰ درجتها، وتفوق فيها المتمدّنات غاية مأمولها ونهاية رقاها، ويمشي معها مشياً مازجاً. ولعلّ الله يُحدث بعد ذلك ما ينال به الإنسان من سوء تدبيراته في الأنظمة الموجودة؛ سواء فيه الأنظمة الّتي تنتسب إلى الماديّين أو المنتحلين لإحدىٰ الديانات الباطلة في عصر القرآن؛ ولو كانت حقّة في عصور خلت ومضت.

ولهذه المسألة أيضاً مقام آخر لما فيها من الدعاوىٰ المحتاجة إلىٰ البرهان، وهناك تشكيكات يصعب جدّاً حلّها، فلا تخلط.

الوجه الخامس

فصاحة القرآن وبلاغته

من الأمور الّتي تحدّىٰ بها القرآن، بل الأظهر أنّه الوحيد من بينها؛ ولو كان يحتوي علىٰ مجموعة هي توجب انتساب الذكر الكريم

إلىٰ العزيز الحكيم، وإلىٰ الوجود العامّ التامّ فوق التمام بما لا نهاية له عِدَّة ومُدَّة وشِدَّة. وبالجملة من تلك الأُمور: حديث الفصاحة والبلاغة، وقد تصدَّىٰ علماء الإسلام لتوضيح هذه الجهة في الكتب الكلامية، وفي المؤلّفات التفسيرية، وفي مدخل التفاسير، وفي الرسائل المستقلّة بما لا مزيد عليه.

ولَعَمْري إنَّ ما هو عندي عجيب هي الملاحظة الخاصَّة الَّتي روعيت فيه، وهي مطابقة الجمل التركيبية لطباع البشرية؛ من حيث القصر والطول، وهذه هي الجهة الموسيقية الخاصَّة الَّتي لا ينفكُّ منها الكلام المنسجم والتركيب الموزون.

وما اشتهر من: أنَّ في تقديم القرآن وتأخيره جملة على جملة أو كلمة علىٰ كلمة، نظراً معنوياً مطلقاً، وبلاغة وفصاحة خاصَّة مطلقاً، ممَّا لا ترتضيه عقولنا بعدُ، ولو أمكن أن تساعد عليه عقول المتأخِّرين، فإنَّهم أدقّ نظراً من القدماء الأسبقين.

وقد علمت في منهجنا التفسيري ما ينفعك في المقام أحياناً، وذكرنا وجوهاً لتقديم ما أخَّره القرآن وبالعكس، وما تلقَّاه بالقبول علماء الإسلام، فهو لأنَّهم جعلوه أصلاً موضوعيّاً يجب الدفاع عنه، وأنَّه الكتاب الإلٰهي الَّذي يلزم حفظه من كافَّة الجهات.

وهذا عندي من الاشتباه، فإنَّ القرآن يدَّعي أنَّه لا يتمكَّن البشر أن يأتي بمثله؛ أمَّا في خصوص البلاغة، أو بمثله فيها وفي كونه من الأُمّي العربي، أو هما مع كونه محتوياً لجملة من المسائل العالمية؛ العقلية والنفسية والأفعالية والسياسية والاجتماعية.

وعلىٰ كلّ تقدير نجد كثيراً ما أنَّه يراعي أواخر الآيات، حفاظاً

علىٰ القوافي والسجع ورعاية للقصر والطول، ولا ضير أن أذكر في المقام ما يدلّك على هذه المقالة، ولو كان عندي بعض منها موجوداً لما أشرتُ إليه، ولكن لا يورث ذلك نقصاً بساحة القرآن، وقد علمت منّا أنَّ الأحسن منه مقدور بالضرورة، والأفصح والأبلغ منه ممكن قطعاً ذاتاً ووقوعاً، وإنّما الحاجة إلى الإمكان الاستعدادي حتّى يتنزّل إليه من الغيب المطلق إلىٰ الشهادة المطلقة ما يكون مسانخاً لتلك القابلية والإمكان، فعليه لا منع من الالتزام ببعض الزيادات والتقديم والتأخير؛ رعاية لأُسلوب الكلام وزنة الجمل وميزان الطبع والذوق.

بقي شيء: بعض شبه حول فصاحة القرآن وبلاغته:

إنَّ هناك بعض شُبَهٍ لابدَّ من الإشارة إليها وإلىٰ ما هو حلّها عندي، ولعلَّ الله يُحدث بعد ذلك أمراً.

الشُّبهة الأولى: التحدّي بالفصاحة والبلاغة وبكيفيَّة الكلام الخاصَّة به، الّتي لا يعرفها إلاّ الأوحديون من أهل الأدب من العرب، يناسب كون نطاق دعوىٰ النُّبوَّة محصوراً بشبه جزيرة العرب؛ لعدم تمكُّن الآخرين، ولاسيَّما القاطنين في الشرق الأقصىٰ والغرب الأغرب، البعيدين عن لسان العرب بما لا حدّ له عرفاً.

وتوهّم: لزوم السير في العروبة حتّى يتوجَّه الإنسان بلاغة القرآن، سخيف صادر عن المجانين، فما به تحدّىٰ القرآن حسب الاتّفاق، يوجب اختصاصه حكماً بطائفة خاصَّة يفهمون ذلك وينالون البلاغة، وبَعُد القرآن عن مستوىٰ كلماتهم(١).

---

(١) أنظر تفسير الميزان ١: ٥٩ ـ ٦٠.

الشُّبهة الثانية: إنَّ التحدِّي بالفصاحة والبلاغة وتعجيز النَّاس عن الإتيان بمثله في العصر الأوَّل إلى عصرنا هذا لا يكون كافياً لكونه معجزة؛ لإمكان الإتيان بمثله في العصور المستقبلة، ولا دليل ينسدّ به هذا الاحتمال والإمكان، وعندئذٍ لا يمكن الاعتقاد بأنَّه كتاب لا يتمكَّن البشر أن يأتي بمثله، نعم إلىٰ زماننا هذا ما تمكَّن البشر من ذلك، ولكن إمكان تمكُّنه غير مسدود جدّاً.

وقد اتَّفق كثيراً أنَّ مثل شاعر لم يأتِ في برهة من الزَّمان، ثمَّ اتَّفق ذلك فامسخ شعره بأمثاله كثيراً، وقد اشتهر بين أبناء العصر: أنَّ أمثال النابغة وامرىء القيس وسعدي وحافظ وفردوسي و«مثنوي» لم توجد بَعْدُ، ولكن لا يمكن الحكم بامتناع ذلك في العصر الآتي، فعندئذٍ لا يجوز تعليق العقيدة علىٰ مثله، ولا يجوز اتّباعه بمجرَّد عجز أهل مصر في عصر، كما لا يخفىٰ.

وبالجملة: هذا القرآن حسب نظر المسلمين معجزة خالدة، والحكم بالخلود لا يمكن إلاَّ بعد مُضيّ الأزمنة بتمامها، وإذا امتنع الحكم عليه بالخلود امتنع الحكم عليه بأنَّه معجزة من الأوَّل؛ لأنَّ التحدِّي ليس مخصوصاً بزمان دون زمان، فالعجز عن الإتيان بمثله في العصر الأوَّل لا يوجب كونه معجزة من الأوَّل، كما لا يخفىٰ.

الشُّبهة الثالثة: إنَّ في الطبائع العالية من طبيعة الإنسان إلىٰ طبائع النباتات والجمادات، مواضع استثنائية وموارد خاصَّة، مثلاً في طبيعة البشر صفة الشجاعة، وقلَّما توجد هذه الصفة علىٰ وجه الكمال إلاَّ في النوادر، ويسمّون بنوادر التأريخ، فشجعان الفرس والعجم معدودون، وهكذا سائر الأوصاف والإدراكات والاستعدادات، فربَّما يوجد في

العالم امرأة تلد عشراً فهي نادرة عصرها وزمانها من هذه الجهة، وهكذا الأمر في سائر المزايا والخصوصيات المادّية والمعنوية، بل ربَّما توجد في زوايا الحركات العالمية بعض الاستثنائيات الموجبة لتحيّر العلماء المتفنّن.

وربَّما يُقال: إنَّ في القطر الخاصّ تحصل وردة لا تُحاذيها سائر الوردات؛ وذلك لأنَّ في تلك القطعة من الأرض كمالات كسائر القطعات، ولكن في سائر القطعات انتشرت الصفة الكاملة في أفرادها، فأصبحوا متقاربين، وفي ذلك القطر استجمعت في شخص خاصّ، فتكون وردة البرّ أعطر من ورد الجنَّة والحدائق المعدَّة لها.

وبعض الأقطار من قطر إيران مشهور بقلَّة القوَّة الفكرية، وقد استُثني منه فرد وهو من المحقّقين الأعلام، ولولا خوف الهتك والتوهين لأشرنا باسمه الشريف. وبالجملة: ربَّما تُستجمع قوىٰ سائر الأفراد في فرد.

ومن هنا يتوجَّه القارىء إلىٰ الشُّبهة في المسألة، فإنَّ محيط الحجاز كان محيط البربرية والاستعباد ومهبط الخشونة والخيانة وغير ذلك، فأصبح فيه إنسان أمين يخدم البشرية والإنسانية، فيكون من المستثنيات الَّتي لها مشابه في الجملة، فلا معجزة ولا تعجيز، والنوادر التأريخية غير عزيزة، فليكن هو منهم، فلا دلالة علىٰ وجود الغيب، ولا علىٰ تصرُّفه في شبه جزيرة العرب بتنزيل الكتاب السَّماوي، بل كلّ هذه الأُمور مستندة إلىٰ العلل الطبيعية والشرائط المادّية، وإلىٰ الاختلاف في تلك العلل والشرائط.

وأمّا الجواب عن أمثال هذه الشُّبهات بالإجمال:

فإنَّ تعجيز القرآن ـ كما عرفت ـ ليس بمعنىٰ الامتناع الذاتي أو الغيري علىٰ الآخرين؛ لعدم انسداد باب ذلك علىٰ كلّ موجود مصاحب للمادَّة والقوَّة، وقد عرفت بما لا مزيد عليه أنَّ البعثة كما لا تكون بحسب الوجود إلاّ كبعثة الحكماء والأطبَّاء والمخترعين، كذلك لا تكون إلاّ مثلها بحسب سعة الوجود عرضاً وطولاً، وأنَّ سائر الفرق ينبعثون بأنواع البعثات لتنظيم بلاد الإنسان الجزئية والكلّية، وترفيه حال البشر، وتشريح الأمور اللاّزمة في الحياة الفردية المزاجية والاجتماعية، وكذلك الأنبياء ينبعثون لإرشاد العائلة الإنسانية إلىٰ دار الآخرة وإلىٰ أحسن الأساليب في المعيشة الدنيوية، وكما أنَّ طائفة منهم يكون لبعثتهم حدّ محدود ووقت مؤجّل، ولطائفة أُخرى يكون لنظرياتهم الخلود والبقاء والأثر الباقي، كذلك الأنبياء عليهم السلام، والنبي الإسلامي من الأخيرين؛ لأنَّ نطاق كشفه أقوىٰ وأتمّ ودور وصوله ونيله أوسع وأرفع.

فعلىٰ هذا إذا نظرنا إلىٰ هذه المجموعة ـ المُسمَّاة بالقرآن ـ وأخواتها بأساليب خاصَّة ومضامين عالية في تلك الأعصار والأمصار، وفي ذلك الوقت القصير المشغول فيه نبيّ الإسلام بأنواع الاشتغالات والشواغل، وبأقسام الابتلاءات الداخلية والخارجية، يحصل لأهل الضمير والوجدان علم بأنَّ هذا الأمر لا يمكن أن يكون حسب الطاقة العادية والشرائط العامَّة المتعارفة.

فعندئذٍ إن اتَّفق نيل هذه المجموعة فهو، وإلاَّ فعدم نيل الإنسان البعيد عن الساحات الاجتماعية، لا يوجب قصوراً فيها، كما هو

كذلك في سائر الوسائل المستحدثة للمعيشة الأحسن ولنيل السعادة العليا.

ثمَّ إنَّ الجواب عن الشُّبهة الأولى فهو: أنَّ اعتراف المتخصّصين والمتفنّنين في أساليب الكلام والبلاغة، يكفي لذلك، ولا يعتبر أزيد منه، كما هو كذلك في سائر المستحدثات، فإنَّ اعتراف جماعة بأنَّها كذا وكذا، يورث العلم بأنَّ غير العارف بها أعجز منهم وأبعد من الإتيان بمثله.

وأمّا عن الثانية: فَلَعَمْري أنَّها ولو كانت شبهة قويَّة، ولكنَّها تنحلّ بعدم اشتراط إعجازه في بدو نزوله بإحراز عجز البشر الاستقبالي والبلغاء الآتين في الأعصار الآتية، بل هو شرط كونه معجزة خالدة، وإذا ثبت صدقه في أصله يثبت صدقه في خلوده، وهو المطلوب.

وبعبارة أُخرى: صدق مقالته الأوَّلية يثبت بالبرهان، وصدق مقالته الخلودية يثبت بإخباره وإظهاره، فلا ينبغي الخلط، وللمسألة طور آخر، فتدبَّر تعرف.

وأمّا عن الثالثة: فالحقّ ولو كان كذلك بحسب الإجمال في النوادر الاستثنائية، إلاَّ أنَّ الكلام في أنَّ هذه النادرة، هل يعقل أن يكون مبدأ لهذا التحوّل في العالَم، بإتيان هذه المجموعة في هذه الشرائط وتلك الموانع، أم يكون ذلك دليل وجود القدرة الأُخرى الوسيعة، فتكون هذه النُّبوَّة العالمية دليلاً على الغيب والتوحيد، ودليلاً على دخالة الغيب في هذ العالم، ودليلاً علىٰ نبوَّته العامَّة وصدق مقالاته وصحَّة كتابه ومضامينه؛ لاستناده إلىٰ الغيب الواقف علىٰ الأسرار والمجهولات.

وبالجملة: لا نعني من بعثة الأنبياء أمراً خارجاً عن العالم وحركاته الطبيعية والعادية، إلاَّ أنَّ أمثال هذه الحركات تحت شرائط، توجب استناد هذ العالَم إلىٰ القدير المتعال طبعاً، وإلاَّ يلزم أمر علىٰ خلاف الطبيعة، ويلزم معلول بلا علَّة، ويلزم أمر خارج العادة وخارق الطبيعة، فهرباً عن وقوع ذلك لابدَّ من الإقرار باستناده إلىٰ أمر آخر، ومن الاعتراف بأنَّه ﷺ كان يأخذ عن المبادىء الأُخر الموجودة في العالَم، القائم بها أُمور العالَم من قضّها إلى قضيضها.

الوجه السادس

بقاء القرآن علىٰ أُسلوبه ولغاته في الأمصار

من الأمور الَّتي تُعدّ من غرائب القرآن، ومن عجائب محاسن هذه المجموعة الإلٰهيَّة، وهذا المعجون الملكوتي والموسوعة الربَّانيَّة: أنَّه كتاب يمشي في جميع الأمصار باقياً على ابتكاره لا يبلىٰ ولا يندرس أُسلوبه وكيفيَّة تركيبه وبنوده.

ومن الجدير بالذكر احتواؤه علىٰ اللغات المستحدَثة، وأنَّ التمدُّن البشري كلَّما ازداد حضارة ورُقياً في كيفيَّة الإلقاء والإفادة واستعمال اللغات الجديدة، يكون هذا الكتاب متقدِّماً عليها في هذه الجهة، وهادياً لهم إلىٰ طريقة أعلىٰ وأرفع وسجيَّة أحسن وأرقىٰ، فهذا المميَّز أيضاً من مميّزاته ومحسّناته جدّاً، ويحصل للخبير المنصف عند المقارنة بين أدب القرآن وأدب اليوم، ما قرعنا سمعه وأسمعناه.

الوجه السابع

إخبار القرآن بالغيب

من وجوه إعجاز القرآن إخباره عن المغيّبات؛ مثلاً من سورة «تبَّتْ» يتبيَّن أنَّ أبا لهب لا يهتدي ولا زوجته، مع أنَّه كان ينبغي أن يتوجَّه أبو لهب إلىٰ هذه القضيَّة ويعلن إسلامه نظراً إلىٰ تكذيب النَّبيّ ﷺ.

ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَلَن تَفۡعَلُواْ﴾، كما لا يخفىٰ.

ومنه قضية سورة الرُّوم، فإنَّ فيها خبرين عن الغيب ظهر صدقهما بعد بضع سنين.

ومنه ما في سورة الفتح من القضايا الثلاث. وفي سورة البراءة بعض منها.

ومن القضايا العجيبة قضية نزول السجِّيل علىٰ جنود أصحاب الفيل، فإنَّها كانت في عام الفيل حسب التواريخ، وبلا شبهة كان جماعة من المشركين المعاندين مدركين لها حسب أعمارهم؛ لقرب عهدها بعهد نزول هذه السورة، ومع ذلك لم يظهر في التأريخ تكذيب أحد من المشركين والمعاندين، ولم يسجِّل في التأريخ ضجيج المخالفين المنادين بإنكارها، فمنه يعلم أنَّ أمثال هذه القضايا تستند إلىٰ الغيب، وإلىٰ المبادىء الخارجة عن الطبيعة الداخلة فيها والعاملة عملها والمتلوّنة بلونها؛ حتَّى يظنّ الجاهل أنَّه لا شيء وراءها، ويفهم الألمعي ويُدرك وجودها في خباياها وزواياها.

بعد ملاحظة هذه الخصائص في هذه المجموعة: عليك أن تلفت

نظرك إلىٰ تأريخ النَّبيّ الأكرم ﷺ، وإلىٰ جغرافيا شبه جزيرة العرب وإلى الموانع الكثيرة عن تقدّمه ﷺ، وإلىٰ فقد الشرائط الكلّية لتقدّمه ﷺ، وإلى قصر طول أمره ﷺ وهي ثلاثة وعشرون عاماً، وإلىٰ حالاته الخاصَّة، وإلىٰ كونه أُمّياً لا يدري الكتاب ولا الإيمان، وإلىٰ صدق لهجته وصدق مقالته، وإلى أمانته وإلىٰ سلامة نفسه، وإلىٰ رياضاته الشخصية وعبادته الدائمة في غار حراء، وإلىٰ مئات أُمور جزئية أُخرى، فإنَّه بعد اللّتيا والّتي يحصل لك الإيمان بها، وبتلك الموسوعة، ويحصل اليقين به وبالمبادىء الإلٰهيَّة الدخيلة في الطبيعة. ومن هذا البرهان الإنّي، وهو كون هذا الكتاب منه ﷺ غير مستند إلىٰ المبادىء العادية كسائر الأمور، يتبيَّن لك بالبرهان اللّمّي لزوم اجتماع الشرائط الخاصَّة من الأصلاب الشامخة والأرحام المطهَّرة ومن ومن. . . إلىٰ آخره، لظهور هذا الكتاب علىٰ قلبه الشريف، ولاتّصاله بالغيب المطلق، واستمداده ﷺ من جنابه الإلٰهي بالوسائط المجرَّدة الروحية الكلّية.

ويظهر: أنَّ هذه الشرائط إذا انضمّ إليها ارتفاع الموانع، تنتهي إلىٰ ذلك وإلىٰ أحسن منه في كلّ جولة وملّة، وفي كلّ برهة وزمان؛ من غير عناية خاصَّة من ناحية الفاعل، فإنَّ فيض الفيَّاض علىٰ الإطلاق عامّ ومطلق، ورحمته الرَّحيميَّة والرَّحمانيَّة مطلقة وشاملة، وإنَّما الاختلاف في ناحية الاستعدادات والإمكانات المنتهية إلى الاختيارات في طول الدَّهر وطيلة الحياة ولذلك ادّعي الإجماع على أنَّ جميع آباء النَّبيّ ﷺ كانوا مطهَّرين من الأدناس والأخباث[1]، وما

(١) راجع بحار الأنوار ١٥: ١١٧/٦٣، ومجمع البيان ٤: ٣٢٢.

ذلك إلاّ لأجل أنّ ظهور الجلوة المطلقة الأحدية الإلٰهيّة، لا يمكن إلاّ للقلب الكذائي، كما لا يتمكّن منها إلاّ القلب الكذائي، وإليه يشير قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾(١) وهذه المسائل لها أبواب أُخر، ولها أهل يختصّون بها، ولا يدركها إلاّ الأوحدي، ولا ينالها إلاّ من أتىٰ الله بقلب سليم.

الوجه الثامن
تكرار القصص بأساليب متعدّدة

ومن وجوه إعجاز القرآن: أنّ في هذا الكتاب السّماوي، قد تكرّرت القصّة الواحدة أكثر من خمسين مرّة، ومنها قصّة موسى وإبراهيم وآدم، وربّما يكون النظر في تكرار هذه القصص ـ مضافاً إلىٰ إفادات خاصّة في تكرارها ـ إلىٰ أنّ الإتيان بمثله يمكن للقرآن، فيأتي بمثلها مرّة ثانية، ثمّ بعد ذلك يتوهّم ويذهب الواهم إلىٰ عدم كفاية الألفاظ والتراكيب لإتيان مثله حتّى للقرآن، فيأتي به ثالثة ورابعة، ثمّ بعد ذلك يذهب ذهنه إلى القطع بامتناعه عليه، فضلاً عن غيره، فيأتي بالعاشرة والعشرين، ويمهلهم أن يأتوا بمثله، ومع ذلك يعلن أنّهم لن يفعلوا وما فعلوه أبداً، ثمّ بعد ذلك الإعلان يأتي للمرّة الثلاثين والأربعين.

وهذا يُشعر بأنّه لو كان لنبيّ الإسلام عمر ومدّة في هذه النشأة، كان ينزل عليه مرّات أُخر بأساليب مختلفة وكيفيّات خاصّة، علىٰ نهج مخصوص به لا يشاركه فيه غيره، متميّزاً عن سائر التراكيب والجمل في جميع هذه الأمثال الّتي أتىٰ بها القرآن، ولم يأتِ بها غيره، فافهم واغتنم.

---

(١) الحشر (٥٩): ٢١.

الوجه التاسع

عدم اشتماله على المحتملات

ومن الخواصّ أنَّ الكتب المتعارفة المدوّنة في العصور السابقة إلىٰ هذه العصور مشتملة على المحتملات وعلىٰ أنَّ مؤلّفه عاجز عن فهم المسألة، ويكون جاهلاً بمغزىٰ البحث والكلام، فيكون في الكلام نوع اغتشاش واضطراب جهلاً بالأمر أو مصرّحاً به، وهذا التأليف الملكوتي والمعجون الإلٰهي يفقد ذلك جدّاً. وتكون أحكامها بتّيّة واضحة غير مضطربة، لا يشعر بجهل مؤلّفه ومصنّفه، ولا إلىٰ عجز صاحبه عن إدراك المسألة ونيل حقيقتها.

الوجه العاشر

اشتماله على القانون والهداية

من اللطائف الّتي تشتمل عليها هذه الموسوعة الإلٰهية: أنَّ المتعارف في سائر الدساتير القانونية ليس إلاّ ضبط الموادّ وأُصول القانون وقيودها، ولكن هذا في مقام جعل القانون يتصدّىٰ لهداية البشر؛ من جانب التلطيف وذكر أُصول الخير والسعادة الدنيوية والأُخروية وفي نفس ضرب قانون الصوم ـ مثلاً ـ بقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾[1] يُرشد الآمر إلىٰ أنَّ الصوم خير لكم.

ثمَّ أيضاً يشتمل علىٰ خصائص العمل بالقانون، فيكون مضافاً إلىٰ ضرب القانون وبسطه يضمن العمل به والتحقيق العملي بالنسبة إليه

(١) البقرة (٢): ١٨٣.

بتنفيذه وتطبيقه في الخارج؛ حتّىٰ يكونوا متّقين صالحين راشدين، وغير ذلك من خواصّ القوانين المذكورة في طيّها، فلا يكون كتاب متجمّد فيه القوانين بل فيه الترغيب إلى روح القانون والمقصود الرئيسي منه، وهو تشكيل المدينة الفاضلة الاجتماعية والفردية، وهذا من المميّزات المخصوص بها هذا المعجون أيضاً، ويكون هو مبتكراً فيه ونعم الابتكار، أو رُوعي فيه هذا المعنىٰ ونعمة الرعاية اللازمة جدّاً.

الوجه الحادي عشر

حول خلوص القرآن عن المضاذة

ممّا عدّ من وجوه الإعجاز وصنائع البلاغة، خلوص الكتاب عن النّقاض والمضادّة، وخلوّه عن المنافرة في الأحكام والمناقضة في الآراء، ويفقد المكاذبة في الأنظار، بخلاف سائر الكتب.

أقول: في هذا الوجه خصوصاً، وفي كثير من الوجوه السابقة، أنظار وخطورات غير خفيّة على أرباب التحقيق وأصحاب التدقيق، مثلاً إنكار المناقضة للمعتقدين بالقرآن غير قابل للتصديق؛ لأنّ الدفاع عن أُصول العقائد حقّ كلّ ملّة ونحلة. وتكذيب المناقضة خاصّة كلّ ذي صلاحية ونظر، ولكن الأنظار في هذه الساحة وهذا الميدان مشوبة مضطربة؛ غير خالية عن التأثيرات العصبية والقومية والدينية، كما أنّ توجيه المكاذبة والمناقضة من المعاندين أيضاً دأب كلّ إنسان معاند، وأنّه ولو كانت عين الرّضا متّهمة ولكن عين السخط لا تخلو عنها إن لم تكن أولىٰ ولذلك لا يمكن حلّ هذه المشاكل.

نعم لو كان في القرآن اختلاف أدركه المسلمون، لكان ذلك

موجباً للضجَّة العامَّة بين الملل الإسلامية حتَّى يلتزموا بالزيادة فيه، فمنه يعلم أنَّ المناقضات نظرية ليست واضحة، ولكن المنافرات في الأحكام فهي محمولة علىٰ النَّسخ، وهذا فرار من التكاذب، إلاَّ أنَّه كان متعارفاً يُحمل في القوانين البشرية علىٰ قصور التفنين أحياناً وفي الكتاب الحكيم علىٰ حدود الاقتضاءات.

ولكن الشأن في إنكار بعض المسلمين ـ والشيعة ـ وجود النَّسخ في القرآن كلاً مدَّعياً: أنَّ في الآيات خصوصية، وليست هي منسوخة مطلقاً، والتفصيل في محلّ آخر، ومن المحتمل أن يكون قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾[1] مُشعراً ببعض الاختلاف الَّذي لا يتمكَّن البشر العادي من حلّه، ولكن الغيب يمنع ويصرف الأذهان العادية عن إدراك ذلك الاختلاف.

وبالجملة: مجموعة من الوجوه المذكورة في الكتب المفصَّلة، وطائفة من الوجوه الَّتي أشرنا إليها، قابلة للمنع أو المناقشة، أو حصول الشركة بينه وبين الكتب الأُخر أو الكتب السَّماويَّة السابقة، فيكون عنها مأخوذاً، ولكن المنصف المتدبّر في الجهات اللاحقة والمشار إليها فيما سبق؛ بضميمة الوجوه واعتبارات الإعجاز بأجمعها ينال أنَّ للغيب قدماً راسخاً في هذه الموسوعة، وأنَّ قانون العلَّة والمعلول يقضي بوجود المبادىء الأُخر، اللازمة لتأليفه وتصنيفه وتبويبه وترتيبه، ولو كانت المبادىء الطبيعية دخيلة دون العلل المختفية تحتها وفي ظلّها، لم يكن هذا المعجون كالنُّور المتلألىء نهاراً؛ دليلاً

(١) النِّساء (٤): ٨٢.

هادياً لأنحاء الطوائف البشرية إلىٰ قمّة السعادة وذِرْوة المُثُل الإنسانية، والله من ورائه محيط.

الوجه الثاني عشر

كونه تبياناً لكلِّ شيء

ومن الخصائص الّتي يحتوي عليها الكتاب المبين والقرآن المستبين: أنّه تبيان لكلِّ شيء، فيكون تبياناً لنفسه بالأولوية القطعية.

أمّا تبيان كلّ شيء فهو ممّا لا يُدرَك، ولا يعلمه إلاّ الله ومن أتىٰ الله بقلبٍ سليم، وهم أهل القرآن النازل في بيوتهم، الّتي أذِن الله أن تُرفع ويُذكر فيها اسم الله.

وأمّا تبيان نفسه فقد تصدّىٰ من السلف والخلف لمراجعة مشكلات القرآن بنفس القرآن وإلىٰ ذاته لحلّ معضلاته؛ مثلاً: اختلاف المفسّرين في أنّ «الصّراط المستقيم» في قوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ ينحلّ بمراجعة القرآن؛ حيث قال في سورة الشورىٰ: ﴿...وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾[١]. وهكذا، فقس عليه اللغات والتراكيب أو الموضوعات المحتاج تفصيلها إلىٰ مراجعة التفاسير المدّعىٰ فيها تفسير القرآن بالقرآن.

(١) الشورىٰ (٤٢): ٥٢ ـ ٥٣.

الوجه الثالث عشر

اشتماله علىٰ التعابير العرفية والاصطلاحات

ومن خصوصيَّات هذا السِّفر القيِّم والنُّور الدَّائم والفرقان العظيم والقِسْطاس المستقيم: أنَّه مضافاً إلىٰ احتوائه علىٰ العربيّ المبين، وعلى اللغات العامّية الرائج استعمالها والمتعارف في عصره ومصره؛ عربية كانت، أو مستعربة من الفارس أو الحبشة أو الهند أو الترك أو اليونان أو غير ذلك، فإنَّ في اتّخاذ هذا السبيل ملاحةً خاصَّة، وتقريباً من الأفهام الأوَّلية، وتوطئة للهداية إلىٰ المسائل العالية؛ البعيدة عن الأفهام الراقية والأفكار العميقة، يكون حسب ما أظنّ محتوياً علىٰ الاصطلاحات ويحتاج إلىٰ التدبُّر جدّاً والتأمُّل كثيراً؛ حتَّى يستخرج من خلاله ما هو المراد من المصطلحات.

وبالجملة: كلَّما يكون في سائر الكتب اصطلاح خاصّ يعرفه أهلها، ولا يتوجَّه إليها إلاَّ من استخدم العلم بما لا مزيد عليه، ويجيء الملاحظ المتأخّر، فيجد مواقف سقوطه ومحالّ اشتباهه، وينادي بأعلىٰ صوته: عذري منه جهلي.

وبالجملة: يجوز أن يكون «الشرقية» و«الشرق» في القرآن رمزاً إلىٰ المعنويات، و«الغربية» و«الغرب» اصطلاحاً للمادّيات، فإذا قرأنا قوله تعالى: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾[1] يخطر بالبال: أنَّ المراد هو الحدّ الوسط وإذا قرأنا قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ﴾[2]، وقوله: ﴿إِذِ

---

(١) النُّور (٢٤): ٣٥.

(٢) القصص (٢٨): ٤٤.

﴿انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾[1]، نظنُّ فيهما ذلك الأمر، وإذا راجعنا تاريخ حياة الأنبياء نجدهم أنَّهم من الشرق، وإذا راجعنا تاريخ علماء الطبيعة والمادَّة والمخترعين نجدهم غربيِّين، فربَّما تكون لانعكاسات الشَّمس وارتعاشات الكرات والأرض، دخالة في هذا الأمر وذاك.

ومن هنا يخطر ببالنا: أنَّ حديث بعثة الأنبياء ليس حديثاً خارجاً عن حديث بعثة المخترعين وسائر البعثات، وأنَّ الكلّ مبعوثون في وجه من قِبَل الغيب، وفي وجه من دخالة الشرائط المادّية والمقتضيات المحلّية والقطرية، ونصل بعد ذلك إلىٰ سلف منّا في المباحث السابقة، ويتأكّد ذلك البحث بما أُشير إليه جدّاً.

فلو كان نزول الوحي من السَّماء بلا اقتضاء من قِبَل الإنسان الأرضي، لكان أن يتنزل في أرض أمريكا والأرجنتين والبلاد النائية الأوروبية وأستراليا، ولكان ذلك لازماً في كلّ عصر وكلّ مصر، ولا يكون لآخرهم الختم والخاتمة؛ لاحتياج البشر ـ في جميع الأحيان والأزمان ـ إلىٰ الإمدادات الغيبية والرُّسل الإلٰهيَّة، ولكان في ترك ذلك ظُلمٌ وجَورٌ في حقّ الجماعة الجاهلين والثلَّة العاجزين عن إدراك المبادىء والحقائق، فكلّ هذه المسائل تشهد علىٰ أنَّ المسألة ليست جُزافية. وتفصيله يطلب من قواعدنا العقلية والحكمية، ومن هنا تنحلّ مشكلة الخاتمية ومُعضلة انقراض عصر النُّبوَّة والوحي، كما لا يخفى.

وبالجملة: من المحتمل أن تكون كلمة الأمر رمزاً إلىٰ الوجودات المفارقة، وكلمة الخلق رمزاً إلىٰ الوجود المادّي والمقارن مع المادَّة،

---

(١) مريم (١٩): ١٦.

فإذا قرأنا قوله تعالىٰ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾(١) نشعر منه أنَّ الأمر من قبيل الخلق، ويكون في قباله. وإذا قرأنا قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾(٢)، يخطر بالبال: أنَّ في الآية جواباً عن حقيقة الرُّوح... وهكذا.

وعلىٰ كلّ تقدير لابدَّ من الفحص في القرآن حتَّىٰ يتبيَّن هذه الحقيقة، ويظهر صدق هذه المقالة أو كذبها؛ فإنَّ في صورة كشف هذا الأمر يتبيَّن كثير من المسائل الإلٰهيَّة والتفسيرية.

الوجه الرابع عشر

ابتكار القرآن في بعض العلوم

من مزايا ومحاسن هذا المختصر الملكوتي والنموذج اللاهوتي: أنَّه مبدأ للتحوّلات الكثيرة، ومنشأ الانقلابات في الفنون الخاصَّة قاطبة.

مثلاً من التحوُّلات: حكاية القصص الماضية والأخبار الخالية عن الأُمم السابقة مذيّلاً ذلك بالإنذار والتبشير، وموجِّهاً قرَّاءه الكرام إلىٰ الاستفادات الخاصَّة والتنبّهات الإنسانية، فإنَّ مجرَّد نقل حكاية السلف وقصص السابقين غير جائز في شريعة عقل البشر، وقد اشتهر ذلك في عصور ما بعد عصر القرآن، وفي طليعتهم في الشعر والنثر جماعة من المسلمين، كالمولوي وناصر خسروا ومنهم استفاد أحياناً سائر الملل.

---

(١) الأعراف (٧): ٥٤.

(٢) الإسراء (١٧): ٨٥.

ومن ذاك: المقاولة مع الحيوانات وإسناد المنطق والكلام إليها، ونقل بعض القصص عنها، فإنَّ ابتكار هذا الأمر أيضاً بيد القرآن، ولو كان بعض كُتب الأقدمين ـ حسب ما قيل ـ مثل كتاب «كَلِيلة ودِمْنة»، ولكنَّه غير واضح تقدُّمه على الإسلام.

وبالجملة: شاع ذلك في عصورنا، وكان في الشرق اشتهر جدّاً ويكون ذلك مبدئية هذا الكتاب السَّماوي.

ومنها: تحرير المقامات، فإنَّ أمثال الحريري وبديع الزَّمان الهمداني، أتوا بطائفة من الكلام نثراً؛ نظراً إلى سهولة الأمر على طلاَّب اللغة، وابتكار هذا أيضاً على عاتق القرآن العظيم؛ ملحوظاً فيه ـ مضافاً إلى احتوائه على اللغات الكثيرة، الَّتي قلَّما يوجد شخص يعرف تمام لغة القرآن ـ أنَّه مشتمل على المصالح الإنسانية والأحكام الأخلاقية والإرشادات والتوجيهات، ولا يكون مجرَّد القصة المختَلَقة والحديث المشبوه.

وفي طليعة هؤلاء الجماعة أئمَّتنا المعصومون ـ عليهم الصلاة والسلام ـ حيث فتحوا باب الدُّعاء مع قاضي الحوائج ومعطي السُّؤُلات، فإنَّ هذه الأدعية الموجودة عندنا مقامات العبد عند الرَّبّ، مع احتوائها على المسائل العالية الإسلامية والربوبيَّة والأخلاقية والاجتماعية، مع ما فيها من اللّغات المُشكِلة والتراكيب المختلفة.

ومنها: أنَّ تدوين القوانين والدساتير في مختلف البلاد الإسلامية اسماً وغير الإسلامية، نشأ عن هذا التدوين والدستور، ولم يكن معهوداً في العصور السابقة عليه ذلك بالضرورة، وقد استفادوا منه كثيراً من المسائل في سَنّ القوانين، ومن يتدبَّر في سائر الدساتير

يتمكَّن من نيل ما أشرنا إليه، وفي ذهني أنَّه قد صنع بعض علمائنا رسالة واسعة تشير إلىٰ ذلك.

وبالجملة: هذا الدستور أوَّل دستور حيّ بين البشر معمول به في الجملة، ونستعين الله أن يوفِّقنا علىٰ تطبيق كافَّة قوانينه وأحكامه.

ومنها: أنَّ تدوين كافَّة العلوم الإسلامية، كالفقه والأُصول والأخلاق والفنون الأدبية كاللغة والصرف والنحو والبلاغة وغيرها، كلّها مستمدّة من نور هذه المائدة السَّماويَّة، والميثاق الإلٰهي، وكلّها ناشيء عنه بشهادة الوجدان والتاريخ.

وأمَّا ما قد يُقال: إنَّ الابتكارات الطبيعية حصلت من الآيات الإلٰهيَّة والقرآن الكريم، فهو من الجُزَاف جدّاً، ولا ينبغي للقرآن ذلك، فإنَّ القرآن يعرف نفسه ويُعلن خاصَّته، ويُظهر ويُعرب عمَّا هو عليه من المعنويات، ولو كانت الآيات رمز تلك المسائل، ولكن هذا العرض العريض المشهود في العصر في ناحية الاختراعات والحضارة الأُوروبية، ليس مستنداً إليه بالقطع واليقين.

فما صنعه بعض المفسّرين في العصر الأخير[1]؛ ظنّاً أنَّ الأمر كذلك، ومستشعراً من الآيات بعض الحوادث اليومية والمصنوعات الجديدة، خالٍ عن التحصيل جدّاً.

ومن الغريب توهّمه أنَّ مخترع الطيَّارة انتقل من قوله تعالىٰ: ﴿أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـٰذَا الْغُرَابِ﴾[2] إلىٰ إمكان ذلك، مع أنَّ ذيل

(١) راجع الجواهر في تفسير القرآن الكريم، الطنطاوي ٣: ١٧٣ ـ ١٧٩.
(٢) المائدة (٥): ٣١.

الآية يكون هكذا: ﴿فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ﴾ هذا مع عدم اطّلاعه علىٰ أنّ الاختراع ليس إلاّ لمبادىء اتّفاقية، وقلّما يتّفق للمخترع توجيه النظر إلىٰ ابتكار شيء واختراع صفة وتفصيله في محلّ آخر.

الوجه الخامس عشر

اشتمال القرآن علىٰ الفنون الكثيرة

ومن عجائب القرآن، ومن أهمّ خصائص هذا الكتاب المنير والحبر المستنير: احتواء آياته علىٰ المسائل المختلفة، واشتمال جمله علىٰ الفنون الكثيرة، ومن يراجع تفسيرنا يجد صدق ما ادّعيناه، فإنّه كثيراً ما نستنبط من الآية الواحدة مسائل فقهية وأُصولية وفلسفية وعرفانية وكلامية وأدبيّة، وكلّ ذلك مع كونها قصيرة جدّاً، فربّما يكون في تقديم الحروف والأدوات وفي انتخابها، وتقديم الجمل بعضها علىٰ بعض وتأخيرها، إشارات وتنبيهات كثيرة، فالآية الواحدة الّتي ربّما لا يزيد عدد كلماتها علىٰ خمسين، كآية الكرسي وآية النّور، يحتاج فهمها إلىٰ بسط الموضوعات الكثيرة، وقد ألّف صدر الحكمة المتعالية رسالة خاصّة في هذه الآية تبلغ مائة صفحة كبيرة.

نعم هم خارجون ـ كما أشرنا إليه سابقاً ـ عن مفاد الآية والدلالات إلىٰ ماهو أجنبيّ عنها جدّاً، ولكن نحن مع تمام الدقّة ونهاية التحقيق، حاولنا أن لا نخرج عنها، ولكن مع ذلك نستنبط من الآية الواحدة مسائل كثيرة ـ كلّية وجزئية ـ في الفنون المختلفة، وهل هذا إلاّ إعجاب وإعجاز؟! فلا تكن من المعاندين الغافلين.

حول كون الكتاب هدًى للمتّقين

ربَّما تُشعر هذه الآية الكريمة بقوله: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ باعتبار السّنْخيَّة بين الهادي والمهتدي، فإنَّه إذا كان الإنسان من المتَّقين واقعاً، وكان متصوِّراً بصورة نازلة من التقوىٰ بالدرجة الدُّنيا منها، فهو من الهداية طبعاً ويُعدّ من المهتدين، فلابدَّ وأن تُحمل الآية الشريفة علىٰ أنَّ ذلك الكتاب الَّذي لا ريب فيه هدًى بالنسبة إلىٰ المهتدين، فيخرجهم من النُّورانيَّة الضعيفة إلىٰ النُّورانيَّة الأقوىٰ، وهو خلاف التحقيق من أنَّه نور من الضلالة في جميع مراتبها، مع أنَّ في ذلك نوع شبهة تخطر ببال الناقصين، كما لا يخفىٰ.

وإذاً إمَّا يكون هدًى للضالِّين فهو أيضاً غير مطلوب؛ لصراحته في خلافه، بل لا يعقل كونه هداية للضالِّين المتصوِّرين بصورة الضلالة الآية عن قبول الهداية: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾[1].

فعلىٰ هذا تبقىٰ الطائفة الثالثة الَّذين استعدّوا للاهتداء والاتّقاء والتصوُّر بصورة التقوىٰ والهداية، فهم بما أنَّهم جامعون للشرائط اللاَّزمة وطاردون للموانع والعوائق الموجودة برفض الخبائث والرذائل يُعدّون من المتَّقين، ويكون الكتاب هداية لهم، فهذه الآية الكريمة

(١) الأعراف (٧): ١٧٩.

كأنَّها تشير إلىٰ اعتبار السّنخيَّة بين من يهتدي بهدىٰ الكتاب، وبين الهداية الجائية من قبله، ولا تشمل العناية الإلٰهيَّة الخاصَّة إلاَّ الطائفة الخاصَّة.

وبالجملة: القوىٰ والاستعدادات الموجودة في الطبائع: إمَّا تصوَّرت بالصور الشيطانيَّة والسبعيَّة والبهيميَّة، فهي خارجة عن إمكان الاهتداء بُهدىٰ الكتاب، وإمَّا تكون باقية قابلة لأن يُعدّ من المتَّقين، فهو من المهتدين بُهدىٰ الكتاب المبين إن شاء الله تعالىٰ.

حول كون القرآن وحياً أو نازلاً

ربّما تُشعر هذه الآية[١] الشريفة بمسألة عقليّة: وهي أنّ الإنسان والنّبيّ الأعظم الإلٰهي، بعد الاتّصال بالغيب في الأسفار المعنويّة، وبعد العود من السفر الثالث والتحقُّق بالسفر الرابع ـ حسب ما تقرَّر في سورة الفاتحة كيفيَّة تلك الأسفار[٢] ـ يكون القرآن بحسب الحقيقة والرقيقة نازلاً عليه بتوسّط الأمين الإلٰهي، وحيث هو ﷺ في تلك اللحظة والحالة، تختلف نسبته إلىٰ الأشياء حضوراً وغياباً، يصحّ أن يترنّم بقوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ بنحو الغيبة؛ إذ لا يُعقل الغيبة والحضور بالنسبة إلىٰ الحضرة الربوبيَّة، ولكنَّه بالنسبة إليه في تلك النشأة الملكوتيَّة ممكنة، فتلك الألفاظ والتراكيب المُسمَّاة بالكتاب والقرآن نازلة تلك الحقائق ومتحدِّدة ومحدودة بتلك التراكيب بتوسّط الحقيقة الأحمديّة في مرتبة من مراتب بشريّته. فيكون ما اشتهر من أنّ هذه التراكيب وحي وإيحاء في غير محلّه، بل ماهو الوحي أمر، وما هو نازل هذا الوحي في أُفُق الإنسان والإمكان أمر آخر، والله الواقف علىٰ أسرار آياته.

---

(١) الآية الثانية من سورة البقرة.

(٢) راجع الفاتحة: الآية ٦ و٧، علم الأسماء والعرفان.

وبالجملة: من استعمال أمثال هذه الكلمات، يمكن ـ بنحو الكلّي ـ استكشاف هذه المسألة العويصة العلميَّة، والله الهادي إلىٰ الصواب.

حول كون الكتاب هو الهدى (القوس الصعودي والحركة المعنويّة)

ربَّما يُشعر حمل الهدىٰ علىٰ الكتاب ودعوىٰ أنَّ الكتاب هو الهدىٰ بأنَّ هداية كلّ شيء بالكتاب، وهداية الكتاب بنفس ذاته، وأنَّ عنوان الهداية ينتزع من الكتاب، ويكون خارج المحمول له، لا المحمول بالضميمة، ويكون بينهما التساوق لا الترادف، فكما يصحّ حمل الوجود علىٰ الوحدة، والنُّور علىٰ الكتاب، كذلك يصحّ حمل الهداية؛ لأنَّها هو حقيقة وإن اختلفا مفهوماً وعنواناً، وهذا لأجل أنَّ كلّ ما بالعرض لابدَّ وأن ينتهي إلىٰ ما بالذات، وإلاَّ لتسلسل، فما هو به هداية الأشياء هو الكتاب، ولكن الكتاب هداية بنفس ذاته، فيصحّ الحمل الهو هو؛ حسب ما اصطلحوا عليه في الكتب العقليَّة.

ومن هنا يتَّجه أن يُقال: إنَّ ما هو الهداية بالذات لو كان نفس هذه الخطوط والنقوش ـ المسطورة علىٰ صفحات من القراطيس ـ لما كان الحمل المزبور في محلّه إلاَّ عند طائفة خاصَّة، كما أشرنا إليه في البحوث السابقة.

فما هو الكتاب الَّذي هو نفس الهداية، ويصحّ نفي الريب المطلق عنه، لابدَّ وأن يكون طوراً آخر من الكتاب، وكثيراً ما

يستكشف خصوصيَّة الموضوع من الأحكام الخاصَّة المترتّبة عليه، فما هو مورد نفي الريب على الإطلاق، ومورد حمل الهداية عليه أمر آخر وراء هذه المكتوبات المسطورة والمرسومات بالأقلام.

وإلىٰ ذلك الأمر يُشير بعض رواياتنا، مثل ما في تفسير القمّي بإسناده عن جابر، عن الباقر عليه السلام، قلت: «قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾؟ قال: الكتاب أمير المؤمنين ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ لا شكّ فيه أنّه إمام»، وعنه مسنداً عن أبي بصير، عن الصَّادق عليه السلام: «الكتاب عليّ لا شكّ فيه هدًى للمتَّقين...»[1] الحديث.

أنظر كيف يُجمع بين هذا وبين ما ورد عن أهل البيت في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۝١٢﴾ هو أنّه كان «إنّ عليّاً للْهدىٰ»[2]، وعن «الكنز» مسنداً عن جابر، عن الصَّادق في حديث: «وأمّا قوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۝١٢﴾[3] يعني أنَّ عليّاً هو الهدىٰ»[4].

وإن شئت قلت: إنّ علينا لَلْهدىٰ؛ بإضافة «عليّ» إلىٰ الضمير، كما في قولك: مررت بأحمدكم، وكونه صلوات الله تعالىٰ عليه الكتاب، نظير كون عيسىٰ ـ علىٰ نبيّنا وآله وعليه السلام ـ كلمة الله، كما صرَّح به الكتاب في سورة النِّساء[5].

---

(١) راجع تفسير القمّي ١: ٣٠.
(٢) راجع تفسير فرات الكوفي: ٢١٤.
(٣) اللّيل (٩٢): ١٢.
(٤) بحار الأنوار ٢٤: ٣٩٨/ ١٢٠، وقد نقل عن «كنز» وهو رمز لتأويل الآيات الظاهرة أيضاً: ص٧٨١.
(٥) النّساء (٤): ١٧١.

إذا تبيَّن لك هذا الأمر: وتبيّن من قبل أنَّ المراد من المتَّقين هو العموم الأفرادي الاستغراقي، وأنَّ التقوىٰ لا تختصّ بطائفة دون طائفة، فإنَّ المجرّدات الأمريَّة أيضاً من المتَّقين، وهم أهل التقوى من أن ينظروا إلىٰ أنانيّتهم ووجودهم مقابل الوجود الحقيقي، فهم منزَّهون ومتَّقون عن الظهور والتجلّي زائداً على تجلّياته تعالىٰ.

وجودُكَ ذنبٌ لا يُقاسُ بهِ ذنب

فيجتنبون عن مثل هذا الذنب العظيم، ويتَّقون ويهتدون بهداية الله، الَّذي هو في القوس الصعودي عليّ عليه السلام والإنسان الكامل، الَّذي هو باطن رسول الله صلى الله عليه وآله.

فمن هذه الآية[١] يُستفاد لزوم كون الإنسان الكامل في القوس الصعودي وفي الحركة المعنويَّة، بالغاً إلىٰ مبدأ القوس النزولي حتَّى تتمّ دائرة الوجود، ولا يلزم التكرار في التجلّي علىٰ حسب ما تقرّر في محلّه من: أنَّ الموجودات المتحرّكة بالحركات الذاتيَّة لا تنتهي حركتها إلاَّ بعد الوصول إلىٰ عزّ القدس، وإلىٰ التلبُّس باكتساء اللباس الوجوبي الباقي ببقائه تعالىٰ[٢].

وبالجملة: تحصّل أنَّ الآية الشريفة وإن كانت ـ حسب الآيات الأُخر ـ ناظرة إلىٰ المتَّقين في هذه النشأة، ولكن بحسب النظر الدقيق ربَّما ينتهي معناها إلىٰ ما أفدناه، مع أنَّ مفاد الآيات الأُخر لا يقصر

---

(١) الآية الثانية من سورة البقرة.

(٢) راجع الأسفار ٢: ٢٦٧ ـ ٢٨٥ و٧: ١٤٨ ـ ١٦٨ و٩: ٢٤٣ ـ ٢٧٣.

عن شمول الموجودات الأمريَّة، ولو كان يفسِّر القرآن بعضه بعضاً، فيكون المتَّقون هم المؤمنون بالغيب. . . إلىٰ آخر الآيات، ولكن عموم الآية الأُولى لا يُفسَّر بها، كما لا يخفىٰ.

إن قلت: ليس التقوى إلاّ الاجتناب عمَّا حرَّم الله تعالىٰ أو يُعدّ مورد الشُبهة، وهذا هو المقصود منه في الشرائع.

قلت: كلا، فإنَّ التقوى: تارة تُنسب إليه تعالىٰ، ويُقال: ﴿أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾، فيكون المراد منه أنَّه يليق بأن يُتَّقىٰ منه دون غيره، وله تفسير آخر ربَّما يأتي ـ إن شاء الله تعالىٰ ـ في محلّه.

وأُخرى تُنسب إلىٰ الخلق من الله تعالىٰ أو من سَخَطه بالنسبة إلىٰ المحرّمات والمشتبهات، فالمراد منه التحفُّظ عمَّا يُنافي أو يضرُّ بحصول الكمالات أو بالكمالات الحاصلة الإنسانيَّة، ولها عند هذا الإطلاق مراتب عديدة؛ بعضها قبل الإسلام، وبعضها بعد الإسلام وقبل الإيمان، وبعضها بعد الإيمان بمراتبها المنتهية إلىٰ الفناء التامّ الذاتيّ.

فأُولىٰ مراتبها: الانزجار عن مساوىء النَّفس ودواعيها النافية للعاقلة، وهي مقام الاستغفار.

وثانيتها: الانصراف عنها وطلب الخلاص منها بالفرار، وهي مقام التوبة.

وثالثتها: الرجوع إلىٰ الهداية الحقيقيَّة والإنسان الكامل الَّذي هو خليفة الله تعالىٰ، وهي مقام الإنابة.

وهذه الثلاثة مقدّمة على الإسلام، ولعلّ إليها يُشير الكتاب العزيز بقوله: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾(١)، ويقول في موضع آخر: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ﴾(٢).

فإذا أسلم الإنسان على يد النّبيّ ﷺ أو خليفته، وقَبِل منه أحكامه القالَبيَّة من أوامره ونواهيه، حصل له مرتبة رابعة من التقوىٰ، الّتي هي التحفُّظ عن مخالفة قوله بامتثال أوامره ونواهيه.

والخامسة: الانزجار عن الوقوف علىٰ ظواهر الشرائع بطلب البواطن وروحها، وطلب من يدلُّه علىٰ تلك البواطن، وهاتان بعد الإسلام وقبل الإيمان.

وهذه التقوىٰ هي تقوىٰ العوامّ، وتنقسم باعتبار إلىٰ تقوىٰ العوامّ من الحرام، وتقوىٰ الخواصّ من الشُّبهات، وتقوىٰ الأخصّين من المباحات.

وإذا وجد الطالب من يدلُّه علىٰ روح الأعمال، وتاب علىٰ يده توبة خاصَّة، وآمن بالبيعة الخاصَّة الولويَّة، واستبصر بباطنه من الرذائل والخصال، حصل له المرتبة الأُخرىٰ من التقوىٰ، وهي التحفُّظ من الرذائل باستكمال الخِصال، وإذا تطهَّر قلبه من الرذائل وتحلَّىٰ بحلية الفضائل، فربَّما تجلّىٰ له الشَّيطان، فيرىٰ أنَّ تلك الأفعال والأعمال المنتهية إلىٰ هذه الفضائل والخصال، حصلت من نفسه لنفسه وتكون هي حاصلة من قِبَل جِدّه واجتهاده.

---

(١) هود (١١): ٥٢.

(٢) الزُّمر (٣٩): ٥٤.

وعند ذلك فلابدَّ من المرتبة الأُخرى من التقوىٰ، وهي التحفُّظ من الشرك الأفعالي والصفاتي؛ إلىٰ أن تنتهي التقوىٰ إلىٰ المرتبة الأخيرة، وهي التحفُّظ من الشرك الذاتي، فافهم وتدرس، وكن علىٰ بصيرة من أمرك.

كتاب الله هدًى للمتَّقين

لا شبهة عند أهله في إفادة الجمع المحلّىٰ بالألف واللام للعموم الاستغراقي، فهو هداية لعموم المتَّقين.

ولو استشكلنا في هذه المسألة، كما قرَّرناه في الأُصول، وذكرنا هناك احتياج العمومات في الإفادة المزبورة إلىٰ مقدّمات الإطلاق[١]، ولكنَّه هنا يثبت العموم لتماميَّة تلك المقدّمات فلا تختصّ الهداية بطائفة من المتَّقين. هذا ممَّا لا كلام حوله.

وهكذا قد فرغنا عن مسألة الهداية المتعدّية بنفسها أو المتعدّية باللام وغيره، وتعرَّضنا لحدود المسألة، وذكرنا أنَّ الهداية في جمع أقسامها وأنواعها بمعنًى واحد[٢] وإذا قيل: هو هدًى للمتَّقين، فتلك المعاني بمجموعها مورد الإرادة والنظر ولا يختصّ ببعض دون بعض، فهذا الكتاب يهدي إلىٰ المطلوب بالإراءة والإعلام، ويهدي إليه بالإيصال حقيقة وواقعاً.

نعم هنا سؤال عن وجه كونه هداية للمتَّقين، مع أنَّه هدى الضالّين والمضلّين.

---

(١) تحريرات في الأُصول ٥ : ١٩٧.

(٢) راجع الفاتحة: الآية٦، اللغة والصرف، المسألة الأولى.

وبعبارة وُضحىٰ وكلمة أُخرىٰ: لا معنىٰ لذلك إلاّ أن يراد منه أنّه الهدىٰ بعد الاهتداء، فيكون هناك مراتب، وهذا الكتاب بعد الاهتداء؛ والخروج من ظلمات الكفر والإلحاد والجهل والنفاق، يهدي إلىٰ المراتب العالية.

أقول: أوّلاً: إنّ الالتزام بذلك ممّا لا بأس به؛ ضرورة أنّ القرآن يشتمل علىٰ جميع أسباب الهداية، وقد أعلن ذلك في مواقف مختلفة.

ففي مورد يقول: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾(١)، وهذا ربّما يكون أوّل مرتبة الهداية، وهي الإخراج من الظُّلمات وسجون الطبيعة المظلمة إلىٰ النُّور.

وفي مورد آخر يقول: ﴿...قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝١٥ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾(٢)، وهذه هي أقصىٰ مراتب الهداية، ومن المراتب العالية الّتي تتحيّر فيها العقول، وترتعد عندها القلوب والأرواح، وما بينهما المتوسّطات.

وثانياً: إنّ في قوله تعالىٰ هنا وفي غير هذه الآية ترغيباً وتحريضاً علىٰ التقوىٰ، ودعوةً إلىٰ الاجتناب عن المحرّمات والمشتبهات مثلاً؛ وذلك لأن يتوجّه النّاس إلىٰ أنّ هذا القرآن يهدي من هو أهلها، وتكون بينه وبين الكتاب سنخيّة ومشاكلة، ومن يريد أن يهتدي بهداه

---

(١) البقرة (٢): ٢٦.

(٢) المائدة (٥): ١٥ ـ ١٦.

فليتّق الله، فهو ـ مضافاً إلى دلالته علىٰ هدايته من أوّل درجاتها إلىٰ آخرها ـ تدلُّ علىٰ أنَّ التقوىٰ والاتّقاء لازم ومطلوب.

وإن شئت قلت: إنَّ القرآن يهدي علىٰ نعت القضيَّة الطبيعيَّة؛ أي طبعه علىٰ الهداية، وهو غير كافٍ، بل لابدَّ من العزم والإرادة والبناء العملي والقلبي علىٰ الاهتداء بأنواره وأشعَّته.

إن قلت: كيف يصحّ أن يُقال: إنَّ ذلك الكتاب هدًى، ولا يهتدي به أكثر النَّاس، وتعانده الملل المختلفة في الأدوار المتعاقبة وفي الأعصار والأمصار؟

قلت: **أولاً**: هذه الشُّبهة تتوجَّه علىٰ الوجه الأوَّل، وهو كونه هدًى علىٰ نعت الادّعاء والمجاز، وأمَّا علىٰ القول بأنَّه مبالغة تقتضيه البلاغة، أو واقعيَّة كشف عنها الكتاب، كما حرَّرناه، فلا شبهة ولا مِرية.

وثانياً: لا يتقوَّم صحَّة الدعوىٰ وحسن الادّعاء باتّفاق النَّاس أو الأكثريَّة، بل تصحّ حسب المحيط والمنطقة الدعاوىٰ الكثيرة، وهي لا تصحّ حسب المحيط الآخر، وإذا كان بين النَّاس أُمَّة يعتقدون بذلك، ويرون أنَّه كتاب الهداية علىٰ نعت الاقتضاء، فيكون هذا الادّعاء صحيحاً جدّاً، فكيف وقد اهتدت به الملَّة الَّتي تبلغ اليوم ـ وهو الثالث من صفر المظفَّر عام (١٣٩١هـ) ـ إلى ما بين سبعمائة مليون وثمانمائة، وهو ثلث البشر في الحال تقريباً.

فإلىٰ هنا ـ مضافاً إلىٰ ما تبيَّن أخيراً من الإشكال وجوابه ـ تبيَّن: أنَّ ما ارتكز لدىٰ المفسِّرين من أنَّ المتَّقين في هذه الآية هم الَّذين سمت نفوسهم، فأصابت ضَرَماً من الهداية واستعداداً لتلقِّي نور الحقّ،

والسعي في مرضاة الله بقدر ما يصل إليه إدراكهم، ويبلغ إليه اجتهادهم، غير موافق للتحقيق.

بل كونه هداية للمتّقين لا يُنافي دلالته علىٰ هدايته الأوّليّة؛ لأنّ في تعليق الحكم على الوصف إشعاراً بالترغيب في الاكتساء به، وإغراءً بالتلبّس بلباس التقوىٰ، فيكون هداية بالنسبة إلىٰ غير المتّقين أيضاً. هذا، مع أنّ التقوىٰ والاتّقاء، لا حقيقة شرعيّة له حسب ما تبيّن في البحوث السابقة، فيكون الكافر والفاسق والمؤمن مشتركين في وصف الاتّقاء، فمن اتّقىٰ عبادة الأصنام ـ وإن لم يكن مؤمناً ـ فهو من المتّقين، وهكذا سائر الطبقات.

وما ورد من طرقنا: بأنّ المتّقين هم شيعة عليّ عليه السلام، كما عن «إكمال الدّين» مسنداً عن الصّادق عليه السلام[(١)]، ومن طرق العامّة: بأنّهم المؤمنون[(٢)]، فهو لا يفيد الحصر، كما تحرّر وتقرّر، بل الأخبار والأحاديث تتكفّل بيان المصاديق الخاصّة، ولا تتكفّل إفادة حدود المراد من الكتاب، والله العالم بالصواب.

ومن هنا يظهر ضعف ما قيل: بأنّ المتّقين هنا مقابل الكفّار والمنافقين في الآيات الآتية، الّتي هي تسع عشرة آية: متكفّلة لحالات المتّقين ثلاث آيات، ولحال الكافرين ثلاث، ولحال المنافقين ثلاث عشرة آية؛ وذلك بدعوىٰ أنّ هذه الآيات الثلاث تشتمل علىٰ أنّ المؤمن والمتّقي يكون متّصفاً بخمس صفات: الإيمان بالغيب، وإقامة الصلاة، والإنفاق، والإيمان بما أنزله الله، والإيقان بالآخرة، ويكون

---

(١) راجع كمال الدّين ٢: ٣٤٠/٢٠.

(٢) راجع الدّر المنثور ١: ٢٤.

هؤلاء علىٰ هدًى من ربّهم، فدلّ هؤلاء علىٰ أنّ تلبُّسهم بهذه الصفات الكريمة وبهداية منه تعالىٰ؛ حيث يقول: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥﴾ ثمّ وصف الكتاب بأنّه هدًى بهداية المتّقين بقوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢﴾، فيعلم من ذلك أنّ المتّقين محفوفون بهدايتين، والهداية الثانية مرادة من قوله تعالى: ﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾، كما أنّ الآيات الآتية تفيد: أنّ الكفّار والمنافقين بين الضلالين والعمايتين؛ حيث يقول: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ﴾، ويقول: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ﴾[1].

أقول: والانصاف: أنّه خلاف التحقيق، كما عرفت منّا، فإنّ توضيح أوصاف المتّقين بإقامة الصلاة والإيقان بالآخرة لا يُنافي كون الآية ترغيباً في رفض الكفر والنفاق، والاندراج في سلك المتّقين، وتوضيح الكتاب أوصاف المتّقين لا يضرُّ بالاستخراج المذكور. وهذا نظير ما إذا قيل: هذه الدنانير للعلماء، فإنّ في ذلك تحريكاً إلىٰ كسب العلم والاندراج في مسلكهم بنحو أبلغ وأحسن.

(١) راجع تفسير الميزان ١: ٤٣ ـ ٤٤.

الهداية التكوينيّة والتشريعيّة
(استطراق طريق الوصول)

إنَّ الهداية: إمَّا تكوينيَّة أو تشريعيَّة، وعلىٰ التقدير الأوَّل: إمَّا إلىٰ أصل الوجود أو إلىٰ كمال الوجود وجماله، وعلىٰ كلّ تقدير يكون الكلّ من الهداية والخروج عن الضلالة، ويشترك الكلّ في هذا المفهوم الواسع، وإنَّما الاختلاف في مصاديقها وكيفيَّاتها:

أمَّا الهداية التشريعيَّة: فهي الهداية الَّتي تجيء من قِبَل إنزال الكتب وإرسال الرُّسل والأنبياء، وتبليغ المبلِّغين والعلماء في كلّ عصر ومصر.

وأمَّا الهداية التكوينيَّة إلىٰ أصل الوجود: فهي الهداية المطلوبة بلسان الذات، فإنَّ الأعيان الثابتة والماهيَّات، يطلبون بلسان ذواتهم الهداية من ضلالة العدم ـ الَّتي هي أشدّ الضلالات ـ إلىٰ دار الوجود والنُّور، ويريدون منه تعالىٰ الخروج من الظُّلمات الذاتيَّة إلىٰ النُّور.

وأمَّا الهداية التكوينيَّة إلىٰ كمال الوجود وجماله: فهي في نظر حاصلة لكلّ أحد، وفي نظر حاصلة لطائفة خاصَّة:

وأمَّا النظر الأوَّل: فهو أنَّ كلّ موجود في النظام الأتمّ الإلٰهي

ـ بالقياس إلى ذلك النظام ـ مهتدٍ إلىٰ ما هو لازم النظام الكلّي، فلا ضلالة في هذه المرحلة وهذه النظرة.

وأمّا النظر الثاني: فهو أنَّ الأشياء ـ بحسب الحالات الفرديَّة والشخصيَّة ـ مختلفة الأُفق ومتفاوتة الدرجات والسبل، ومتشتّتة المسالك والطرق، فمنها ما يصل إلىٰ الغاية المقصودة، فهو المهتدي إليها، ومنها ما لا يصل إليها، فهو الضال عنها. وهذا أمر عموميّ كلّيّ داخل في عمومه جميع الحقائق الوجودية من قذّها إلى قذيذها ممّا يترقَّب له الكمال بعد النقص، دون الموجودات الأمريَّة الَّتي لا ترقّب لها ولا ترقّي فيها، ولا خروج لها من الظُّلمات إلىٰ النُّور.

فعلىٰ هذا فهل المطلوب في قولنا: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ هي الهداية التشريعيَّة إلىٰ الإسلام والإيمان بالإقرار باللِّسان مثلاً، أو هي الهداية التكوينيَّة بالوصول إلىٰ غاية المأمول ونهاية المسؤول، والدخول في دار الله الموجب للبقاء ببقاء الله، المورث للالتذاذات الرُّوحانيَّة وللتكيُّفات المعنويَّة الَّتي لا تدركه العقول البشريَّة، أم هي جميع أنحاء الهدايات؛ حتَّىٰ يكون الصِّراط المستقيم بناءً علىٰ ذلك ـ أيضاً ـ مختلفاً بحسب المصاديق؛ ضرورة أنَّ الصِّراط المستقيم في الهداية التشريعيَّة غيره في الهداية التكوينيَّة.

إذا عرفت وأحطت إجمالاً بما في هذه السطور تأتي الشُّبهة: وهي أنَّ من الواجب الدُّعاء بالنسبة إلىٰ ما يمكن تحقّقه ويصحّ ترقّبه، ومن البديهي أنَّ الضلالة التكوينيَّة؛ وعدم الوصول إلىٰ الغايات الطبيعيَّة في هذه النشأة الملكيَّة الناسوتيَّة، من الأمر الواضح اللازم لتلك الطبيعة، ولا يُعقل التفكيك؛ لأنَّ دار الطبيعة ومنزل المادَّة، دار

الاصطدام والمزاحمة، ولو كان يمكن عقلاً هذا التفكيك لكانت هذه النشأة من النشآت الإلٰهيَّة المجرّدة، فأخيرة التجلّيات ـ وهي التجلّي الفعلي في المواد والمادّيات ـ تستتبع هذه التبعات طبعاً وقهراً، فكيف يُعقل طلب الهداية بمعناها الواقعي والحقيقي؟ فلابدَّ وأن ينحصر الطلب بالهداية التشريعيَّة.

أقول: الهداية التشريعيَّة في نظر تشريعيّ، ولكن الاهتداء بتلك الهداية تكوينيّ؛ لأنّه ليس مجرَّد الاعتبار والتخيُّل كالأُمور الاعتباريَّة، فعلىٰ هذا يلزم سقوط الدُّعاء بالنسبة إليها، وغير خفيّ أنَّ هذا الدُّعاء غير الدُّعاء بالنسبة إلىٰ حاجة من الحوائج الأُخر؛ كإعطاء درهم لسدّ الجوع؛ ضرورة أنَّ النظر من الهداية هو استطراق طرق الوصول إلىٰ غاية الطبيعة ومقتضياتها؛ أي استدعاء الشجرة هو البلوغ إلىٰ أن تثمر ثمراتها الممكنة لها طبعاً، واستدعاء الحيوان هو الوصول إلى الكمال المترقّب الحيواني، وهكذا الإنسان، وحيث إنَّ فطرة الإنسان فطرة التوحيد وفطرة العشق للكمال المطلق، فهدايته هو إبلاغه إلىٰ ذلك العشق، وهذا غير ممكن بالإمكان الاستعدادي لا الذاتي والوقوعي، بل وغير ممكن بالإمكان الوقوعي؛ للزوم الخلف، وهو كون هذه النشأة مادّيَّة غير مزاحمة، فتدبَّر.

فعلىٰ ما تقرَّر وتحرَّر: يُشكل طلب الهداية بمعناها الواسع التكويني المطلق، فلابدَّ من أن يُقال: إنَّ النظر في هذا الطلب إلىٰ الهداية التكوينيَّة النسبيَّة؛ بتحصيل المُعِدَّات والمقدّمات الإعداديَّة اللازمة؛ حتّىٰ ينال الحقائق ويصل إلى المرتبة الأُخرىٰ؛ لما فيه من كمال الوجود؛ ضرورة أنَّ الوصول إلىٰ أصل الوجود ومنبع الغيب

والشهود، يحتاج إلىٰ الأُمّهات الشامخة والأصلاب المطهّرة، وأمّا الوصول إلىٰ غاية طبيعة الإنسان وسيره العلمي والعملي، البالغ إليه النّبيّ الأعظم ﷺ والوليّ المعظّم، فهو من الآمال، ولا يخرج منها.

دست ما كوتاه وخرما بر نخيل   باى ما لنگ است منزل بس دراز

وغير خفيّ: أنّ الترنّم بهذا الدُّعاء، واستدعاء ذلك لكلّ أحد - مع قطع النظر عن الآخر - بإظهار الاشتياق الشديد إلىٰ تلك المنزلة، وإبراز الحبّ الأكيد للوصول إلىٰ تلك الغاية، يستلزم انفتاح أبواب الخيرات، وربّما يتّفق - لحصول نار العشق في وجوده - الإعدادُ والاستعداد للخيرات الإلٰهيّة الإطلاقيّة، وللحركة الطبيعيّة الشوقيّة إلىٰ دار الجنّة والمنزل الأرفع.

فما ذكرناه فهو بالقياس إلىٰ كلّيّ ما في النظام الكياني التابع للنظام الربّانيّ والإلٰهي، وقد أشرنا إلىٰ أنّ ذلك لا يستتبع امتناع الوصول ذاتاً؛ وإن كنّا نعلم إجمالاً بأنّ الطريق مسدود، والأبواب بالنظر إلىٰ حالات الأشخاص مسدودة بالانسداد الجائي من قِبَلهم.

وإن شئت قلت: الهداية التشريعيّة أمر يحصل من إنزال الكتب وإرسال الأنبياء والرُّسل، بالإقرار بذلك اهتدىٰ الرجل.

ولكنّ الهداية التكوينيّة ليست من الأُمور الجائية من الغيب دفعة وفي مائدة حتّىٰ نبتلعها، بل هي تحصل من الجدّ والاجتهاد ومن سلوك الطرق الصعبة جدّاً، المعضلة والمشكلة واقعاً، وهذا ممّا لا يحصل بدواً وابتداعاً، بل لابدّ وأن يكون من قِبَل المعشوق علىٰ الإطلاق نظر واستدعاء.

تاكه از جانب معشوق نباشد كششى   كوشش عاشق بيچاره بجايى نرسد

حول منتهى الصّراط
(المبدأ والمنتهى)

اعلم أنَّ اعتبار الصّراط تقوّم باعتبارين: أحدهما المبدأ، والآخر هو المنتهى؛ مثلاً، إذا قيل: هذه الجادَّة صراط الشام؛ أي تنتهي إلىٰ الشام ولها مبدأ، وهو الكوفة، فعليه يبدو سؤال وهو: أنَّ الصّراط المستقيم المطلوب في هذه الآية: وإن لم يكن من الصُّرُط الخارجيَّة والجوادّ المادّيَّة، ويكون من الصُّرُط المعنويَّة أو الاعتباريَّة، ولكنَّها مثلها في الحاجة إلىٰ المبدأ والمنتهىٰ، فما هو مبدأ هذا الصّراط؟

فإذا قيل: الإسلام هو الصّراط المستقيم؛ أي من الضلالة إلىٰ الهداية، وهكذا الإيمان أو غير ذلك من الشرائع، وإذا قيل: رسول الله ﷺ هو الصّراط، أو الأمير عليه السلام هو الصّراط المستقيم؛ أي أنَّ الإنسان الكامل هو الطريق من النقص إلىٰ الكمال، فهنا نقص وكمال، وهذا هو قوس الصعود المتحرّك فيه الأشياء من الدرجة السفلىٰ إلىٰ الدرجة العليا، والسائر فيه الصور الكماليَّة من النازلة إلىٰ العالية، ومن المادَّة والنطفة إلىٰ الصور والصورة الكلّيَّة الإنسانيَّة، الجامعة لجميع الشتات والكمالات.

فمن اعتبار الصّراط يثبت التدرُّج من النقص إلىٰ الكمال ومن

الضلالة إلى الهداية، نعم إذا كانت الهداية تشريعيَّة، فيكون المراد التدرُّج والخروج من اللاديني واللامسلكي إلى الديانة، وهي الإقرار بالشرائع والعمل بالأركان، وإذا كانت هي التكوينيَّة، فيكون السير تكوينيّاً والصّراط خارجيّاً من الأعيان، كسائر الصُّرُط الخارجيَّة، ولكنَّها خارجيَّة مادّيَّة، وهذا الصّراط والطريق مختلف الأحوال؛ لأنَّه طريق مستقيم ممتدّ من الهيولى إلى الوجود المطلق، ففي ابتداء السير يكون مادّيّاً، ثمَّ يصير برزخيّاً، ثمَّ يصير معنويّاً صِرْفاً. . . وهكذا.

وهذا الطريق الممتدّ من المادَّة إلى السعادة المطلقة، وإلى القيامة العظمى وإلى الحشر الكلّي التامّ وإلى لقاء الله والباقي ببقاء الله، هو الطريق المستقيم إلى الكمالات المتوسّطة غير الخارجة عن حدّي الإفراط والتفريط، ويكون واحداً حقيقيّاً ممتدّاً إلى الملكوت الأعلى والسَّماوات العُلى، وعلى كلّ موجود الحفاظ على هذا الخطّ الممدود المستقيم؛ بأن لا يخرج عن حدوده، ولا يتجاوز عن تطرّقه وتسلّكه بالانحرافات الممكنة الحصول له في أثناء الطريق في كلّ آن ولحظة؛ بالمواظبة على الحدود الإلٰهيَّة والشرائع الحقَّة وباتّباع الإنسان الكامل، الَّذي يكون مطَّلعاً على تلك الحدود، وسالكاً ذلك السبيل، وعارفاً بجميع أسواقه وأزقَّته وخصوصيَّاته وانحرافاته؛ حتَّى لا يقع في الضلال، ولا يتجاوز عن الصّراط واستقامته، وبمثله كُلّف العباد، ولأجله أُرسل الرُّسُلُ والكُتُبُ.

وأمَّا سائر الصُّرُط الَّتي تمشي عليها الموجودات، ليس شيء منها هذا الصّراط المختصّ بأهل الله؛ لأنَّ كلاً منها ينتهي إلى غاية أُخرى غير لقاء الله، وإلى منزل آخر غير جوار الله وغير دار الجنان ومنزل

الرضوان، كطبقات الجحيم ودَرَكات النيران، فالقوس الصعوديّة لا تصل إليه تعالىٰ إلاّ بسلوك الإنسان الكامل عليها: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾[١]، والانحراف عنه يوجب السقوط عن الفطرة والهُوي في دَرَك الجحيم والهبوط في جهنّم الّتي قيل لها: هل امتلأتِ، وتقول: هل من مزيد[٢].

ومن هنا يعلم سرّ توصيفه في بعض الأخبار: بأنّه أدقّ من الشعر وأحدّ من السيف[٣]؛ لأنّ كمال الإنسان منوط باستعمال قوّتيه:

أمّا القوّة النظريّة: فلإصابة الحقّ ونور اليقين في سلوك الأنظار الدقيقة الّتي هي في الدقّة واللطافة أدقّ من الشعر.

وأمّا القوّة العمليّة: فبتعديل القوىٰ الثلاث ـ الّتي هي الشهويّة، والغضبيّة، والشّيطانيّة الفكريّة الوهميّة ـ في أعمالها لتحصل للنفس حالة اعتداليّة؛ متوسّطة بين الإفراط والتفريط غاية التوسُّط ونهاية التعديل؛ ضرورة أنّ الأطراف كلّها مذمومة توجب السقوط في الجحيم، وهي منزل الأشقياء المردودين.

وقد تحرَّر: أنّ المنزل المتوسّط الحقيقي بين الأطراف المتضادّة بمنزلة الخلوّ عنها، والخلوّ عن هذه الأطراف ـ المُسمّىٰ بالعدالة ـ منشأ الخلاص عن الجحيم، وهي أحدّ من السيف، فإذن الصّراط أدقّ من الشعر، والوقوف عليه يوجب القطع والانحراف، فهو أحدّ من السيف.

---

(١) فاطر (٣٥): ١٠.

(٢) راجع السورة ق (٥٠): ٣٠.

(٣) راجع تفسير القمّي ١: ٢٩، والأمالي، الصدوق: ١٧٧/ ٤.

فلا تتوهَّم: أنَّ كمال الإنسان هو البلوغ إلىٰ هذا الصّراط، فإنَّه لو بلغ ووقف شُقّ وقُطع وسقط منه في النَّار، والله يعصمنا منه إن شاء الله.

فذلكة الكلام في المقام:

إنَّ الصّراط المستقيم لابدَّ وأن ينتهي إلىٰ موقف يتمّ سير السالك إليه، وتنتهي حركته المعنويَّة لديه؛ لما عرفت أنَّ المطلوب هو التطرق بتلك الطريق وبذلك الصّراط المستقيم، وحيث إنَّ أقصر الطرق هو الخطّ الحماري، وهو الأقرب إلىٰ المقصود، فيكون هذا الصّراط في نهاية القرب من سائر الصُّرط والطُّرُق، فبقي البحث حول أنَّ منتهىٰ هذه السفرة وهذا الصّراط، هل هو الإسلام والإيمان، أو هما صراطان، أم هو الوصول إلىٰ الأحكام القلبيَّة بظهور نور الوحدة؛ وبالوصول إلىٰ حقيقة الولاية، أم هو أيضاً صراط وطريق، أو هو الجنَّة البرزخيَّة والراحة في القيامة، أم هما أيضاً صراطان، أم هو جنَّة الذات والأفعال، والصفات زائدة علىٰ الجنَّة الخارجيَّة الإلٰهيَّة، أم هي من الطُّرق والسُّبل؟

ولا يقف اشتهاء المرء المؤمن، ولا يسكن مقتضىٰ الفطرة السليمة عنده؛ لأنَّها مفطورة علىٰ عشق الكمال المطلق والجمال الساري في الخلق من الحقّ، فما هو نهاية هذا الصّراط الدقيق القاطع، وقد تبيَّن أنَّ مبدأه وابتداءه من هذه النشأة الناسوتيَّة الملكيَّة، ومن هذه الفطرة المخمورة السافلة الَّتي رددناها أسفل سافلين، والَّتي كانت ـ حسب الظاهر في وجه ـ في أعلىٰ عِلّيِّين، ففي القوس النزولي بطَيّ الصّراط وصل إلىٰ المادَّة السُّفلىٰ، فلابدَّ من طَيّ هذا الطريق في

القوس الصعودي، والطريقان مختلفان؛ حتّىٰ لا يلزم التكرار في التجلّي، كما برهنّاه في محلّه، ويأتي في مقامه المناسب له.

فهذا الجسر الممدود علىٰ الدُّنيا والبرزخ والآخرة، من سنخ هذه النشآت؛ أوّلها الدنيوي ووسطها البرزخي وآخرها الروحاني، وفي القيامة العظمىٰ من سنخ تلك النشأة، وهكذا إلىٰ أن ينتهي إلىٰ الذات الأحديّة الغيبيّة والواحديّة الجمعيّة، فمن المتحرّك السالك الواصل إلىٰ المنتهىٰ؟ فسيأتي عند قوله: ﴿ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ إن شاء الله تعالىٰ.

ثمّ إنّ هذا الصّراط إذا انحفظت استقامته في الهداية التشريعيَّة، فينتهي سالكه إلىٰ المقصود، وهو النجاة من النّار والفوز بالجنّة، وإذا انحفظت استقامته التكوينيَّة في هذه النشأة، فربّما يصل سالكه في أواسط السير أو أواخره إلىٰ منتهاه، كالبرق اللامع، والمهمّ هو المحافظة علىٰ الاستقامة في هذه النشأة.

حول فعلية الصّراط وإمام الزّمان (ع)

ظاهر الآية الشريفة: أنّ الصّراط المستقيم إلىٰ الحقّ موجود بالفعل، ومنعوت بالاستقامة الفعليّة، فهو الآن موجود ومستقيم، كالصّراط الموجود بين البلدين المستقيم، فيلزم علينا الفحص عن هذا الصّراط الموجود بالفعل، فإن كان هو الشرائع والإسلام والإيمان بكلّيّاتها، فيصحّ أن يُقال: الإسلام طريق النجاة وصراط الهداية، وهو الآن موجود، وهكذا كلّ ما يكون من قبيله من الهدايات التشريعيّة المضبوطة من قِبَل الأنبياء والعلماء، والقرآن صراط مستقيم؛ أي هو بالفعل وفي الاعتبار؛ صراط مستقيم بالفعل وطريق مستقيم إلىٰ الجنّة، والانحراف عنه بالأديان الأُخر ضدّ الهداية ومن الضلالة.

ولكنّك أحطت خُبراً: بأنّ الصّراط المستقيم تكوينيّ وتشريعيّ، ويؤيّد أنّ منه التكويني قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾[1]، اللّهمّ إلاّ أن يُقال: هو في ذيل الآية الشريفة: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾، فإنّه هو التكويني، وأمّا هذا الّذي يُخصّ به الإنسان ـ مثلاً ـ فهو التشريعي؛ لعدم إمكان تصوُّر الصّراط التكويني الموجود بالفعل الموصوف بالاستقامة فيه؛ لأنّ النّاس السالكين في

(١) هود (١١): ٥٦.

السُّبُل والصُّرُط التكوينيَّة، ليست الجادَّة بالنسبة لهم موجودة بالفعل، بل الجادَّة توجد تدريجيّاً وآناً فآناً؛ حسب الحركة الكماليَّة الطبيعيَّة الثابتة لهم، فيكون الخطّ والصِّراط موهوماً امتدادياً، لا واقعيّاً وحقيقيّاً، وهذا خلاف الظاهر من الآية الكريمة.

أقول: قد تقرَّر منّا في «قواعدنا الحكَميَّة»، وأشرنا إليه هنا في البحث الماضي: أنَّ في كلّ عصر وزمان من الأزمنة المادّيَّة، وفي كلّ آن من الآنات في هذه النشآت، لابدَّ من وجود الإنسان الأعظم الكامل الواصل إلىٰ منتهىٰ السير، المُخرج للطبائع الظُّلمانيَّة من الظُّلمات إلىٰ النُّور، والمُحرّك للحقائق المشفوعة بالموادّ من النقص إلىٰ الكمال اللائق بها، وهذا هو الموجود المعروف في شريعتنا بإمام الزَّمان والمنتظر المهدي ـ عجَّل الله تعالىٰ فرجه ـ فهو إمام الزَّمان، لا زمانٍ خاصّ، وهو المهدي علىٰ الإطلاق؛ أي الواصل إلىٰ منتهىٰ السير، البالغ نهاية الكمال، الباقي ببقاء الله تعالىٰ بعد الفناء في الله، وهو الصِّراط المستقيم الموجود بالفعل التكويني، وهو من الَّذين أنعم اللَّهُ عليهم بمثل ذلك؛ أي بهدايتهم التكوينيَّة الكلّيَّة المطلقة، وبجعلهم الصِّراط التكويني، الَّذي هو الجسر الممدود علىٰ الطبائع الدنيويَّة والبرزخيَّة والعقبويَّة.

وهذا الموجود وهذا الصِّراط لا يعقل أن يتكثَّر؛ لأنَّ المنتهىٰ واحد شخصيّ، والمبدأ واحد شخصيّ، فالصِّراط واحد شخصيّ؛ أمَّا شخصية منتهىٰ السير ـ وهو الله تعالىٰ ـ فهي ذاتيَّة واحدة، وأمَّا شخصيَّة مبدئه ـ وهي الهيولىٰ ـ فهو المبرهن في محلّه[١]؛ وأنَّ تكثّرها

---

(١) راجع الشفاء (قسم الإلهيّات): ٣٣١، وشرح الإشارات ٢: ١٤٧ ـ ٢٥٢، والأسفار ٥: ٧٠ ـ ٧٧.

بصورٍ حالّةٍ فيها، ولازم ذلك بعد التوصيف بالاستقامة كونه واحداً بالشخص.

ولأجل ذلك لم يجمع «الصّراط» على «الصُرُط» في الكتاب الإلٰهي، ولا يُستفاد منه أنَّ الصّراط كثير وأمّا السُّبل فهي كثيرة حسب ما في الكتاب، كما سيظهر تحقيقه.

وبعبارة أُخرى: الجادَّة الأصليَّة الكلّيَّة واحدة، والسُّبُل والطُّرُق المتفرّعة على تلك الجادَّة كثيرة، ولكنَّها تنتهي إليها، وإلىٰ جميع هذه الدقائق والرقائق يشير الكتاب الإلٰهي في (سورة المائدة: آيتان: ١٥ و١٦) ﴿...قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾.

فبالجملة: مقتضىٰ إطلاق الكتاب، أنَّ الصّراط أعمّ من التكويني والتشريعي، ومقتضىٰ ظهوره أنَّ الصّراط المستقيم موجود بالفعل، ونتيجة ذلك: وجود الصّراط المستقيم التكويني بالفعل، ومقتضىٰ أنَّ الصّراط لابدَّ وأن ينتهي إلىٰ أمر، أنَّ المطلوب هو الصّراط المستقيم المنتهي إلىٰ شيء آخر وراءه، فيثبت بذلك وجود الموجود الكامل بالفعل، المقارن للمادَّة، المشفوع بأحكامها، المُخرج من النقص إلىٰ الكمال ومن الظُّلمة إلىٰ النُّور في جميع أطوار الوجود، وفي أنحاء الطرق الفرعيَّة والسُّبُل الجزئيَّة، فكلّ شريعة اعترفت بمثله، فهي الشريعة الغرَّاء والدِّين الكامل الإلٰهي الواصل من الغيب، وإلاَّ فلا، وحيث قد عرفت وحدة الصّراط تبيّن وحدة الإنسان الكامل الواصل،

وإذا تبيّن أنَّ هذه الجادّة التكوينيّة واحدة، فالصِّراط التشريعي واحد أيضاً.

وإذا تأمّلت فيما أسمعناك وأسلفنا لك، فمن كانت طبيعته المخمورة تحت نظارة الإنسان الكامل، المربّي لجميع الطبائع، والمتصدّي من قِبَل الحقّ لتربية جميع السُّلاّك والمتطرّقين، وكان تحت عناية يد الله المبسوطة علىٰ كلّ شيء، مع المحافظة علىٰ جميع أنواع الزاد والراحلة المعتبرة في هذا التطرُّق والسلوك؛ من الأنظار والأفكار السليمة، ومن الأخلاق والصفات الحسنة ومن الأفعال والأقوال الشرعيّة الممدوحة، وعلى جميع شرائطه الكماليّة بالرياضات النَّفْسانيّة والمحاسبات العَقْلانيّة؛ في مأكله ومشربه ومشيه وملبسه ومعاشراته الانفراديّة والاجتماعيّة، وأن يتّعظ من الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾[1]، فإذا تحصّلت في سفرته هذه اللوازم السفريّة، وتلك الزادات الأُخرويّة، وطلعت عليه شمس الحقيقة، ونبتت بذورها المزروعة وفطرته المخمورة تصل إلى مَعدِن العظمة، وتصير أرواحنا معلّقة بعزّ قدسُه.

فالصِّراط المستقيم الحقيقي هو الطريق المشفوع بالشرائع وشرائطه الكماليّة، وهو التكوين المقارن مع الشرع والباطن المحافظ عليه الظاهر، فإنّه إذا حافظ علىٰ الفعلين الباطني والظاهري، يتمكّن من الالتذاذ بالخطاب الإلٰهي حتّى يسمع أنّه وصل، وعليه خلع جناحي العلم والعمل وخلع الوسائط؛ لأنَّ البراق والرفرف غير لازمين في السفر بعد الوصول إلىٰ المقصد ونيل المطلب.

---

(١) سبأ (٣٤): ٤٦.

وأمّا طرح الظاهر والأخذ بالأحكام القلبيَّة ـ كما عن طائفة من الصوفيَّة ـ فهو خروج عن الحدّ الوسط والطريق المعتدل: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ﴾[1]، وتضييع لتلك الأحكام القلبيَّة، فضلاً عن الأحكام الشرعيَّة القالَبيَّة.

ومثله طرح الأحكام القلبيَّة والأخذ بالأحكام القالَبيَّة والجمود عليها، كما عليه طائفة من المتشرّعة، فإنَّه أيضاً اعوجاج وانحراف عن الحقّ، وخروج عن هداية الله، وتضييع لروح الإسلام والشرائع، ولباطن الأحكام ورقائقها، وقد وردت في شريعتنا الآثار الكثيرة الدالَّة علىٰ الطرفين، وعلىٰ لزوم الأخذ بالحدّ الوسط الَّذي فُسِّر به الصّراط المستقيم في سورة الفاتحة.

(١) البقرة (٢): ١٤٣.

بحث عرفانيّ وإفاضة إشراقيّة
(الاسم الخاص والاسم العام المحيط)

اعلم أنَّ من المحرّر في محلّه: أنَّ لكلّ موجود في جميع الآفاق والأزمان ظاهراً وباطناً؛ ظاهره المظهريّة للاسم الإلٰهيّ، وباطنه إسراؤه من ذلك الظّاهر إلىٰ الله تعالىٰ حسب مقتضيات الأسماء، فكلّ شيء اسم من أسماء الله، وله الصّراط الخاصّ الموصِلُ إلىٰ ما قُدِّر له حسب الاستعدادات الذاتيّة، وحسب الفيُوضات المخصوصة به المقدّرة له بفيضه الأقدس، فلا يكون الصّراط واحداً، بل كلّ شيء ذو صراط وذو طريق، إلاّ أنّ الأشياء مختلفة، فمنها ما هي في سلوكه وسفره من الظاهر إلىٰ باطن اسمه واصل إليه ونائل إيّاه، ومنها ما لا يوصِل إلىٰ مقصوده ومنتهاه، وأيضاً منها ماهي مظهر للأسماء الكلّيّة الرئيسة، ومنها ما هي المظهر للأسماء الخاصّة المرؤوسة، ويعرف اختلاف تلك الأسماء باختلاف الخلائق، فإنّ الطرق إلىٰ الله بعدد نفوس الخلائق، ومن بين الأسماء ما هو الاسم الجامع، ومظهره الكون الجامع، وهو الله تعالىٰ، وذاك الإنسان الكامل ـ وهو النّبيّ الأعظم ﷺ ـ فإنّه الطريق إلى الله، وهو أصل جميع الجوادّ والسُّبُل بالذات، وسائر الأولياء المعصومين عليهم السلام متطرّقون إليه بالتبع في مقام الكثرة، وأمّا في الباطن فكلٌّ واحد وحقيقتهم فاردة.

فبالجملة: لكلّ موجود صراط مستقيم إلىٰ الله تعالىٰ كرهاً وطوعاً، وفي هذه النظرة كلّ صراط مستقيم في الأُفق الأعلىٰ وفي الفيض الأقدس، إلاّ أنّ اختلاف تلك الطُّرُق والصُّرُط لاختلاف مقتضيات الأسماء، واختلاف تلك الأسماء في المقتضيات لأجل أمر آخر، وكلّ ذلك يستدعي سالكه للسير من الاسم الخاصّ به الجزئي إلىٰ الاسم العامّ المحيط، ومن ذلك الاسم المحيط ـ كالأسماء السبعة الأُمّهاتيّة ـ إلىٰ الاسم الجامع، والتبدُّل في تلك المظاهر ممكن حسب الفطرة وفي حيطة اختيار السالك، فهناك طريق رئيسي هو مظهر اسم الله، وطرق كبيرة وصغيرة مظاهر الأسماء الأُخر المحيطة والمحاطة، إلاّ أنّ كلّ هذه الطرق تنتهي إلىٰ ذلك الصّراط الوحيد المستقيم.

كشف ملكوتيّ وشهود سرمديّ
الهداية إلىٰ الصّراط والوصول إلىٰ الغاية
ومعرفة الإمام

لا شبهة في أنَّ الظاهر من الآية الشريفة: أنَّ المطلوب هي الهداية إلىٰ الصراط المستقيم، وأنَّ نفس هذه الهداية هي المطلوب في هذه الآية، وأمّا كون المطلوب الأعلىٰ هي الهداية إلىٰ الصراط المستقيم المنتهي إلى الحقّ الأوّل وإلىٰ النُّور الأبدي والأزلي، فهو خروج عن المنساق من الآية الكريمة، ولا منع من ذلك، إلاَّ أنَّها تفيد أنَّ ما هو المطلوب ليس إلاَّ الهداية إلىٰ الصراط المستقيم، وكأنَّه إذا كانت الهداية إلىٰ الصراط المستقيم متحقّقة، كان الوصول إلىٰ غاية المأمول ونهاية المسؤول أمراً قهريّاً ومطلباً طبيعيّاً، بل اللازم هو الجدّ والاجتهاد للوصول إلىٰ ذلك الطريق وتلك الجادَّة.

فعلىٰ هذا ربَّما يمكن توهّم: أنَّ النَّاس مختلفو الاستعداد، فمنهم ـ وهم الأكثر ـ غاية حركتهم الفطريَّة وسلوكهم الطبيعي الغريزي هو الوصول إلىٰ هذا الصراط السويّ، والاهتداء إلىٰ هذا الصراط المستقيم.

ومنهم ـ وهم الأقلّون الكمّل جدّاً ـ غاية حركتهم الذاتيَّة

وتقلّباتهم الجوهريَّة نيل الحقّ والوصول إلىٰ دار الأُنس، والعبور علىٰ هذا الصراط إلىٰ المطلوب الأعلىٰ والمحبوب الأحلىٰ، والفناء فيه والبقاء ببقائه، والرجوع إلىٰ الخلق في حجاب الحقّ، ومع المحافظة علىٰ مقامه الشامخ وهي البرزخيَّة الكُبرىٰ والوسطيَّة العُليا، فيكون في القوسين ـ الصعودي والنزولي ـ علىٰ الصراط المستقيم، وفي الحقيقة لهؤلاء ثلاثة طرق مستقيمة:

الطريق الأوَّل وهو: التنزُّل إلىٰ مقام أسفل سافلين من أعلىٰ علّيِّين، وكونهم من تلك الدار العليا أورث أن يرد فيهم ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥﴾[1].

الطريق الثاني: هو السير إلىٰ الله علىٰ الصراط المستقيم.

والطريق الثالث: هو الرجوع من الله، وهو السفر الرابع المخصوص به الرُّسل وأرباب الكُتب علىٰ الصراط المستقيم أيضاً، فجميع حركاتهم مستقيمة، وحقيقتهم القويمة نفس الاستقامة.

فإذاً تبيَّن: أنَّ النَّاس متوجّهون نوعاً إلىٰ هذه الآحاد الخاصَّة والأناسيّ الكاملة ويطلبونهم، وهذه الآية الشريفة كأنَّها منساقة لحال النوع والعرف، ؛ ظهورها في أنَّ المطوب هي الهداية إلىٰ الصراط المستقيم، المفسَّر في الأخبار بالأئمَّة الهداة وبأمير المؤمنين عليه السلام[2]، ولأجل مثله توهّم أرباب الانحرافات أنَّ المعبود في الآية الشريفة ﴿...ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾[3] هو هؤلاء المعصومون عليهم السلام الكمّل، لا يجوز

---

(١) التين (٩٥): ٥.

(٢) راجع معاني الأخبار: ٢/٣٢ و٣ و٧ و٨.

(٣) البقرة (٢): ٢١، الحج (٢٢): ٧٧.

لمتوطّن في دار الوحشة والظُّلمة أن يتوجَّه إلاّ مع الواسطة، فلابدَّ وأن يعرف الإمام والإمامة، والصراط المستقيم الَّذي به، يتمكّن بعد ذلك أن يصل إلىٰ دار الحقيقة، كما فُسّر في بعض الأخبار بأنَّه الإمام ومعرفته[١].

فعلىٰ هذا إذا كان يستدعي السالك العابد من الله تعالىٰ الهداية إلىٰ معرفة الإمام وإلىٰ الصراط المستقيم الَّذي هو الإمام بوجوده الواقعي، فيتمثّل في نفسه في الابتداء صورته، ويحصل في قلب السالك دقيقته، وقد مرَّ منّا سابقاً[٢]: أن أشرنا إلىٰ أنَّ المخاطب في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، لا يكون إلاّ العناوين الفانية في الذات والمفاهيم المشيرة إلىٰ الخارج، وتلك الحقائق أولىٰ بجعلها فانية ورسماً، لأنَّهم في الإعراب عن تلك الحقيقة البيضاء أقوىٰ وأتم بالبداهية والضرورة، فيكون قوله بعد ذلك: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ بداعي البعث إلىٰ البقاء علىٰ تلك الحالة الثابتة له، الَّتي هي الصراط المستقيم حسب ظرفيَّة وجوده واقتضاء استعداده، ولعلَّ ما ورد في بعض الكتب بعنوان الرواية: «واجعل واحداً من المعصومين عليهم السلام نصب عينيك»[٣] يشير إلىٰ هذه الومضة، وهذا غير ما تخيّله أرباب الصوفيَّة الباطلون من تمثيل صورة الشيخ الفاسد العاطل.

فما في بعض الكتب: بأنَّ المراد أنَّ السالك ينبغي أن يجلو مرآة

(١) معاني الأخبار: ٣٣/ ٣.

(٢) راجع الفاتحة: الآية ٥، المسائل الفقهية، المسألة الثالثة.

(٣) الفقه المنسوب إلىٰ الرّضا: ١٠٥، تفسير بيان السعادة ١: ٢٣.

قلبه بالذكر والأعمال المأخوذة من شيخه، فإذا اجتلىٰ الذهن وقوي الذكر، وخلا القلب من الأعيان، ظهر الشيخ بمثاله علىٰ السالك، فإنَّ الذكر المأخوذ منه نازلة وجوده، فإذا قوي تمثَّل بصورته، وإذا ظهر الشيخ بمثاله رفع كُلفة التكليف والتذّ بحضوره عند محبوبه[1]. انتهى، انحراف عن الصراط المستقيم وتضييع للعائلة البشريَّة.

(١) راجع تفسير بيان السَّعادة ١: ٣٣.

دليل عرفاني وتنبيه إيماني
إشارة الآية إلىٰ برهان الصدّيقين

من الممكن أن تكون الآية[١] معناها طلب إراءة الطريق، أو طلب الإراءة والتوفيق علىٰ تطرُّقه وتوصُّله بالوصول إليه، وعلىٰ كلّ ذلك يكون مطلوباً بالغير ومقصوداً غيريّاً.

ومن الممكن أن تكون الآية في مقام إفادة أنَّ المطلوب النفسي هو الصراط المستقيم، وليس شيء آخر وراءه مطلوباً بهذه الآية؛ وإن كان له مطلوب آخر، وهو ما يوصل إليه هذا الصراط والسبيل المستقيم.

وهنا سرّ آخر غير الأسرار الماضية وهو: أنَّ الآية ربَّما تشير إلىٰ برهان الصدّيقين ودليل أرباب الكشف واليقين، وهو أسدّ البراهين وأقوم الطرق وأشرفها، وهو الَّذي يكون الوسط في البرهان هو في الحقيقة، ويكون الطريقَ إلىٰ المقصود، وهو عين المقصود، فما هو مطلوب السالك هي الهداية إلىٰ الطريق والصراط المستقيم، الَّذي لا شيء وراءه؛ حتَّىٰ يكون هو ذا الصراط، ويكون السبيل والطريق

---

(١) الآية السادسة من سورة الحمد.

موصلاً إليه، بل هو نفس الطريق والصراط ﴿...أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٥٣﴾[١].

وهذه الطريقة لا نسمّيها البرهان ـ لا لمّيّاً ولا إنّيّاً ـ كما حرّرناه في تعاليقنا علىٰ الأسفار الأربعة[٢]؛ لأنّها من مشاهدة أربابها ومن كشفيّات أصحابها، فلا تمكّن من تقريبها، ولو أمكن ذلك فهو من البرهان، مع أنّه لا يُعدّ برهاناً إلاّ تسامحاً.

فحذف متعلّق الصراط المستقيم ربّما كان لأجل إفادة أنّه ليس وراء الهداية إليه هداية أُخرىٰ، بل هي تمامها وكمالها، وللمقام تفصيل لا يسعه الكلام، وعنده مزلّة الأقدام والأقلام.

---

(١) فصّلت (٤١): ٥٣.

(٢) راجع تعليقات علىٰ الحكمة المتعالية ذيل ٦ : ١٣، برهان الصدّيقين.

الاستدلال بوحدة العالم على وحدة إله العالم وهذه الآية ﴿الحمد لله ربّ العالمين﴾

قد اشتهر بين أبناء الفلسفة العُليا الاستدلال لوحدة إله العالَم بوحدة العالَم[١]، وهذا لا يناسبه الآية الكريمة الشريفة الصريحة في تعدُّد العالَم، ولا المآثير والأخبار الواردة عن الأئمَّة المعصومين ـ عليهم صلوات المصلّين ـ الصريحة في أنَّ لله تعالى ألف ألف عالَم[٢]، فكيف الجمع بين ذاك وبين هذه الأمور؟

أقول: استدلّوا على وحدة إله العالَم حتّى قيل:

فبالنظام الجُمَلي العالَمُ شخص من الحيوان لا، بل آدمُ

لكن لا رأس له كالإنسان البشري، ولا ذَنَبَ كالحيوان العنصري، كما ليس له تشهٍّ ولا غضب لبراءة السّماوات منها، وليس من شرط الحيوانيَّة والإنسانيَّة المطلقتين هذه، بل الحياة ودرك الكلّيّات، وهما حاصلان له باعتبار اشتماله على النُّفوس والعقول، وحينئذٍ فمع تعدُّد إله العالَم تتوارد العلل المستقلّة على المعلول

---

(١) الأسفار ٦: ٩٢ ـ ١٠٠، شرح المنظومة (قسم الفلسفة): ١٥٠ ـ ١٥٣.

(٢) أنظر الخصال ٢: ٧٩٦/٥٤، تفسير القمّي ٢: ٤٠٩.

المشخّص من الإنسان الكبير الشخصي الَّذي قد انفعل وتأثَّر، وهذا محال، فتعدّد الإلٰه محال(١).

وأنت خبير: بأنَّ في هذا التقريب قصوراً لا ينتهي إلىٰ التحقيق؛ لأنَّه لا يفيد إلاَّ الوحدة الاعتباريَّة فلا يكشف عن وحدة الإلٰه.

وقيل: إنَّ مجموع العالَم شخص واحد له وحدة طبيعيَّة، وليست وحدته كوحدة أشياء متغايرة، اتّفق أن صارت بالاجتماع والانضمام كشيء واحد، مثل اجتماع البيت من اللبنات واجتماع العسكر من الأفراد؛ وذلك لأنَّ بين أجزاء العالم علاقة ذاتيَّة؛ لأنَّها حاصلة علىٰ الترتيب العلّي والمعلولي، وهي مترتّبة بالأشرف فالأشرف إلىٰ الأحسن فالأحسن، ومن الأعلىٰ فالأعلىٰ إلىٰ الأدنىٰ فالأدنىٰ، وكلّ جمعيَّة تقع على هذا الوجه تكون الوحدة فيها وحدة ذاتيَّة؛ وذلك لما عرفت أنَّ العلَّة تمام المعلول، والأشرف تمام الَّذي دونه في الشرف، والشيء الَّذي يكون مع تمامه هو أولى به أن يكون مع نفسه، فيكون واحداً بوحدته.

وبالجملة: صرَّح صاحب «الحكمة المتعالية»؛ بأنَّ العالَم واحد شخصيّ بالبرهان عندنا وعند الحكيم أرسطو؛ حيث قال: بأنَّ العالَم حيوان واحد مطلب «ما هو» و«لَم هو» فيه واحد، فمن علم أنَّه ما هو علم أنَّه لَم هو، فإذا كان كذلك ولا شبهة أنَّ العلَّة الغائيَّة لجملة العالم ـ المُسمَّىٰ عند العرفاء بالإنسان الكبير ـ هو الحقّ الأوَّل جلَّ ذكره، فيكون هو الجواب عن السؤال عن مطلب «لَم هو»(٢). انتهىٰ ما أردنا نقله.

---

(١) أنظر شرح المنظومة (قسم الفلسفة): ١٥٣.

(٢) أنظر الأسفار ٧: ١١٣.

وغير خفيّ: أنّه ﵀ ما عقد فصلاً في كتابه الكبير لإثبات وحدة إلٰه العالَم[1]؛ وإن أصرّ في موضع آخر على وحدة العالم وحدة شخصيّة، وأنت خبير بأنّه لو كان يتمّ هذا البرهان في حدّ ذاته، لكان يمكن الجمع بين ذلك وبين تلك الأدلّة؛ يحملها على الكثرة الاعتباريّة؛ لما قد مضىٰ من أنّ لفظة «العالَم» موضوعة لشيء يكون سعة مصداقه وضيقه تابعين لاعتبار المستعمل، فيصحّ إطلاقه وإرادة ما سواه تعالىٰ، بل قد مضىٰ أنّ من العوالم عالَم السرمد وعالَم الهاهوت، وهي وعاء الذات في وجه تخيُّلي ترشيحي، ولكن ما راموه بنبال أفكارهم القديمة ـ غير المشفوعة بالكشفيّات العرفانيّة، وغير المصحوبة مع أرباب الوحي والتنزيل ـ غير موافق للذوق السليم والعقل المستقيم؛ من غير احتياج في مسألة من المسائل الإلٰهيَّة والطبيعيَّة إلىٰ إثبات تلك الوحدة الطبيعيَّة الوهميَّة التخيُّليَّة الفاقدة، لأوّل مرتبة التحقيق، فضلاً عن أعلاه؛ وذلك لما تقرَّر في هذه الأعصار من أجنبيَّة هذه الزاوية من المنظومة الشمسيَّة عن الزوايا البعيدة عنّا بما لا يحيط به علماء السلف؛ حتّى تكون الجواذب المدّعاة بين الأشياء منقطعة؛ وإن لم يثبت عندنا قانون الجاذبة بعدُ، بل أقمنا بعضاً من البراهين علىٰ عدم وجوده في بعض المحافل العلميَّة، فكيف يكون بين هذه الأمور المتفرّقة المتنائيَة غير المترابطة لشدّة البعد، وحدة طبيعيَّة ذاتيَّة؟! ضرورة أنّها وحدة كوحدة الإنسان، وهي ليست وحدة مساوقة للوحدة الواقعيَّة، بل هي وحدة تأليفيَّة، ومع ذلك لا توجد تلك الوحدة في هذه النشأة. نعم كانوا يتخيّلون الهيئة

---

(١) بل قد عقد فصلاً، أنظر الأسفار ٦: ٩٢.

البَطْلَمْيُوسِيَّة» المحدودة بالأفلاك التسعة، فأقاموا علىٰ وحدة الإلٰه بتلك الوحدة برهاناً، ولو كانوا يأتون أبواب البركات والخيرات والأئمَّة المعصومين ـ عليهم صلاة ربّ الراقصات ـ لما خفي عليهم هذه المسائل والمباحث، وإليك نُبذة يسيرةٍ من المآثير؛ حتَّىٰ يتّضح لك حقيقة الحال علىٰ الوجه الأعلىٰ والأحسن:

١ ـ عليّ بن إبراهيم القمّي الكوفي ﷺ عن أبي الحسن الرِّضا ﷺ قال: سمعته يقول: «إنَّ الله خلق هذا النطاق زَبَرْجَدَةً خضراء، فمنها اخضرَّت السَّماء، قلت: وما النطاق؟ قال: الحجاب لله عزَّ وجلَّ، وراء ذلك سبعون ألف عالَم أكثر من عدَّة الجنّ والإنس»[١].

٢ ـ وبإسناد آخر عن أبي جعفر ﷺ، قال: «من وراء شمسكم هذه أربعون عين شمس؛ ما بين عين شمس إلىٰ عين شمس أربعون عاماً فيها خلق كثير، ما يعلمون أنَّ الله خلق آدم أو لم يخلق، وإن من وراء قمركم هذا أربعين قرصاً؛ بين القرص إلىٰ القرص أربعون عاماً، فيها خلق كثير لا يعلمون أنَّ الله خلق آدم أو لم يخلقه»[٢]. الحديث.

٣ ـ محمَّد بن الحسن الصفَّار، عن أحمد بن محمَّد، عن الحسين بن سعيد، عن ابن أبي عُمير، عن أبي أيُّوب، عن أبان بن تغلب، قال: كنتُ عند أبي عبد الله ﷺ، فدخل عليه رجل من أهل اليمن، فقال له: «يا أخا اليمن عندكم علماء؟ قال: نعم. قال: فما

---

(١) بصائر الدرجات: ٥١٢/٧، تفسير البرهان ١: ٩/٤٧، بحار الأنوار ٥٤: ١٥/٣٣٠.
(٢) بصائر الدرجات: ٥١٣/٩، تفسير البرهان ١: ١٢/٤٧، بحار الأنوار ٢٧: ٤٥ ـ ٦/٤٦.

بلغ من علم عالمكم؟ قال: يسير في ليلة واحدة مسيرة شهرين يزجر الطير ويقفو الآثار، فقال أبو عبد الله عليه السلام: عالم المدينة أعلم من عالمكم. قال: فما بلغ من علم عالم المدينة؟ قال: يسير في ساعة من النّهار مسيرة الشّمس سنة؛ حتّىٰ يقطع ألف عالم مثل عالمكم هذا، ما يعلمون أنَّ الله خلق آدم ولا إبليس. قال: فيعرفونكم؟ قال: نعم، ما افترض الله عليهم إلاّ ولايتنا والبراءة من عدوّنا»[١].

٤ ـ وغير ذلك ممّا هو مسطور في كتاب «الكافي» وغيره، ومن شاء فليراجع[٢].

فعلىٰ ما تقرّر تكون الآية الشريفة وهذه الأحاديث المنيفة، دليلاً ظاهراً علىٰ عدم توحّد العالم وحدة حقيقيّة، خلافاً لما هو المعروف عن أبناء البرهان، فافهم ولا تكن من الهالكين.

(١) بصائر الدرجات: ٤٢١/١٥، تفسير البرهان ١: ٤٨ ـ ١٦/٤٩.
(٢) راجع بحار الأنوار ٢٧: ٤١.

بعض البحوث الفلسفيّة

كيفيَة خلق آدم

إنَّ من المحرّر في محلّه: أنَّ جميع الموجودات المركبة الطبيعيَّة، مقرونة بالمادَّة والمدَّة، وحاصلة من الحركة ومن المبادىء السابقة والعلل الإعدادية الَّتي تنتهي إليها، وتوجب صلاح مادَّة الشيء لفيضان الصورة الكماليَّة في قبال الموجودات الإبداعية والاختراعية، فعلىٰ هذا يشكل الأمر لأجل أنَّ هذا المجعول في الأرض ـ المعروف باسم آدم ـ من المجاعيل المنتسبة إليه تعالىٰ بلا سبق الحركة والمادَّة، وبلا سبق النظام العامّ والقانون الكلّي في العلل والمعاليل؛ ضرورة أنَّ هذا المجعول غير مسبوق بالأب والأُم، فكيف يمكن الالتزام بوجوده حسب الوجود الكائن والموجودات الكائنة على الاصطلاحات الفلسفية، فهو أشبه بالمخترعات، وإن لم يكن من المبدعات والمجرّدات بالضرورة، والالتزام به غير ممكن، كما هو واضح عند أهله.

ولو كان المراد من هذا المجعول معنًى يُشبه سائر المجاعيل الطبيعية، ويكون إسناده إليه تعالىٰ كإسناد سائر المصوَّرات والمواليد إليه تعالىٰ، فلا يُخصّ هذا الجعل بآدم، بل كلّ آدم وجميع بني آدم مجعول الله في الأرض ومخلوقه حسب القانون العامّ.

أقول: لا شبهة في أنَّ الأرض من الحوادث في هذا العالَم، وفي هذا الجوّ من النظام الشَّمسي والنظام الكلّي، ولا شبهة في أنّها أسبق وجوداً علىٰ وجود هذا المجعول بالضرورة، وقد مرَّت عليها الأزمان والأحيان، وتصرَّمت الدهور وانقضت العصور؛ حتّىٰ وجد فيها موجود يُسمّىٰ بالإنسان، وعلىٰ هذا يتوجَّه الإشكال علىٰ جميع ذوي الشعور وأرباب الفهم وأصحاب العقول، ويتوجَّه السؤال عن كيفيَّة حصوله.

وغير خفيّ: أنَّ إرجاع حصوله إلىٰ سائر الحيوانات، لا يورث حلّ المعضلة لنقل الكلام إلىٰ الحيوان الأوّل، وسيمرُّ عليك البحث حول هذه الجهة إن شاء الله تعالىٰ.

وبالجملة: ما في هذه الآية من جعل الخليفة في الأرض، لا يلزم أن يكون متّحداً مع ما في قوله تعالىٰ في الآية الآتية: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ﴾؛ لاحتمال كون المتعلّم للأسماء من أولاد تلك الخليفة، وهو الظاهر كما مرّ، فالبحث عن تطوّرات آدم المتعلّم وكيفيَّة خلقته، غير البحث عن هذا المجعول في الأرض المسؤول عنه في سؤال الملائكة والمنسوب إليه الإفساد والسَّفك، فلا تخلط.

وبالآخرة تبيّن: أنَّ هذه الآية ناظرة إلىٰ كيفيَّة وجود آدم الأوّل، وأنّه لا يستند إلى آدم آخر، بل هو مستند إلىٰ جعل الله تعالىٰ، وهذا ممّا يشكل أمره ويريب جدّاً؛ لأنَّ حصول آدم الأوّل لو كان من جهة اجتماع الشرائط اللازمة المعدَّة والدخيلة للزم ذلك في الأحيان والعصور المتأخِّرة، مع أنّه أمر غير معهود، ولا معنىٰ لاختصاص تلك الشرائط بعصر دون عصر ومصر دون مصر هذا أوّلاً.

وثانياً: لا يكون أمراً خارجاً عن قانون العلية والمعلولية، وعن النظام الكلّي الساري والنافذ في العالم.

ولأجل ذلك صارت هذه المسألة من المعاضل والمشاكل العلمية: وأنّه هل آدم الأوّل غير مسبوق بآدم، أم لا؟ وأنّه هل يكون مسبوقاً بحيوان متبدّل إليه تدريجاً، أم من جنس آخر كالجنّة والملائكة الّذين يشبهون الجنّة والأناسي في التوالد والتناسل، وذهبت العقول إلىٰ مذاهب شتّىٰ، وصارت صرعىٰ، ولأجل ذلك يقع البحث هنا في مراحل:

المرحلة الأُولى: كيفيّة خلق الحيوان

هذه المرحلة في أصل كيفيّة وجود الحيوانات الحيّة في الأرض بعد ما لم تكن فيها؛ بضرورة كافّة العقول، وأنَّ الشرع أيضاً يشهد علىٰ تأخّر خلق ما في الأرض عن خلق الأرض.

فعلىٰ هذا نقول: إنَّ من الممكن أن تكون الشرائط لحصول نُطف الموجودات الحيَّة مخصوصة بالعصور القديمة؛ لما أنَّ الأرض كانت ذات رطوبة خاصَّة غير الرطوبة الموجودة، وذات حرارة غير ما هي بين أيدينا، ومن تلك الأشعَّة والشرائط وفقد الموانع حصلت الصغار من الحيوانات، ثمَّ تبدَّلت الصغار في التطوُّرات إلىٰ الكبار، ولأجل اختلاف الأماكن الحاصل من اختلاف الأرياح، اختلفت الحيوانات الثواني والثوالث... إلىٰ أنَّ تشتّتت المواليد المتأخّرة حتّىٰ استعدَّت المادَّة لحصول صورة آدم الأوَّل، فيكون بأمر الله كلّ شيء من المبادىء والخواتم، ولا بأس باختلاف الأشياء علىٰ حدّ التباين في العصور المتأخّرة، ولو كانت ترجع إلىٰ الأصل الواحد، كما هو

مقتضىٰ البرهان، فإنَّ القدرة والعلم والإرادة والحياة متباينات بحسب الآثار والتعاريف في لباس الكثرات، مع أنَّ جميع هذه الأُصول ترجع إلىٰ أصل الوجود البسيط الواحد؛ حسب البراهين القطعية والأدلّة النقلية المحرَّرة في محلّه.

ولا برهان عقلي علىٰ امتناع هذا الاحتمال، كما لا برهان علىٰ أصالته وواقعيته.

وربَّما يؤيّد إمكان ذلك التجريبات الكثيرة المشهودة في القديم والحديث، فإنَّه ربَّما يتولَّد الحيوان من اجتماع الشرائط الخاصَّة؛ من غير حاجة إلىٰ التوالد والتناسل وإلىٰ البذور والبيض؛ لكفاية الإمكانات الاستعدادية الحاصلة في الموادّ لنزول الصور من مصوّر الصور وخالقها، إلاَّ أنَّ ذلك لم يُعهد في الحيوانات الكبار، وربَّما يوجب عدم معهودية ذلك في الكبار أنَّ في الصغار أيضاً، تكون البذور والنطف لازمة.

وعند ذلك لنا أن نقول: إنَّ هذه الموادّ انتقلت من الكرات السَّماويَّة بالأسباب الخاصَّة، أو أُرسلت من تلك السَّماويَّات بالأسباب الهادية؛ لأجل تمدُّنهم وحداثتهم وحضارتهم وتقدُّمهم، فربَّما كان آدم الأوَّل ـ مثلاً ـ أيضاً مرسلاً من تلك الديار، كما رحلوا من الأرض في عصرنا هذا ـ عصر تسخير الفضاء (١٩٧٥م ـ ١٣٩٥ القمري الهجري) إلىٰ القمر وما وراءه ـ.

وأمَّا الإشكال بنقل الكلام إلىٰ تلك الكرات والسَّماويَّات، فهو مدفوع عند أهله، فإنَّه ليس من التسلسل المستحيل، بل هو من التسلسل الجائز عند الفلاسفة، الممتنع عند المتكلّمين، ويعبَّر عنه

بالتسلسل التعاقبي والتعاقب في المعدَّات، دون العلل الواقعية، وقد قال الحكيم الطوسي ـ قدّس سرُّه القدُّوسي ـ: إنَّ ممَّا يُمتحَن به الصبيان: هو أنَّه هل الدجاج مقدَّم علىٰ البيض أم البيض مقدَّم على الدجاج[١] فإنَّه من المشاكل جدّاً، ولكنَّه عنده يمتحن به الصبيان، فلا تغفل.

وغير خفيّ: أنَّ قوله تعالىٰ: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ لا يُنافي أن يكون ذلك الخليفة موجوداً في بعض السَّماويَّات، ثمَّ جعل في الأرض خليفة عن الله، أو عن الأحياء السابقين عليه علىٰ الاختلاف الموجود بينهم، وقد مرَّت الإشارة إليه.

وهذا كلّه مع قطع النظر عن الأدلَّة الخاصَّة الناهضة من الإسلام والإلٰهيِّين المنتحلين للديانات، ومن الطبيعيِّين المتكئين علىٰ جملة من التخمينات والحدسيات المشفوعة بالتجارب الجزئية وبالاحتمالات.

فمن نظر الفيلسوف الإلٰهي الواقف على رموز العوالم، وعلى كيفيَّة العلل والمعاليل حسب القوانين العامَّة العقلية، يكون الأمر واضحاً؛ لأنَّه لا يهمّه القضيَّة الخارجية الشخصية، وإنَّما ينظر إلى أنَّ إمكان كون هذه الحوادث متعاقبة دائماً بمكان من الوضوح؛ من غير حاجة إلى الالتزام بكون البيض خُلق أوّلاً، ثمّ في محيط خاصّ حصل منه الدجاج، أو يُقال: إنَّ الدجاج حصل أوّلاً؛ لأجل اجتماع الشرائط، مع بعده، بل وامتناع الاتّفاق، فلابدَّ من مباشر عاقل، وهذا لا يكون خارجاً عن قانون العلل والمعاليل، وسيظهر توضيح هذا الأمر في طيّ البحث الآتي إن شاء الله تعالى.

---

(١) راجع مصارع المصارع: ١٧٠.

المرحلة الثانية: نظرية «التطوُّر» في كيفيَّة خلق آدم:

فذهب جمع من الغربيّين، وفي طليعتهم ـ الَّذي ضبطه التاريخ ـ رجل يُسمَّىٰ بـ«لامارك» في القرن التاسع عشر، ثمَّ بعده رجل معروف إلى الآن يُسمَّىٰ بـ«داروين»، وتُسمَّىٰ نظريته بنظرية «التطوُّر»، وكان أصل النظرية واحتمالها موجوداً في القرون القديمة حتَّى قيل: إنَّه سبق على عصر المسيح بخمسة قرون، وهذه النظرية مقرونة بالتجريبات والتقريبات والذوقيَّات، مع طائفة من التوهّمات والتخيُّلات المشحونة بالحفريات الحاوية لهياكل الأناسي من القرون القديمة جدّاً.

وإجمالها: أنَّ الحيوانات البحرية والأسماك في التطوُّر بلغت إلى الزواحف، وهي في التطوُّرات الطويلة إلى الحيوانات وهي إلى الحلقة القريبة من الأناسي، وهي القردة، وهي إلى الإنسان لقرب الإدراكات والأشكال والحركات.

وغير خفيّ: أنَّ هذه المسائل لا تتحمَّل البراهين العقلية، ولا يمكن نهوض الأدلَّة الفلسفيَّة على إثباتها أو نفيها؛ لخروجها عن الكلّيات العقلية، ومجرَّد القرب والذوق لا يكفي، كما أنَّ مجرَّد البعد أيضاً لا يمنع، فتكون داخلة في قاعدة معروفة؛ وهي كلّ ما قرع سمعك من عجائب الزَّمان وغرائب البلدان، فَذَرْهُ في بُقعة الإمكان ما لم يذُده قائم البرهان[1]، كما قال الحكيم السبزواري:

في مثل ذَرْ في بقعة الإمكان ما لم يذُده قائم البرهان[2]

(١) الإشارات ٣: ٤١٨.

(٢) راجع شرح المنظومة (قسم الفلسفة): ٥١.

وقد تحرَّر: أنَّ المراد من هذا الإمكان ليس إلاَّ مجرَّد الاحتمال، دون الإمكان الذاتي والوقوعي والاستعدادي، فإنَّها تحتاج إلى البرهان.

فعندما لا يمنع العقل عن تلك التطوُّرات فسيوجد المتطوّر في العالَم كثيراً؛ ضرورة إمكان اختلاف الاستعدادات طول الأزمنة، وباختلافها تختلف الصور والفيوضات، فإنَّها تابعة لتلك المعدَّات والإمكانات الاستعدادية، الَّتي يحصل اختلافها باختلاف الشرائط، المستندة إلى تبادل الرياح والحرارات والرطوبات ومقارناتها.

وممَّا ذكرنا تبيّن: أنَّ إبطال هذه النظرية المسمَّاة بنظرية «النشوء والارتقاء»، ممَّا لا يكاد يمكن بالبراهين الفلسفية، كما لا يمكن إثباتها بها، وتوهّم: أن تبدّل الأنواع غير ممكن من الأباطيل، فإنَّ ما هو الممتنع هو تبدّل ماهية وصورة جوهرية إنسانية إلى صورة جوهرية حمارية، وأمَّا الإنسان الجوهري فيجوز أن يتشكَّل بشكل الحمار، كما ثبت ذلك في البرازخ وغيرها، وأنَّ حديث المسوخ لا يرجع إلى تبدُّل الصورة المتعصيَّة الآبية إلى الصورة الأُخرى، بل هي في الحقيقة من قبيل تبدُّل صور النُّطفة إلى العَلَقة... وهكذا إلىٰ الصورة الأخيرة، وهكذا يجوز أن يتحرَّك القردة إلىٰ الإنسان؛ لا بمعنىٰ حركة مشخَّص خاصّ منها إليه، بل في طيلة الأزمان ـ لأجل تبادل الأحيان وتوارد الحدثان ـ يشرع النطف ـ حسب اختلاف الصور ـ يسيراً يسيراً إلىٰ أن تصير قابلة لصورة متوسِّطة، وهكذا إلىٰ أن تصير آدم الأوَّل الكامل خِلْقةً وخُلقاً ومَنطِقاً وفهماً.

كلّ ذلك لا يتجاوز حدّ الجواز والإمكان والتقريب والذوق

والميول والحدسيات، ووقوع أمثال ذلك في النباتات بيد الإنسان، لا يكشف إلاّ عن الإمكان في الحيوانات بيد الموجود الآخر المشرف عليها الّذي يُسمّىٰ بالجانّ أو الملائكة أو النسناس أو غيرها، كلّ ذلك سمعيات ظنّيّة، وإنّ الظنّ لا يُغني عن الحقّ شيئاً.

وغير خفيّ: أنّ ممّا يوجب استبعاد هذه المقالة عدم معهودية مثلها بعد ذلك، فإنّ التطوُّر الجائز عامّ مكاناً وزماناً، ولا ينحصر بآدم الأوّل، كما أنّ الأدلّة القائمة الناهضة على قرب هذه المقالة، كلّها حدسيات متّخذة عن الحفريات، فإنّ ذلك لا يُنافي اختلاف أفراد الإنسان اختلافاً كثيراً وسيعاً؛ لاختلاف المياه والأرياح وحرارة الشّمس وغيرها، والاستبعادات الّتي اتّخذ المتأخّرون لإبطال هذه المقالة، غير صحيحة؛ لأنّها مقالة ظنّيّة لا تحتاج إلىٰ الإبطال، ولا يلزم ممّا ذكروه امتناعه، ولا يلزم بُعدها أحياناً، كما هو واضح لدىٰ أرباب البصائر.

وبالجملة: جميع الأُصول المذكورة في كتاب «داروين» تبعاً لمقالة «لامارك» لا تصل إلىٰ حدود البراهين، ولا تتجاوز سطوح الذوقيّات، وأنّىٰ ذلك عن الواقعيّة؟! مع أنّهم إذا كانوا لا يتمكّنون من حلّ مُعضلة الحيوان الأوّل، وهي الأسماك المتبدّلة وكيفيّة حدوثها وتحصُّلها، ولو أجابوا عنها بما عندهم من التخيُّلات، لكان هو الجواب عن آدم الأوّل، فلو كان الحيوان الأوّل، متحصّلاً من الاصطكاكات الخاصّة بين الأشياء؛ من التقارب والتمازج المخصوص، لكان ذلك موجباً لجواز اجتماع هذه الشرائط للإنسان الأوّل وغيره، مع أنّه يبقىٰ السؤال عن وجه انفصال هذا الأمر بعد

ذلك، ولا يتمكّنون من جوابه، وأنّه ما وجه عدم تبدُّل الأسماك بعد ذلك إلى الزواحف. . . وهكذا إلىٰ آدم الأوّل، مع أنّه لابدّ من جوازه.

فعلىٰ ما تحصّل إلىٰ هنا تبيّن: أنّه لا يمكن الاعتماد والركون علىٰ هذه المقالات، كما لا يخفىٰ علىٰ ذوي الشعائر والفضائل.

المرحلة الثالثة: نظرية المسلمين في خلق آدم

ذهب المنتحلون إلىٰ الديانات السّماويّة في خصوص آدم الأوّل؛ إلىٰ أنّه خلق جديد غير متبدّل عن حيوان قبله، بل التزموا بأنّه ممّا خلقه الله أوّلاً، ثمّ خلق سائر الأفراد من هذا الخلق؛ حتّىٰ ذهبوا إلىٰ أنّ الأم الأولىٰ خُلِقت بإذن الله تعالىٰ، واعتقد الأئمّة من المسلمين بأجمعهم: أنّ المستفاد من الكتاب الإلٰهي أنّ آدم الأوّل خلق في الأرض من غير أب ولا أمّ، وعليه الأخبار المتواترة والروايات المتعاضدة؛ ممّا لا يكون للعقل إليه سبيل، فيكفي لهم التنزيل المصدّق عندهم، ولا يصدّقهم غيرهم؛ لعدم الإذعان لكتبهم السّماويّة.

وربّما يظهر من الفلاسفة الإسلاميّين: أنّ الأنواع مخلوقات أصلية استقلاليّة، ولا يرجع أحد الأنواع إلىٰ النوع الآخر، وقد مرّ أنّه لا تنافي بين تلك المقالة ومقالة التطوّر؛ لإمكان كون التطوّر علىٰ وجه يستند الأنواع المختلفة إلىٰ النوع الواحد، وأمّا حديث أرباب الأنواع وربّات الطبائع النوعية، فهو يستدعي وجود الطبيعة في عالَم المادّة، وأمّا أنّها في الأرض أو في موطن آخر، فهو أجنبيّ عن البحوث العقلية الصّرفة. نعم إنّ الفلاسفة لمكان إذعانهم للهيئة الفاسدة

البطلميوسيَّة، ابتُلوا بمشاكل مختلفة لا تنحلّ إلاّ بعد انحلال أصل المقالة، كما تحرّرنا منّا في «قواعدنا الحكمية» في الفلسفة الإلٰهيَّة.

والَّذي هو الأصوب في أُفق القواعد العقلية والأقرب إلىٰ مقتضيات البحوث العلمية ـ لولا قيام الأدلَّة الأُخرىٰ الآتية ـ: أنَّ آدم الأوَّل في الأرض مستند إلى آدم آخر إلاّ أنَّه لم يكن في الأرض، ويجوز أن يكون قادماً من الكرات السَّماويَّة والسَّماوات السُّفلية والعُلْوية؛ لأجل تمدُّنهم وحضارتهم العالية... وهكذا. وقد أشرنا إلىٰ جواز أزلية الأنواع، إلاّ أنَّ أبدية الأنواع قطعية، إلاّ أنَّ محيط المعاش وقطر الحياة يختلف فلكاً وسماء وأرضاً وفضاء... وهكذا.

وتوهّم: أنَّ العالَم لم يكن ثمَّ كان، فاسدٌ، للزوم منع الفيض غير المتناهي، فعالَم المادَّة علىٰ الإجمال باقٍ وأزليّ، إلاّ أنَّ ما هو الأبدي معنىً كلّيّ لا شخصيّ، وما هو الأزلي أيضاً نوع وكلّيّ لا شخصيّ، بخلاف أبديَّة الله تعالىٰ وأزليَّته، ومادَّة كلّ صورة في العالم قائمة بتلك الصورة الشخصية وإن كانت هذه الصورة الشخصية مرهونة بوجود المادَّة السابقة الفانية القائمة بصورة أُخرىٰ... وهكذا، وهذا ممّا لا ينبغي خفاؤه علىٰ ذوي العقول والأنظار.

المرحلة الرابعة: حول الأدلَّة النقليَّة:

بقي النظر في الآثار الحاكية عن ذلك، ودفع ما يتوهَّم تنافيه معها من الآيات والآثار:

أمّا في الآثار: ففي جملة من الأخبار سُئل المعصوم عليه السلام: «هل كان قبل آدم آدم؟ قال: نعم. وسُئل: هل كان قبله آدم؟ قال: نعم. ثمّ

قال: كلّما سُئلتُ عن ذلك فالجواب: أنّه كان قبله آدم»[١]، فانظر إلىٰ رقاء هذه النظرية.

وفي رواية عن النّبيّ ﷺ: أنّه نهىٰ عن السؤال عمّا بعد عدنان[٢]، ولعلّه للإيماء إلىٰ أنّه لا ينتهي إلىٰ حدّ؛ وإلىٰ شخص لا يكون وراءه شخص آخر.

وفي تفسير العيّاشي في ضمن رواية ـ ربّما تأتي ـ قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «إنّ آدم عليه السلام كان له في السّماء خليل من الملائكة، فلّما هبط آدم من السّماء إلىٰ الأرض استوحش الملك، وشكا إلى الله تعالى، وسأله أن يأذن له، فأذن له، فهبط عليه، فوجده قاعداً في قَفْرة من الأرض...»[٣] الحديث.

وفي أخبار أُخر: أنّ جنّة آدم كانت في السّماء[٤].

فبحمد الله نجد تقارن العقل والنقل إلىٰ الآن.

وأمّا ما يستفاد من طائفة من الآيات: فقبل الإشارة إليها لابدّ وأن يعلم كلّ ذي شعور: أنّ كلّ فرد من أفراد الإنسان مخلوق من التراب والنُّطفة... وهكذا، ولا يُخَصُّ آدم خاصّ باختلاقه من التراب؛ ضرورة أنّ النُّطفة حاصلة من الأغذية، وجميع الأغذية تتكوَّن من التراب علىٰ وجه يصحّ استناد كلّ إنسان إلىٰ التراب. فعلىٰ هذا ما ترىٰ في الآيات من خلق آدم من التراب لا يورث اختصاص آدم خاصّ

(١) راجع سفينة البحار ٢: ٢٢٩.
(٢) راجع بحار الأنوار ١٥: ١٠٥/٤٩.
(٣) راجع تفسير العيّاشي ١: ٣٢/١٠.
(٤) راجع تفسير القمّي ١: ٤٣، وتفسير العيّاشي ١: ٣٢.

شخصي بذلك، وأظهر الآيات في هذه المسألة قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾(١) ولا شبهة في أنَّ عيسىٰ ليس خلقه من التراب كخلق الظروف والأواني الَّتي تطبخ من الترابُ، بل هو موجود تربَّىٰ في بطن مريم حسب الحركات والحرارة اللازمة إلىٰ أنْ تجسَّدت بالجثمان المشتمل علىٰ تلك الدقائق الَّتي روعيت في بدن كلّ إنسان من العروق الشعرية إلىٰ العظائم وسائر العضلات والأمعاء والأجزاء الأُخر الداخلية والخارجية الَّتي يبلغ عددها إلىٰ أكثر من بليون جزءٍ صغيرٍ وكبيرٍ، كما تحرَّر في علم تشريح الأجساد في هذه الأعصار.

فخلق آدم مثل خلق عيسىٰ، وكما لا يجوز أن يتوهَّم خلاف السُّنَّة الإلٰهيَّة في خلق آدم، كذلك لا يجوز ذلك في خلق عيسىٰ، وكلّ ذلك على حسب السُّنَّة القديمة الأبدية العقلية الإلٰهيَّة.

(١) آل عمران (٣): ٥٩.

بعض البحوث العقليّة والمسائل الفلسفيّة

المسألة الأولىٰ
حول كيفيّة التعليم

اختلفت كلمات أرباب الفلسفة العليا والحكمة العامَّة في أنَّ تعليمَ المعلّمين إفاضةُ العلم؛ لقبولٍ في المادَّة النفسية والهيولىٰ الموجودة في الطبيعة والطينة، أم المعلّمون يرفعون الحُجُب عن تلك الصور العلمية، الموجودة في الطبيعة بنحو من البساطة والاندماج.

هذه المسألة ـ مضافاً إلىٰ أنَّها محطّ الخلاف ومحلّ النقض والإبرام والقيل والقال وإن قلت قلتات ـ من المشاكل الإلٰهيَّة والمعاضل الطبيعية: لارتباطها بالمسائل المختلفة، ولم يتبيَّن لأصحابها مرامهم حقّه ومرادهم واقعه، ولأجل ذلك نجد في هذه الآية الشريفة ما يفي بالمسألة حقّها ويتبيَّن بها حقيقتها؛ إذ يقول الله تعالىٰ: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾، فإنَّها ظاهرة في أنَّ طينة آدم كانت مجرَّد القابلية؛ لأنَّها قد تحرَّكت بالحركة الطبيعية من المادَّة السُّفليَّة ومن الأرض الأولىٰ إلىٰ طبقات السَّماوات من العَلقة والمُضغة. . . وهكذا إلىٰ أن تهيَّأت لنزول الصور العلمية فيها كلّها، وحيث كان الفيض عامّاً والفاعل تامّاً، نزلت عنده الصور برُمَّتها والأسماء

بأجمعها، فلا يكون المعلّم إلاّ الله تعالىٰ، فالقول بأنَّ التعليم رفع الحجب عن تلك الهيولىٰ والمادّة غير مصيب في وجه.

وحيث قد عرفت أنَّ آدم المعلَّم ليس هو الآدم الشخصي الخارجي البالغ سنين، بل هو جهة كلّية آدمية موجودة في كلّ إنسان وفي بني آدم كلّهم، فتلك الطينة فيها العلوم كلّها علىٰ نحو البساطة والاندماج، وعلىٰ نحو الاختفاء، وأنَّ الأسماء مُفاضة عليها من ذي الأسماء؛ لما فيه من تلك القابلية الخاصَّة، بخلاف الملائكة المتكيفة البالغة حدّها الوجودي، يتبيَّن لك بعد ذلك أنَّ المعلِّم يرفع الحجب ولا يُفيض، فإنَّ الإفاضة حقّ الله تعالىٰ، ولا يعطي الصورة، بل هو مذكّر ما سلف في معراج آدم، وينبِّه علىٰ ما عنده المكتوم من القديم البعيد، فالقول بأنَّ المعلِّم يُفيض باطل عاطل من وجه، وكلا القولين حقّ؛ نظراً إلىٰ ما حرَّرناه وقرَّبناه، وقرأنا لك فاستمع لما يوحىٰ إليك، ولا تكن من الجاهلين، والحمد لله ربّ العالمين.

المسألة الثانية
حول تجرُّد النَّفس

من المسائل الَّتي تستنتج ـ حسب الموازين العقلية ـ من هذه الآية أنَّ آدم فيه من القوَّة في قوس الصعود إلىٰ أن يصير جامعاً للأسماء الإلٰهيَّة والصفات الكلّية والسعة الوجودية علىٰ وجه به يتمّ القوس، ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩﴾[1] فهذه المادَّة القابلة للتعليم

(١) النجم (٥٣): ٩.

بالخروج من الضعف إلىٰ القوّة ومن النقص إلىٰ الكمال ومن الهيولىٰ إلىٰ الصورة المطلقة؛ بالحركة الجوهرية الذاتية الطبيعية العشقيَّة السَّجلية، فليس تعليمه تعالىٰ خارجاً عن قوانين العلَّة والمعلول، وعن مسائل العالَم الإلٰهيَّة والطبيعيَّة، وتعليمه تعالىٰ كتعليمه لي ولغيري، إلاّ أنَّ الموادّ تختلف باختلاف القابلية، الَّتي تستند إلىٰ العلل السابقة والمعدَّات الموجودة علىٰ ما تحرَّر في محلِّه.

وقد اشتركت الطينة الكلّية الآدمية في تلك القابلية العامَّة، واختلفت في الاحتجابات اللاحقة من قبل العلل والمعدَّات والآباء والأُمَّهات ـ كما ترىٰ ـ حسب الأفراد والأشخاص، فإذا كانت فيه القابلية العامَّة للأسماء الإلٰهيَّة والصفات الكلّية ـ بنحو العموم والاستغراق ـ يتمّ قوس الصعود بوصوله إلىٰ مقبض الوجود ومبسطه، وهذا ممَّا لا يتيسَّر إلاّ للمجرَّد الكلّي المتجاوز عن حدّ المادَّة إلىٰ تلك الحدود الكلّية السعية، ويثبت بذلك تجرُّد آدم أوّلاً وقابليته للتجرُّد التامّ الَّذي فيه من الأسماء كلّها، وربَّما فيه أيضاً السرّ المستسرّ والاسم الخاصّ الَّذي أستأثر به الله تعالىٰ لنفسه، فإنَّه أيضاً فيه حسب هذه الآية الشريفة العامَّة، كما نشير إليه في بحوث عرفانية إن شاء الله تعالىٰ.

وبالجملة: مقتضىٰ هذه الآية لزوم التجرُّد للنفس، الَّذي هو محلّ الخلاف بين الفلاسفة والمتكلّمين، مع أنَّه تجرُّد بالغ غايته واصل نهايته، فالعجب من المتكلّم المتشرّع كيف يرضىٰ بمادّية النَّفس؛ وبأنَّ الرُّوح شيء لطيف وجسم ظريف، أو أنَّها كالريح؛ غافلين عن هذه الآية المباركة، والله هو المستعان علىٰ ما يصفون.

المسألة الثالثة

حول حديث النَّفس

اختلفوا في أنَّ النَّفس روحانية الحدوث والبقاء، أو جسمانية الحدوث وروحانية البقاء على أقوال[١]، بعد اتّفاق أرباب العقل على أنَّها روحانية البقاء، كما تحرَّر في المسألة الثانية.

وقد اشتهر القول بروحانية الحدوث والبقاء بين الإشراقيين والمشّائين، إلاّ أنَّ الطائفة الأولىٰ قالوا بقدم النُّفوس[٢]، والثانية قالوا بحدوثها بمجرَّد حدوث البدن القابل لتعلُّق الرُّوح به[٣]، وقال معلّم الحكمة المتعالية ومؤسّس المناهج الجديدة: بأنَّها جسمانية الحدوث وروحانية البقاء[٤].

وعند ذلك ربَّما يُستشمّ من الآية الشريفة بانضمامها إلىٰ الآية السابقة: أنَّ آدم في قوس النزول علّم بالأسماء وعرضها علىٰ الملائكة، وأنَّ الله تعالىٰ قاول مع الملائكة في هذه القصّة؛ برفع الحجب وبإبراز ما في آدم من الفساد، ثمَّ إعلام ما فيه من علم الأسماء... وهكذا، فعلىٰ هذا كانت النَّفس الآدمية قبل أن تتعلَّق بالبدن، وتصير خليفة في الأرض، كانت مورد التعليم الإلٰهي، ومهبط

---

(١) راجع الشفاء (قسم الطبيعيّات): ٣٥٣ ـ ٣٥٥، وشرح الإشارات ٣: ٢٦٠ ـ ٢٦٣، والأسفار ٨: ٣٢٥ ـ ٣٨٠.

(٢) راجع الأسفار ٨: ٣٣١، وشرح المنظومة (قسم الحكمة): ٢١٦.

(٣) راجع الشفاء (قسم الطبيعيّات): ٣٥٣ ـ ٣٥٥، وشرح الإشارات ٣: ٢٦٠ ـ ٢٦٣.

(٤) راجع الأسفار ٨: ٣٢٥ ـ ٣٨٠، والشواهد الربوبيّة: ٢٢١ ـ ٢٢٤، والمبدأ والمعاد: ٢٢٣.

الأسماء السَّماويَّة، فتكون روحانية الحدوث، ويؤيّد بها قول الأسبقين والمشهور بين العقلاء والمتفكّرين من الإشراقيين المشّائين.

أقول: إنَّ المحاجَّة والمقاولة كانت علىٰ نهج الرمز بين الملائكة وربّهم الأعلىٰ، وأمَّا الملائكة فهم كانوا يتوجَّهون إلىٰ فساد آدم حسب تخيُّلهم؛ من جهة ما كانوا يشاهدون من أبناء النسناس والشيطان أو من أمور أُخر، ومنها مناسبة الأرضِ والمادَّةِ المركَّبة والسفك والإفسادَ كما مرّ، فلا يلزم إلىٰ هنا تقدّم خلقة آدم بحسب الرُّوح علىٰ البدن، ثمَّ بعد ذلك يمضي مدَّة مديدة حتَّى تصلح المادَّة البدنية لنزول الصورة الآدمية والإنسانية، وتحرُّكِها نحو الكمال اللائِق بحاله، وتعلّمه الأسماء الإلٰهيَّة، وتعيّنه بالصفات الرَّحمانيَّة، وبلغ حين الاحتجاج علىٰ الملائكة، والتفاتهم إلىٰ جهالتهم في النقاش بالعرض عليهم، ما حصلت له من الصفات والكمالات الَّتي لا تنبغي للملائكة، إلاَّ من شذَّ منهم، وكان ذلك الحصول في قوس الصعود؛ لإمكان أن يشاهد البشر ملائكة الله وهو متعلّق بالبدن روحاً، كما كان كثير من الصدّيقين والأنبياء والأولياء، ويتكلَّمون معهم، وقد ورد في مواضع من الكتاب ما يصرِّح بذلك، قال الله تعالىٰ، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾[1]، ومن الآيات الشاهدة على هذه المقالة من البدو إلى الختم قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ﴾[2]، فيكون آدم الكلّي السّعي والطينة والمخمَّرة بيدي الرَّبّ الجليل؛ لورود الأمر بالسجود، كما أنَّ الخلق قبل التصوير

(١) فصّلت (٤١): ٣٠.

(٢) الأعراف (٧): ١١.

والإكمال ـ مع وحدة الخطاب ـ يشهد علىٰ جسمانية الحدوث، وأنّ النطفة قوّة الإنسان وإنسان بالقوّة، فيخاطبه الله بأنّه خلقكم، ثمّ صوّركم بنفخ الرُّوح فيه؛ حيث إنّ جميع صور العالم بنفخ الله تبارك وتعالىٰ، ألاّ الله أنّ تعظيم شأنه اقتضىٰ الاختصاص المذكور، فدلالة هذه الآية الشريفة ـ والآيات السابقة ـ على أنّ النّفس روحانية الحدوث، محلّ منع، كما تمنعه العقلاء.

بعض البحوث
العرفانيّة والمسائل الإيقانيّة

البحث الأوّل
في تعليم الأسماء

اعلم أنَّ هذه الآية الشريفة[١]؛ لاشتمالها علىٰ ضمير المفرد والمؤنّث مع كون مرجعه الأسماء، وعلىٰ ضمير الجمع المذكّر للعقلاء مع أنَّ مرجعه ذاك المرجع، تشير إلىٰ مائدة سماويّة ومقالة عرفانيّة، وبها تنحلّ مشكلة الآية وإنَّما اختلف أرباب التفسير والقشريّون فيما ليس من شأنهم التدخُّل فيه، وسيمرُّ عليك: أنَّ ما في بعض الأخبار المنسوبة إلىٰ أئمّة الهدى عليهم السلام أيضاً يؤكّد هذا النمط الشريف وهذا المنهج المنيف.

قد تبيَّن أنَّ آدم أُنموذج الموجودات السوائية الحاوية لكلّ الكمالات الإمكانية على نعت القوّة البالغة في طينته أحياناً إلىٰ حدّ الفعلية وأنَّ جميع أفراد هذا النوع من الخلق فيه تلك الفطرة الإلٰهيَّة

---

(١) الآية ٣١ من سورة البقرة.

و﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾[١] إلاّ أنّ بعضهم محجوبون، وبعضهم واصلون، وهم قليلون ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾[٢] المتحرّك نحو ما فيه من الكمالات الإلٰهيّة والأسماء الكلّية، الّتي مرّت كيفيّة تقسيمها إجمالاً في سورة الحمد، وحيث إنّ المُسمّىٰ بتلك الأسماء هو الله تعالىٰ لا غير، وإنّ حقيقة الله تعالىٰ تليق بأن تُسمّىٰ بشيء يُعرب عنه، ويكون مظهراً له دون غيره إلاّ ثانياً وبالعرض ومجازاً وقنطرة، فالأسماء في قباله تعالىٰ وفي وجهة النظر المتعدّد، وفي اللحاظ الكثير تكون غير ذات العقول؛ لأنّه تعالىٰ هو عين العقل والعاقل والمعقول، وهوعين العلم والعالم والمعلوم، فلا يصحّ إلاّ أن تعتبر غير ذات العقول، وتلك الأسماء هي الخطوط والروابط والصراط الخاصّ، بين كلّ موجود في نشأة الكثرة وذلك الوجود البحت البسيط و﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ ويُنادي كلّ إنسان في كلّ يوم مرّات ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾، فهذه الأسماء أجنبية عن الألفاظ، وبعيدة عن خواصّ الأشياء والأدوية والكيماويّة والآثار والأبنية والموادّ والهيئات في الأرضين والأمور السّماويّة الّتي توجد في كلمات العلماء القشريّين الإسلاميين والحكماء اللُّبّيين القاصرين، بل هي واحدة في الذّات الأحدية، وكثيرة في الواحديّة الجمعية، الّتي من المناكحات الكلّية والجزئية تحصل اللامتناهية وتجرُّ الخلائق نحوها، وإذا قيل: عرضهم، فهم عين العقل والعقول؛ لأنّهم عين الوجود الجامع بين الغيب والشهود، ولا ينجذب نحوها إلاّ ما هو أكثر ارتباطاً بها وأظهر فيها، تلك الموهبة الّتي منها الموهبة الشيطانيّة

(١) الروم (٣٠): ٣٠.
(٢) سبأ (٣٤): ١٣.

الكلّية الوهمية، فإنّها أيضاً معروضة علىٰ آدم الكلّي السعي، وعلىٰ جميع أفراد الآدم الكلّي الطبيعي، وحيث إنّ الملائكة محدودة، غير واحدة للقوّة الراقية نحو تلك الأسماء علىٰ الإطلاق، بقيت متحيِّرة وعاجزة عن الجواب حسب التكوين المُشعِر به القرآن؛ من غير أن تكون مقاولة لفظية، أو مباحثة خاطرية أو ملاحمة وهمية، أو هواجس فكرية، فلا عرض بحسب ما هو معروض المعلّم عند المتعلّم، مع أنّه عرض أقوىٰ منه بما لا يتناهىٰ، وحيث لا يكون في عالم الألفاظ والخلقة الصوتية ما يؤدّي حقّه يتشبّث بتلك التعابير القاصرة الموجبة للانحطاط، الّذين هم غير واردين وردها وغير متشبّثين بأذيالها وهم أئمّة التوحيد عليهم السلام وتوحيد الأئمّة صلوات الله عليهم أجمعين.

وبالجملة: هذه الألفاظ أسماء لكونها تعرب عن أشياء، وهذه الأشياء أسماء لكونها معربة عن المسيرة، وتلك المسيرة اسم لكونها كاشفة عن جهة السير إلىٰ الله تعالىٰ، وتلك الجهة اسم لكونها موضّحة لوجود المبدأ السيري في المبدأ الأعلىٰ، وهو اسم لأنّه نور يكشف عن البسيطة الإطلاقية، وإنّ تلك الكثرة الأسمائية تنتهي إلىٰ الوحدة الذاتية، وهذا هو أحد معاني الأسماء الخمسة الإلٰهيّة الدارجة في لسان العارفين القائلين: بأنّ الحمد لله تعالىٰ بالألسنة الخمسة أو بالحضرات الخمسة.

فما هو مورد تعليم الله آدم عليه السلام هذه الأسماء بما لها من الإعراب والإيضاح، وما هو المعروض هي المسمّيات الّتي هي عين الأسماء، فالمرجع واحد ذاتاً في الضميرين ومختلف اعتباراً، وغير ذات العقول في القياس إليه تعالىٰ، وكلّ العقول في القياس إلىٰ أنفسهم وأنفس الملائكة.

وغير خفيّ: أنّ من تلك الأسماء هي الملائكة ذواتها، إلاّ أنّ ما

هو المعروض عليهم هي الجهات الأسمائية في الذات الإلٰهيَّة، الراجعة إلى أنفسهم الجاهلين بها وبعودها إليها، أو صدورها منها علىٰ وجه لا يلزم صدور الكثير من الواحد البسيط.

البحث الثاني

ثبوت الشعور لكافَّة الموجودات

إنَّ من المسائل المُبرهنة عند أصحاب الكشف واليقين والمشاهدة، عند أرباب الذوق المستقيم والإيمان القويم، شعور جميع الموجودات بمعنىٰ العلم بالعلم، وأنَّهم ذوات الحياة المشكّكة؛ لأنَّ الوجود عين الحياة والعلم ولا ينقص ولا ينفد، ولا ينسلب عنه شيء في المدارج والمراتب التوهّمية، ولا في الكثرة التخيُّليَّة الَّتي هي عين الواقعية، كما مرَّ مراراً في هذا المضمار، فبعدما تبيَّن معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ يتبيَّن أنَّ جميع الأسماء الَّتي هي عين التكوين، وهي ألفاظ بالقياس إليه تعالىٰ، وأعيان بالنسبة إلينا، عين العقول والشعور والحياة والعلم بالعلم، فلا يصحّ رجوع غير ذوي العقول إليهم وتفصيله يأتي إن شاء الله تعالىٰ عند قوله: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾[1] وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[2] وإليه يشير الشاعر:

نطق آب ونطق خاك ونطق گل هست محسوس حواس اهل دل[3]

(١) النُّور (٢٤): ٤١.

(٢) الإسراء (١٧): ٤٤.

(٣) مثنوى معنوى، دفتر أوّل، بيت ٣٢٧٩.

ويَرمز إلىٰ هذه المائدة تسبيح الحصاة في يده ﷺ الَّتي هي إحدىٰ معجزاته ﷺ فإنَّه ليس إلاّ برفع الحُجُب عن سمع الحاضرين، والله هو الحقّ المبين.

فحديث التغليب فيما نحن فيه من قصور أصحاب التفهيم، ولنعم ما ورد في تفسير العيَّاشي، كما يأتي عن الصَّادق عليه السلام: «أنَّه سُئل عمَّاذا علَّمه؟ قال: علّمه الأرضين والجبال والشّعاب والأودية، ثمَّ نظر إلىٰ بساط تحته، فقال: هذا البساط ممَّا علَّمه»[1] روحي وروح العالمين لتراب قدمه الفداء، فانظر كيف أنَّه عليه السلام كشف النقاب ـ بمقدار فهم السائل ـ عن هذه الحقيقة الَّتي خفيت علىٰ مدَّعي فهم القرآن الكريم؟! والعن اللَّهمَّ من حجب بين الملَّة الإسلامية وعباد الله تعالىٰ وبين أهل بيت الوحي والتنزيل والأئمَّة الهداة المعصومين ـ صلوات الله عليهم أجمعين ـ وسيأتي إن شاء الله تعالىٰ الأخبار الخاصَّة حول الآيات الثلاث في مبحث التفسير والتأويل.

البحث الثالث

حقيقة التعليم من الرَّبّ العليم

لو فرغنا في هذه النظرة عن الزَّمان والمكان، ووجدنا أنَّ الخلق والخالق في هذه اللحظة الجمعية بعيدان عنهما، نجد مسألة لطيفة عرفانية فلسفية، وهي أنَّ تعليمه تعالىٰ عين الإيجاد

---

(١) راجع تفسير العيّاشي ١: ٣٢/ ١١.

علىٰ نعت الفطرة في قوس النزول، وكان ذلك في المراحل الفارغة عن الغيب والشهود، ثمّ بعد حركة آدم عليه السلام في قوس الصعود، تبيّن للملائكة ـ الَّذين خطَر في ذواتهم بعض ما لا ينبغي ـ أنّه كان مستجمعاً للأسماء الإلٰهيَّة والكمالات الأسمائية، البالغة في الحركة الصعودية إلىٰ مرحلة الوجوب والوجود المطلق، فالعرض عرض تفصيلي في قوس الصعود، والتعليم تعليم إجمالي في قوس النزول، وتلك المقاولات كلّها أصوات بلسان الذوات، فيعلم منه تجرُّد الإنسان والنَّفس حتَّى يتمّ القوس الثاني، ويصل إلىٰ المجرَّد المطلق والكامل على الإطلاق، وإلاّ فيلزم الخلاء، وهذا أحد الوجوه المستدلّ به ـ في بعض الكتب العقلية ـ لتجرُّد النَّفس البشرية؛ نظراً إلىٰ لزوم تطبيق القوسين وتكميلهما.

فهذه المحاكمة بين الله تعالىٰ والملائكة، وهذه الاستعراضة الجامعة لجميع الاستعراضات العصرية العسكرية وغير العسكرية، وهذا الفريق الأوَّل الإلٰهي الآدمي، كلّها في هاتين النشأتين الغيبية، والشهودية، بعد تجرُّدهم جميعاً عن الزَّمان والمكان وسائر الأبعاد المتصوَّرة لكونها كلّها داخلة في الأسماء التعليمية، وواردة في قلب الكون الجامع. والله العالم.

وربَّما يُشير إلىٰ هذه المائدة السَّماويَّة من الآية الشريفة قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾[1].

---

(١) الأعراف (٧): ٢٩.

البحث الرابع

حول التعبير بالإنباء

فيه من العرفان الإلٰهي والحكمة الربّانيّة، وهو السرّ المستور حول قوله تعالىٰ: ﴿فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾، ولم يقل الله تعالىٰ: علِّمْهم؛ كي تتوجَّه الملائكة إلىٰ جهالتهم الذاتية ودنوِّهم الواقعي، مع أنَّه مُعلِّمهم، والله تعالىٰ معلِّم آدم، فهم مع لفت نظرهم في هذه الصورة إلىٰ أكملية آدم ﷺ، كيف خوطبوا بالإنباء والإخبار بهم دون التعليم؟ وهل يمكن التفكيك بين الإخبار هنا والتعليم، أو يستلزم الإنباء والاستماع والاطّلاع علمهم بعد ذلك؟!

وذلك أنَّ الفيض الإلٰهي في مرحلة الكثرة يتعلَّق بالماهيات المختلفة في الحاجة إليه، فمنها القواهر الأعلَون، والعقول العرضية وهي القواهر الأدنون، والمُثُل النُّورية فإنَّها يكفي لوجودها ولنزول الفيض عليها مجرَّد الإمكان الذاتي، ولا رقاء لها ولا حالة استكمالية تتصوَّر فيهم طبعاً، ولا جهالة لهم بالنسبة إلىٰ جميع ما دونهم؛ لكونهم العلل أو ممرّ الفيوض الإلٰهيَّة، ومنها الموجودات والماهيَّات المحتاجة إلىٰ الإمكان الذاتي وإلىٰ التقديرات الكميَّة والأبعاد الخاصَّة والكيفيَّات المتخصّصة من قِبَل عِلَلها، فهم أيضاً أنواع ولا أفراد لها ولا حالة انتظارية تتصوَّر في حقّهم.

وأمَّا ما اشتهر بين حكماء السلف من الحاجة إلىٰ المادَّة المحضة دون لواحقها، فهو مجرَّد تخيُّل لا أصل له عندي، كما حرَّرناه في «قواعدنا الحِكَمية»، فإنَّ جميع ما في عالم السُّفْليات ـ سماويات

كانت أو أرضيات ـ محتاجة إلىٰ المادَّة والمدَّة والهيولىٰ والإمكان الاستعدادي والحركة وحصصها؛ كي تصل إلىٰ منزلها أحياناً.

وما اشتهر من تقسيم المادَّة إلىٰ الأثيرية والعنصرية، لا أصل له، بل كلّها عنصريات.

ومنها ما هو المحتاج إلىٰ المادَّة والمدَّة؛ زائداً على الإمكان الذاتي والمقدار المتخصّص له من قبل علَّته أو الحاصل له بعد حركتها إلىٰ غايتها، وتُسمّىٰ الأُولىٰ مُبدَعات، والثواني مُختَرَعات، والثوالث كائنات حسب الاصطلاحات؛ نظراً إلىٰ قصور اللفظ وخوف الإطالة.

وهذه المسائل تستنبط من هذه الآيات، كما مرَّ الإيماء إليه، فإنَّ آدم كان فيه الحالة المنتظرة وإمكان الحركة الذاتية نحو الوجوب الإطلاقي والوجود الحقيقي، فكان فيه الإمكان الاستعدادي والقابلية المتقدّرة بالفيض الأقدس، فعلَّمه الله تعالىٰ ما لم يعلم بخلاف الطائفة الثانية الكاملة في بدو الخلقة، المنزَّهة عن قابلية الحركة إلىٰ ما هو الأكمل عنهم فلذلك أنبأهم بأسماء ولم يعلِّمهم وما أمر آدم بالتعليم لفقدهم شرط التعلُّم.

هذا، ولكن الظاهر من هذه الآيات، أنَّ هذه الملائكة من ملائكة الأرضين والقوىٰ الحاقَّة الشاعرة المسبِّحة والمقدِّسة، المسخَّرة للغيب القابلة للمحاجَّة والمكافحة، الَّتي هي مخالفة للأدب ونوع فساد منهم، وقابلة للعرض والإنباء والمقاولة حسب طبائعهم، فتكون علىٰ هذا هي من الطائفة الثالثة، ولكن علىٰ جميع التقادير تكون المقاولة والمجاوبة والاستعراض شبيهة

صفحات «السينما» وشاشة «التلفزيون»، ولأجل ذلك لا يلزم أن يتعيّن الملائكة الجاهلون بالمصالح والأسماء بتلك الأسماء والكمالات والصفات والوجودات الخاصّة، الراجعة في القوس إلىٰ وجوب الوجود علىٰ الإطلاق.

وبالجملة: لا يلزم بمجرّد رؤيتهم تلك الآثار والغيوب والخواصّ والأسماء ومبادئها البسيطة من شاشة «التلفزيون»، أن تصير ذواتهم مستكملة لكونها مستكفية بحسب الطينة والخِلْقة، ولا تزيد بذلك الاستعراض ذواتهم، ولا تتعيَّن بأعيان الكمالات الواقعية الأسمائية .

البحث الخامس

حول غيب الأشياء

يستظهر من قوله تعالىٰ: ﴿غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أنَّ لكلّ شيء غيباً، فإنَّ العموم استغراقي، فلا شيء فيهما إلاَّ وله غيب وباطن زائداً علىٰ هذا الظاهر، وسرّ وراء هذا المرئيّ، ويستظهر أنَّ ذلك الأمر المُغيَّب واحد شخصي؛ لأنَّ كلمة «غيب» واحدة شخصية، وإنَّما يتكثر ذلك الواحد الشخصي بالإضافات إلىٰ ما في الأرض والسَّماوات، كما أُضيف في اللفظ، فعلىٰ هذا ما هو حقيقة موجودٌ ـ وهو الصادر ـ واحد، وهذه الكثرة الظاهرية كثرة خيالية وهمية، وما به الشيء شيء هو السرّ والغيب، والمختفي تحت جلباب هذا العنوان وتلك العناوين المتكثِّرة في الكثرة الإضافية:

كلّ ما في الكون وهْمٌ أو خَيالٌ أو عكوس في المرايا أو ضِلالٌ

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ۝٤٥﴾[١].

وبالجملة: تحصّل إلىٰ الآن أنَّ ما هو معلوم الله في النشأة الظاهرة واحد بالذات، وهو علمه الفعلي، وهو الوجود المنبسط علىٰ رؤوس الماهيّات الإمكانية والأعيان الثابتة، الّتي تتشكّل بها السّماوات والأرض، وليس لكلّ شيء غيب متباين الوجود عن الغيب الآخر تبعاً للتباين التوهّمي المترائي في القشر والصورة، فإنَّ القشريين ـ بما هم قشريون ـ حيث لم يصلوا إلىٰ مغزىٰ الحقيقة ومخّ الوجود ولبّ الواقعية، ظنُّوا كثرة واقعية وتبايناً أصيلاً، يرجع إلىٰ كثرة الإرادة الفعليَّة والصفتيَّة طبعاً، الراجعة إلىٰ الكثرة في الذات الأحدية، الّتي تصبح كفراً وإلحاداً وظلمة واستبعاداً، والله من ورائهم محيط، وله الحمد والشكر.

(١) الفرقان (٢٥): ٤٥.

بحوث فلسفيّة ومسائل حكميّة

المسألة الأُولىٰ

حدوث النَّفس

اختلفت كلمات أعيان الفلاسفة في مسألة كيفيَّة حدوث النَّفس، فذهب المشَّاؤون إلىٰ أنَّه مجرَّد يحدث بحدوث البدن(١)، والإشراقيون إلىٰ أنَّها مجرَّدات في الأوعية الخاصَّة، تتعلَّق بالأبدان عند المقتضيات وحصول الشرائط والإعدادات(٢).

وأمَّا أصحاب الحكمة المتعالية فأنكروا روحانية حدوثها، وأذعنوا أنَّها جسمانيَّة الحدوث، وروحانية البقاء(٣) وبنَوا علىٰ أنَّ الطبيعة الذاتية الجوهرية متحرِّكة إلى كمالها اللائق بها، وإلىٰ الغاية المنتهية لها؛ من الصور النباتية والحيوانية والإنسانية، متبدِّلة في جوهرها، وسائرة في صورها الجوهرية باللُّبْس بعد اللُّبْس، لا اللُّبْس

---

(١) راجع الشفاء (قسم الطبيعيات): ٣٥٣ ـ ٣٥٥ و(قسم الإلهيّات): ٥٣٣، وشرح الإشارات ٣: ٢٦٠ ـ ٢٦٣.

(٢) راجع حكمة الإشراق، مجموعة مصنَّفات شيخ الإشراق ٢: ٢٠١ ـ ٢٠٣ و٢١٦.

(٣) راجع الأسفار ٨: ٣٢٥ ـ ٣٨٠، والشواهد الربوبيّة: ٢٢١ ـ ٢٢٤، والمبدأ والمعاد: ٢٢٣.

بعد الخلع، فإنَّ حديث الكون والفساد من الأباطيل الممتنعة، وقد تحرَّر منَّا امتناعه في الطُّوليَّات والعرضيات.

وعلىٰ كلّ تقدير، المادَّة المتصوّرة متحرّكة في الصور بالاشتداد والاستكمال حتَّىٰ يصل جوهرها الصوري إلىٰ الرتبة العليا ويبلغ الدرجة المجرَّدة عن المادَّة في ذاتها دون فعلها.

وربَّما يستنبط من قوله تعالىٰ: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ﴾ أنَّ المخاطَب واحد في الصورتين، وأنَّها كانت ميّتة فصارت حيَّة، فلابدَّ من تبدّل الصورة السابقة إلىٰ الحياة؛ حتَّىٰ يصحّ اعتبار الخطاب.

وأمَّا دعوىٰ: أنَّ كلمة الفاء تومىء إلىٰ عدم تخلّل زمان بين حالتي الموت والحياة، وأنَّها كانت ميّتة فصارت حيَّة، وهذا بولوج الرُّوح فيه آناً ما، فيكون الرُّوح روحانيّ الحدوث، فهي وإن ليست بعيدة إلاَّ أنَّ قضيَّة الخطاب أدلّ علىٰ خلافه، مع أنَّ الحركة من اللاشعورية إلىٰ الشعور وإن كانت تدريجية، إلاَّ أنَّ حصول الإحساس والإدراك لا يتخلَّل بينه وبين ما يسبقه الزَّمان الطويل، فيناسبه استعمال الفاء، ولعمري أنَّه لو كان الرُّوح روحاني الحدوث لكان الصحيح أن يُقال: كُنتم أحياءَ فأخرجَكُم من بُطون أُمَّهاتِكُم؛ ضرورة أنَّ شيئية الشيء بصورته وجهة كماله، فالإنسان كان ميّتاً؛ لأنَّه كان قوَّة الإنسان، وفيه الإنسانية بالقوَّة، وتلك القوَّة صارت إنساناً حيّاً يرزق. هذا، مع أنَّ الأقوال الأُخر واضحة الفساد وأشبه بالخرافات والإسرائيليات.

ويكفي لصحَّة هذه المقالة ذهاب أهل الشهود والعرفان وفضلاء أهل الكشف والإيقان إليها.

المسألة الثانية

حول تأثير الأفلاك في الحياة والممات

ربَّما يستدلّ بهذه الآية[١] الشريفة علىٰ بطلان قول الملاحدة، المنكرين لكونه تعالىٰ مؤثّراً في الحياة والممات، والقائلين بأنَّ الأفلاك والكواكب مؤثّرات في هذه الحوادث الكونية[٢].

وهذا استدلال في غير محلّه؛ لأنَّ قائله لا يقول بالقرآن العزيز ولا يعتقد، وقد حكىٰ القرآن كلامهم بقوله: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾[٣] فما في تفسير صاحب «الحكمة المتعالية»[٤] غير لائق بجنابه.

نعم من نسبة الإماتة والإحياء إليه تعالىٰ على الإطلاق والعموم، يثبت عموم قدرته وإطلاق إرادته؛ لأنَّ من النَّاس من يتصدَّىٰ لموت الإنسان الآخر ويُميته ويقتله وينفيه، وما ذلك إلاّ في حكومة الله تعالىٰ، فتدلُّ الآية علىٰ مسألة أُخرىٰ خلافية بين أهل الإسلام.

وأمَّا القول بأنَّ الإماتة غير القتل والإفناء، بل هي النقل إلىٰ الدار الأُخرى، فيختصّ به تعالىٰ، فما هو السبب للموت وزهوق الرُّوح غير الإماتة الَّتي هي أمر خارج عن اختيار العبد. فهو ولو كان له شرب يطلب من محالّ أُخر، إلاّ أنَّ المستفاد من قوله تعالىٰ: ﴿اللَّهُ

---

(١) الآية ٢٨ من سورة البقرة.

(٢) التفسير الكبير ٢: ١٥٢.

(٣) الجاثية (٤٥): ٢٤.

(٤) راجع تفسير القرآن الكريم، صدر المتألهين ٢: ٢٦٩.

﴿يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾[١] أنَّ الإماتة من الأفعال القابلة للاستناد إلىٰ العباد وإلىٰ الله، كما هو قابل للاستناد إلىٰ مَلَك الموت وإليه تعالىٰ، فعليه إذا أماته الإنسان الآخر لا يكون ذلك خلاف الآية الشريفة، ولا ينافي إطلاقها وعمومها.

أمّا الإحياء فربّما يتوهّم أنَّ استناد الحياة إلىٰ المتصدّي لأسباب الحياة جائز صحيح، فهو من الاشتباه الواضح، ولا بأس به تجوّزاً وتوسّعاً حتّىٰ في عصرنا، فإنَّ إحياء الطيور بالمعامل اليوميّة والصنائع العصرية، ليس من الإحياء الواقعي؛ ضرورة أنّهم لا يصنعون إلاّ ما تصنعه الشرائط والمعدّات؛ من الكواكب والأفلاك والحرارات والبرودات وغير ذلك، فاستجماعها في محيط خاصّ لا يوجب ذلك.

وأمّا قوله: ﴿أَنَا أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾[٢] فهو غير صحيح، إلاّ أنَّ النبيّ ﷺ لم يكذّبه لقصور فهمه، وجاء مستدلاً عليه من ناحية أُخرى، ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾.

وبالجملة: حصول الحياة بالوسائل المهيّئة للأسباب البعيدة والقريبة، الحاصلة بقدرة العباد، لا يكون إلاّ من مُفيض الصور وخالق السير، كما قال الحكيم السبزواري:

والحقّ أن فاض من القُدسي الصُّوَرْ وإنّما إعداده من الفِكَرْ[٣]

وصرّح به الكتاب الإلهي في مواضع عديدة، فلاحظ وتدبّر جيّداً.

---

(١) الزمر (٣٩): ٤٢.

(٢) البقرة (٢): ٢٥٨.

(٣) راجع شرح المنظومة (قسم المنطق): ٧٣.

ثمَّ إنَّه لو كانت نسبة الإحياء، إلىٰ الإنسان أيضاً حقَّة، لدلَّت الآية الشريفة أيضاً علىٰ تلك المقالة المحرَّرة في محلّه؛ وأنَّه تعالىٰ أولىٰ بتلك النسبة قطعاً.

المسألة الثالثة

حول إعادة المعدوم

من المسائل الخلافية حديث إعادة المعدوم فقد ذهب المتكلّمون ـ إلاّ من شذَّ ـ إلىٰ جوازه[١]، والفلاسفة إلىٰ امتناعه[٢]، ومن الغريب أنَّ الفخر استحسن الضرورة لمدَّعاه، مع كثرة تشكيكاته[٣] وشبهاته، تبعاً للشيخ الرئيس ـ شريكنا في الرئاسة ـ حيث ادّعىٰ الضرورة[٤].

فأكثر المتكلّمين إلىٰ جوازه، وربَّما يؤمىء إليه قوله تعالىٰ: ﴿يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ فإنَّ الإماتة والموت هو تفرّق الأجزاء وفناء البدن والصورة القائمة به، فإذا انمحت الشخصية القائمة بالصورة وانعدمت، فلابدَّ من تجويز الإعادة؛ لأنَّه المُعاقَب والمُثاب، فلابدَّ من عوده بشخصه، ولذلك يُقال: ﴿يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ مع وحدة المُخاطب في الخطابين، فما هو العائد عين الغالب، فالمعاد والمبتدأ واحد.

(١) راجع شرح المقاصد ٥: ٨٢ ـ ٨٨، وشرح المواقف ٨: ٢٨٩، وشوارق الإلهام ١: ١٢٧.

(٢) راجع الشفاء (قسم الإلهيّات): ٢٩٨، والأسفار ١: ٣٥٣ ـ ٣٦٤، والمطارحات، مجموعة مصنَّفات شيخ إشراق ١: ٢١٤ ـ ٢١٧.

(٣) راجع المباحث المشرقية ١: ١٣٨.

(٤) راجع الشفاء (قسم الإلهيّات): ٢٩٨، والمباحث المشرقية ١: ١٥٤.

أقول: يجوز أن يستند إلىٰ التقريب المذكور لنفي كون الإنسان إنساناً بالصورة الحالّة في المادّة؛ وذلك للزوم كون المعاد غير المبتدأ، فكيف يصحّ العقاب والعتاب، وقد تبرهنوا علىٰ الامتناع ببراهين محرّرة في «قواعدنا الحكمية»، والمسألة لا تحتاج إليها، بل من يقول بالجواز يكون غافلاً عن أطراف القضيَّة، وإلاّ فالعاقل أعزّ شأناً من أن يَفُوهَ بمثله.

ومن البديهي أنَّ ما هو المعاد يجوز أن يكون مستأنفاً بعد عدم بقاء شيء محفوظ بينهما مقوّم لهما، فعليه تكون المسألة ضرورية.

وأمّا الآية الشريفة فهي لا تدلُّ علىٰ حقيقة الموت، بل الاستدلال المذكور يتمّ بضمّ مفهوم الموت وتفسيره الباطل إليها، وقد تبيَّن فيما سبق: أنَّ الموت ليس تفرّق الأجزاء وتبدّل الصورة وفناءها بعد كونها معنًى حالاً فيها، بل هو الانتقال من الدُّنيا إلىٰ وعاء آخر، برفض المادَّة المُسانخة مع الدُّنيا.

ومن الغريب توهّم بعض أرباب الكشف: أنَّ الإحياء الثاني هو الإعادة في هذه الدُّنيا، ثمَّ بعد ذلك ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[1]، ولعلَّه اشتباه في النقل وغلط في الفهم أو قصور في الكشف.

ولو كان مفاد الآية ما تخيّله لتكون الرجعة لكلّ أحد، مع أنَّها لجماعة خاصَّة، وليست الرجعة إلاّ بالمعنىٰ الَّذي يساعد عليه النقل والعقل، والتشبُّث بأخبار الآحاد في هذه المسائل العقلية والاعتقادية، غير جائز عند علمائنا الأُصوليين، بل والظواهر في هذه المواقف

---

(١) راجع الفتوحات المكّية ٣: ٢٤، تفسير القرآن الكريم، صدر المتألهين ٢: ٢٥٧، والأسفار ٩: ١٤٧.

موكولة إلىٰ أهله، دون العقول السوقية، والأفهام البدوية، ولا يُقاس فقه الله الأكبر بفقه الله الأصغر، فتدبَّر.

المسألة الرابعة

حول حشر الضعفاء

ذهب بعض الفلاسفة الأسبقين إلىٰ أنَّ الحشر مخصوص بأهل الإدراك والبالغين المرتبة العقلية، وأمّا القاصرون الأرذلون في الإدراك والفهم الَّذين هم أضعف إحساساً وفهماً من الحيوانات، ككثير من أفراد الإنسان، فالحشر منفيّ عنهم لفسادهم بموتهم[١].

وَلَعمْري إنَّه مقالة ربَّما يوهمها البرهان، إلاّ أنَّها بنفيها القرآن العظيم والكتاب الكريم؛ حيث قال: ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

ولو كان الحشر ممنوعاً عن جماعة ـ كما زعمه الإفروديسي اليوناني ـ لكانوا هم هؤلاء الكفرة القاصرين، وقد مرَّ شطر من البحث حوله عند قوله تعالىٰ: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾.

(١) الأسفار ٩: ١٤٧.

الدقيقة السادسة
حول الأسفار الأربعة المعنوية

اعلم أنَّ للإنسان غير هذه السفرة الماديَّة، سفرة معنويَّة. وهذه السفرة في لحاظ واعتبار تنقسم إلىٰ أربعة:

الأولىٰ: من الخلق إلىٰ الحقّ، وبدايته من النَّفس إلىٰ الوصول إلىٰ الأُفق المبين، وهو نهاية مقام القلب ومبدأ التجلّيات الأسمائيَّة.

الثانية: هو السير في الله ـ بالاتّصاف بصفاته والتحقُّق بأسمائه ـ إلىٰ الأُفق الأعلىٰ ونهاية الحضرة الواحديَّة.

الثالثة: هو الترقّي والسير إلىٰ عالَم الجمع والحضرة الأحديَّة، وهو مقام «قاب قوسين»، فلا تبقىٰ الاثنينية، فإذاً يطلع مقام «أو أدنىٰ»، وهي نهاية الولاية.

الرابعة: هو السير بالله من الله إلىٰ الخلق للتكميل، وهو مقام البقاء بعد الفناء والفرق بعد الجمع، انتهىٰ ما قيل. ولنا تفصيل في هذه الأسفار، مسطورة في كتابنا «القواعد الحكمية»، ربَّما تأتي المناسبة الأقوىٰ فنذكرها، وهو غير هذا.

وبالجملة: الغرض بيان: أنَّ السالك ـ بعد السفرات الثلاث،

تحت الأسماء الإلٰهيَّة، وهي «الرَّبُّ والرَّحمٰن والرَّحيم ومالك يوم الدِّين» ـ شرع في السفرة الأخيرة، وهو الحضور والإشعار به، والرجوع إلىٰ الكثرة بعد اضمحلالها، والعدول إلىٰ الخلق بعد الفناء في الحقّ، وهي السفرة الرابعة، وفي تلك السفرة يدعو الله مخلصاً، ويريد منه أو يُبقيه علىٰ حاله، وهو الصراط المستقيم وصراط المنعَمين.

ثمَّ ينفي سائر الطرق الثلاث: المغضوب عليهم والضالِّين والفانين غير الراجعين إلىٰ الصحو بعد المحو، وسنزيد بيان ذلك بعونه وقدرته في أخيرة هذه السورة؛ حتَّىٰ يعلم أنَّ هذه السورة نموذج تلك السفرات، وسير الكاملين والصدِّيقين.

حكم تربية الأنام:

إذا كان هو تعالىٰ ربّ العالمين فهو يستحقّ ربوبيَّة النَّاس، أفهل يجوز لغيره تعالىٰ أن يتصدَّىٰ لتربية الأنام بما تختلقه أفهامه القاصرة، وتتخيَّله عقوله الناقصة؛ من الأوراد والأذكار المتعارفة في هذه العصور، وقد كان ذلك من العصر الأوّل، وتورَّمت وازدادت سعة في عصرنا ويومنا، مع تدخل الأيادي السياسية الخبيثة السيِّئة الرَّذيلة، ناظرة إلىٰ هدم أساس الشريعة لإبطال الأديان الحقّة، ومتوجّهة إلىٰ أنَّ كلّ من كان فيه جهة كمال وولاية، فله أن يتصدَّىٰ لذلك؛ حتَّىٰ سمعت من طلاَّب العلوم الدِّينيَّة ومن طلائهم، هذه الأراجيف الكاسدة، فتوهَّموا جواز البدار إلىٰ تلك الأذكار الخاصّة والأخذ بها؛ لأنَّ من يعيّن حدَّها اتصلت نفسه الكاملة بالولاية المطلقة، فلا يكون مشتبهاً في الذكر وحدّه.

وبذلك انسدَّ باب الاستدلال عليهم من: أنَّه تعالىٰ مخصوص بالربوبيَّة، فلا يجوز ـ من غير طريق الوحي ـ التصدِّي لما هو سبب الكمال والخروج من النقص؛ لأنَّهم يقولون: هذا من عند الله بطريق الاتّصال والتحديث من وراء الحجاب، وما أشبه ذلك قول من يقول: بأنَّ كلّ وِرْدٍ وذِكْرٍ من كلّ أحد إذا صدر متوجّهاً إلىٰ فرد من الأفراد، واتَّخذه ذلك بحسن النيَّة، وأتىٰ به متوجّهاً إليه تعالىٰ، فهو من الرَّبُّ ونوع تربية من قِبَله تعالىٰ؛ لأنَّ العالم يد الله، وهو يضع فيها، فلا غيريَّة حتَّىٰ يتوهَّم ربوبيَّته، فإنَّه بذلك التقريب أيضاً ينسدُّ باب الاستدلال المزبور.

فبالجملة: أفهل ترضىٰ لنفسك أن تكون تحت ظلّ غيره تعالىٰ بهذه التقاريب الفاشلة، أم يلزم أخذ أسباب التربية الرُّوحيَّة من الوجود الخالق للأرواح، المسيطر علىٰ ما تحتاج إليه النُّفوس في العوالم البرزخيَّة والقيامة، ومن الحيّ القيُّوم الَّذي يقف علىٰ جميع الخصوصيَّات الكامنة في زوايا النُّفوس البشريَّة، ومن الخبير البصير الَّذي لا تشتبه عليه الأحوال والحالات، ولا يتغيَّر في الأوراد والأذكار، فاقتضت ربوبيَّته الإلٰهيَّة إنزال الكتب وبعث الرُّسل، ورحمته الواسعة إخراج الطبائع الظُّلمانيَّة إلىٰ الوجودات النُّورانيَّة، فلا يجوز التعدِّي عنه والدخول تحت ربوبيَّة الآخرين، فإنَّه يلازم ويستلزم في وجه إنكار سعة ربوبيَّته، بل فيه إشعار بنقصان وسائل تربيته من الكتاب والسُّنَّة.

ولَعَمْري إنَّ جميع الطرق والمسالك المفتعلة في عصورنا والعصور السابقة مشبوهة، ولا تكون خالية عن أيادي الشياطين

الإنسيّة والجِنّيَّة، فلتكن من هذا التنبيه القيِّم علىٰ ذكْر، ولا تكن من الضالِّين.

وإنّي قد سافرتُ الأسفار الكثيرة وشاركتُ في المحافل غير اليسيرة، وصاحبتُ أرباب الأذكار اللَّيليَّة والنَّهاريَّة في الخلوات الخاصَّة والجلوات الأُنسيَّة، فهم وإن كانوا خالين عن مجموعة من الرذائل الكلاميَّة، وفي نوع الحالات والساعات مشغولون بالمباحث التوحيديَّة الأخلاقيَّة، ولكن كان الشَّيطان الكبير استولىٰ عليهم، وأخذ منهم ما أراده واشتهاه، فأرسلهم إلىٰ ما عندهم، كما اشتهر ذلك في سائر الفرق الباطلة، فإنَّه إذا بلغ إلىٰ آماله الأصليَّة، فلا يُبالي بالفروع والأغصان، ولا بغير ذلك ممَّا يبتذله الشَّيطان.

فعلىٰ المسلم المتوجِّه والمؤمن الكيِّس: أن يحافظ في طريقته المُثلىٰ علىٰ ما أتىٰ به النَّبيُّ الأكرم ﷺ، فإنَّه قد أتمَّ أسباب ذلك ويحتاج إلىٰ الجدّ والاجتهاد في الوصول إلىٰ تلك الغايات والآمال القصوىٰ الَّتي انتظرتها النُّفوس الراقية، فهذا أمير المؤمنين ـ عليه صلوات المصلِّين ـ فإنَّه تربَّىٰ في حجره، وبلغ ما لا يدانيه الملائكة المقرَّبون، وعليك وعلىٰ كلّ من يقرأ إعانته بالمقدار الميسور؛ برفض الشهوات وإن كان معسوراً.

حول كلمة «النُّور»
﴿مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً﴾

النُّور ـ بالضمّ ـ الضوء أيّاً كان، وهو خلاف الظُّلمة أو شعاعه[(١)].

وقيل: النُّور كيفيَّة تُدركها الباصرة أوّلاً وبواسطتها سائر المبصرات جمعه: أنوار ونيران[(٢)].

وقيل: النُّور الَّذي يبيّن الأشياء.

النُّور أيضاً: حُسْنُ النبات وطُوله، جمعه نِوَرَة، والوَسْم، يُقال: ما به نُور: أي وَسْم[(٣)].

ومرَّ في المسألة الخامسة مَنْ فصَّل بين الضوء والنُّور: بأنَّه الأصل والثاني بالاكتساب مُتَّخذاً من الكتاب العزيز: ﴿جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾[(٤)].

وقال في «المفردات»: النُّور الضوء المنتشر الَّذي يُعين علىٰ

(١) راجع أقرب الموارد ٢: ١٣٥٧.
(٢) نفس المصدر.
(٣) أقرب الموارد ٢: ١٣٥٧.
(٤) يونس (١٠): ٥.

الإبصار، وذلك ضربان: دنيويّ وأُخرويّ، فالدنيوي ضربان: ضرب معقول بعين البصيرة، وهو ما انتشر من الأُمور الإلٰهيَّة، كنور العقل ونور القرآن، ومحسوس بعين البصر[١]، انتهىٰ.

ثمَّ إنَّ النُّور لم يستعمل جمعاً في الكتاب الإلٰهي، وله نظائر أقصاها في «الاتقان»[٢].

أقول: لا ينبغي الخلط بين المفاد اللغوي، وبين الإطلاقات الرائجة المتداولة في الكتاب والسُّنَّة وفي الفنون والأدب، وما هو مورد النظر هو معناه اللغوي.

والَّذي يظهر من التدبُّر والتأمُّل: أنَّ النُّور معناه المحسوس، وليس المعقولات منه إلاّ ادّعاء وتأويلاً وتوسّعاً. وأمَّا كونه بحسب المفهوم عين الضياء والضوء فقد مرَّ الإيماء إليه.

ويظهر: أنَّ الضوء جاء مصدراً، بخلاف النُّور، فالضوء هو صنيع النُّور وفعله وعمله، وهي إنارته وتنويره، ثمَّ استُعمل في الذات مجازاً وادّعاء، ولأجل ذلك ترىٰ في الكتاب العزيز عبَّر عن الشَّمس بالضياء، فكأنَّه للمبالغة، ومن قبيل زيد عدل، فإنَّ الضياء مصدر ضاء ضوءاً وضياءً. هذا، مع أنَّه يوصف النُّور بالكدورة، بخلاف الضياء والضوء.

ثمَّ إنَّ الألفاظ المنتخبة للاستعمالات الاستعارية والمجازية مختلفة، فإنَّ مثل النُّور ربَّما غلب في النُّور المعنوي والمجرَّد مجازاً حتَّىٰ ربَّما يقرب من الحقيقة، وقلَّما يوجد إطلاقه علىٰ النُّور

---

(١) المفردات في غريب القرآن: ٥٠٨.

(٢) راجع الاتقان في علوم القرآن ٢: ٣٥٥ ـ ٣٦١.

المحسوس بالنسبة إلىٰ المعقول، بخلاف الضياء، فإنَّه علىٰ عكسه، وربَّما يتَّخذ للمعنىٰ الاستعاري، كقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾[1]، ولعلَّه يأتي من ذي قبل بعضُ بحوث عقلية تنفعك في المقام.

وأمَّا البحث عن ماهيَّة النُّور، وكيفيَّة وجوده، ونقل الأقوال والخلاف في تعريفه، فهو خارج عن هذ المختصر، فإنَّ كتابنا هذا يتعرَّض لحدود الدلالات القرآنية، دون الأُمور الأُخر المتعلِّقة بها بأدنىٰ ارتباط الَّتي تشترك فيها سائر الكتب والعقائد، فإنَّ ما ترونه في تفاسير القوم جُلّه من هذا القبيل، وصارت كتبهم ضخمة ذات حجم عظيم؛ لأجل اشتمالها علىٰ الأُمور البعيدة عن مفاد الآية، ولو شئتُ أن أدخل في هذا الباب لربَّما لا نخرج من آية من الكتاب، والله الهادي إلىٰ الصواب.

(١) الأنبياء (٢١): ٤٨.

حول كلمة «الترك»

تركه يترك تركاً وتِركاناً: خلاَّه، ومنه: ترك فلان مالاً وعيالاً، وأبقاه ـ ضدّ . ومنه: قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ۝٧٨﴾[1]، وترك بمعنىٰ جعل، ومنه: فتل الحبل حتّىٰ تركه شديداً، فإنَّ الترك إذا تعلّق بمفعولين لا يبقىٰ بمعنىٰ التخلية والطرح، بل يتضمَّن معنىٰ التحويل والتصيير، فيجري مجرىٰ أفعال القلوب، انتهىٰ بعض ما في «الأقرب». وفيه: الترك عدم فعل المقدور بقصد أو بغير قصد، أو مفارقة ما يكون الإنسان فيه[2]. انتهىٰ.

والّذي يظهر لي: أنَّ الترك بمعنًى واحد، وهو الواضح، ولازمه في بعض الأحيان الإبقاء، فإذا قيل: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ﴾، فمعناه: أنَّه خلّىٰ سبيلهم إليها، ولازمه إبقاؤهم فيها.

وأمَّا قولهم: فتل الحبل حتّى تركه شديداً، فليس «شديداً» إلاَّ حالاً، فما في كتب اللغة غير متحصّل.

وما في «مجمع البيان»: أنَّ الترك والإمساك والكفّ نظائر[3]،

(١) الصافّات (٣٧): ٧٨.

(٢) أقرب الموارد ١: ٧٦.

(٣) مجمع البيان ١: ٥٤.

في غير محلّه، ولذلك وقعت كلمات الأُصوليّين في معنىٰ صيغة النهي مختلفة، واختلافهم في أنَّ معناها مجرَّد الترك وأن لا يفعل، أو الكفّ[١]، وقد تحرَّر في كتاب الصوم: أنّه الإمساك لا مجرَّد الترك[٢].

(١) تحريرات في الأصول ٤ : ٨٤.

(٢) كتاب الصوم، المقدّمة، الجهة الأُولىٰ في مفاده اللغوي.

حول كلمة «الظُّلمات»

الظُّلْمة والظُّلُمة: ذهاب النُّور، وقيل: هي عدم الضوء عمَّا من شأنه أن يكون مُضيئاً، جمعه ظُلَم وظُلْمات وظُلَمات وظُلُمات، وربَّما كُنّي بالظلمة عن الضلالة، كما يُكنّىٰ بالنُّور عن الهداية.

قال الخليل: لقيته أوّل ذي ظلمة؛ أي أوّل شيء يسدُّ بصرك في الرؤية لا يشتقّ منه فعل. انتهىٰ ما في اللغة[١].

أقول: الظلمة ـ بحسب الواقع ـ ليس إلاّ عدم النُّور والضياء، إلاّ أنّه لمكان وقوعها في الارتسام بالقياس إلىٰ النُّور، وضع لها اللفظ، وربَّما يُنسب إليه الجعل، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾[٢]، فما قيل: إنّه ذهاب النُّور، أو إنّه العدمي مقابل الملكة، غير صحيح، فإنّه لو لم يكن في العالَم علّة النُّور، يكون العالم في ظلمة قطعاً؛ من غير استنادها إلىٰ سبب وعلّة.

ثمَّ إنَّ هذه الكلمة لم تستعمل في القرآن الشريف إلاّ جمعاً، علىٰ خلاف النُّور في هذه الخصوصية أيضاً، فإنّه لم يستعمل إلاّ مفرداً ولعلَّ في ذلك سِرّاً يأتي في محلّه.

---

(١) أقرب الموارد ٢: ٧٣٢.

(٢) الأنعام (٦): ١.

وأمّا ما قاله من التكنّي والكناية، فهو غير صحيح؛ لأنّ في المقام يكون من باب الاستعارة والادّعاء، وأنّ الهداية نور ومصداق له، والضلالة ظلمة ومصداق لها، فلا تخلط، والأمر سهل.

حول كلمة «الإبصار»

أبصره: رآه وأخبره بما وقعت عينه عليه، وفلاناً: جعله بصيراً، والطريقُ: استبان ووضح[١]. انتهىٰ ما في اللغة.

وقال في «الأقرب»: البصر يُقال للجارحة الناظرة، نحو قوله تعالى: ﴿كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾[٢]، للقوّة الّتي فيها، ويُقال للقوّة المُدركة؛ بصيرة، وجمع البصر أبصار، والبصيرة بصائر[٣]. انتهىٰ.

وقال في «المجمع»: والإبصار إدراك الشيء بحاسَّة البصر[٤]. انتهىٰ.

والّذي يظهر لي بعد التدبُّر في سائر مشتقّاته ويساعد عليه الاعتبار: أنَّ هذه المادَّة مأخوذة من «البصر» بمعنىٰ الجارحة، ثمَّ استُعمل في ما يناسبها من الإحساس والإدراك، وإذا قيل: هو البصير، أو له بصيرة، فليس معناه إلاَّ أنّه ذو الجارحة، إلاَّ أنّه أُريد منه لازمه، وهي الخُبروية والنُّورانيَّة القلبيَّة؛ حتَّىٰ في قوله تعالىٰ: ﴿بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾[٥]،

(١) أقرب الموارد ١: ٤٥.

(٢) القمر (٥٤): ٥٠.

(٣) المفردات في غريب القرآن: ٤٩.

(٤) مجمع البيان ١: ٥٤.

(٥) القيامة (٧٥): ١٤.

فإنَّ معناه الحقيقي أنَّه بالنسبة إلىٰ خفاياه ذو بصر، إلاَّ أنَّ البصر الَّذي يُبصر به الباطن أمر ادّعائي، ولا يبعد لأجل كثرة الاستعمال كون البصيرة حقيقة في المعنىٰ الرُّوحاني والقلبي، وجمع علىٰ هذا بنحو آخر، فتدبَّر.

حول كلمة «القلب»

القلب مصدر بمعنىٰ التقلُّب، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ والفؤاد قيل: أخصّ منه، وهوعضو صَنُوبَرِيّ مُودع في الجانب الأيسر من الصدر، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾[1].

وفي «الأقرب» وغيره: أنَّه قد يُطلق القلب علىٰ العقل، ومنه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾: أي عقل، جمعه: قلوب[2]. انتهىٰ.

وفي الراغب: قلب الإنسان، قيل: سُمّي به لكثرة تقلُّبه[3]. انتهىٰ.

وقيل: قلَّما تستقرّ علىٰ حال، وتستمرّ علىٰ مِنْوال، فهي متقلّبة في أمره، ومنقبلة بقضاء الله وقدره. وفي الحديث: «إنَّ القلب كريشة بأرض فلاة تقلّبها الرّياح».

قد سُمّي القلبُ قلباً من تقلُّبِهِ.

(١) أنظر أقرب الموارد ٢: ١٠٢٨.

(٢) أقرب الموارد ٢: ١٠٢٨.

(٣) المفردات في غريب القرآن: ٤١١.

فاحذرْ علىٰ القلبِ من قَلْبٍ وتحويلِ.

وقيل: سُمّي قلباً لأنَّه لبّ، كما يُسمَّىٰ العقل لُبّاً[١].

أقول: لا شبهة في أنَّ ما هو الموضوع له ـ حسب التبادر اللغوي ـ هو المعنىٰ الجسماني، ومن الأعيان الخارجية المادّيَّة الموجودة في جوف كلّ حيوان متحرّك بالحركات الدمويَّة، ولا يختصّ به الإنسان، ولأحد دعوىٰ وجوده في جميع الحيوانات المتحرّكة بالحركات الإرادية، إلاَّ أنَّه ليس جسماً صَنُوبَرِيّاً في صدر كلّ حيوان، ولا تكون هذه القيود داخلة في الموضوع له وإن كان يظهر من اللغة، إلاَّ أنَّه في موقف توضيح ذلك الجسم، لا في موقف بيان ما هو الموضوع له حقيقة، فإنَّه ـ حسب التبادر ـ عامّ لا يختصّ به الإنسان قطعاً.

فعلىٰ هذا يكون إطلاقه علىٰ الأُمور المجرَّدة والمعاني الخارجة عن أُفق المادَّة، من التوسُّع والاستعارة لجهة من الجهات المناسبة، أو لأنَّ بين اللطيفة الإلٰهيَّة القدسية، وبين هذا الموجود الصنوبري، نوعَ ارتباط خاصّ؛ لأنَّ نسبة الجسم إلىٰ النَّفس نسبة إعدادية، ونسبة النَّفس إلىٰ الجسم نسبة إيجابية، والنَّفس والبدن متعاكسان إيجاباً وإعداداً، فعليه يصحّ الاستعارة والتوسُّع. وإلىٰ هذه المناسبة يؤمي الحديث العامّي عنه ﷺ: «ألا وإنَّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كلّه، وإذا فسدت فسد كلّه، ألا وهي القلب»[٢].

---

(١) روح المعاني ١: ١٢٥.

(٢) عوالي الآلي ٤: ٨/٧، مسند أحمد ٤: ٢٧٠ و٢٧٤، الجامع لأحكام القرآن ١: ١٨٨، روح المعاني ١: ١٢٦.

تذنيب: حول اصطلاح «القلب»

إنَّ القرآن كما يكون كتاب هداية وتعليم، يكون كتاب اصطلاح كسائر الكتب العلمية والفنيَّة، وفيه من الاصطلاحات في مختلف السور والآيات، ويأتي تفصيل ذلك في المواضع المناسبة، ونشير في كلّ مورد إلى هذه المسألة ـ إن شاء الله تعالىٰ ـ وقد مرَّ منّاً في بعض البحوث السابقة ما ينفعك في المقام.

وبالجملة: من المصطلحات القرآنية «القلب»، فإنَّه في الكتاب الإلٰهي لا يطلق إلاّ علىٰ الأمر المعنوي، والمعنىٰ الرُّوحاني الخارج عن حدّ المادَّة والمدَّة، ويُعرب عن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾[1]، فإنَّ الضرورة تقضي بجواز إمكان وجودهما في الرجل، وقد تبيَّن في العصور الأخيرة ذلك كراراً، حسب ما اشتهر من الإذاعات وفي الجرائد، وقوله: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾[2]، ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ﴾[3]، وهذه الآيات واضحة في هذا الاصطلاح، والآيات الأُخر أيضاً مثلها عندنا في إفادتها أنَّ المراد من القلب ليس أمراً جسمانياً.

وأمَّا كونها النَّفس القدسية الناطقة، أو مرتبة خاصَّة من النَّفس، كما هو مصطلح أرباب العرفان، فلا برهان عليه، ولعلَّ الأظهر من موارد الاستعمالات القرآنيَّة هو الأوَّل.

وفي مصطلحاتهم: أنَّ القلب جوهر نورانيّ مجرَّد، متوسّط بين

---

(١) الأحزاب (٣٣): ٤.

(٢) الأحزاب (٣٣): ١٠.

(٣) غافر (٤٠): ١٨.

الرُّوح والنَّفس، وهو الَّذي يتحقَّق به الإنسانية، ويسمّيه الحكيم النَّفس الناطقة، والرُّوح باطنه، والنَّفس الحيوانية مركبه، وظاهره التوسُّط بين الجسد وبينه، كما مثَّله في القرآن بالزُّجاجة والكوكب الدُّرّيّ والروح بالمصباح في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾، فالشجرة هي النَّفس، والمِشْكاة هي البدن، والقلب هو المتوسّط في الوجود، ومراتب التنزّلات بمثابة اللوح المحفوظ في العالَم[1].

وبالجملة: ولو لم يكن القلب بمعنىٰ النَّفس المجرَّدة، أو بمعنىٰ مرتبة خاصّة من مراتب الإنسان السبع، وهي الطبع والنَّفس والقلب والرُّوح والسرّ والخفيّ والأخفىٰ.

هفت شهر عشق را عطار گشت   ما هنوز اندر خم يک كوچه ايم

إلاّ أنّه اكتسب المعنىٰ الآخر وصار يتبادَر منه هذا المعنىٰ في كلمات أرباب الهداية وأصحاب الإرشاد والدراية.

(١) اصطلاحات الصّوفية: ١٤٥.

حول كلمة «السمع»

السمع حسّ الأُذُن، والأُذُن ما ولج فيها من شيء تسمعه والذكر المسموع، ويكون للواحد والجمع، كما في نحو: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾؛ لأنّه في الأصل مصدر، فيحتمل القلّة والكثرة بلفظ واحد. جمعه: أسماع وأسمُع، وجمع الجمع أسامع وأساميع[1]. انتهىٰ ما في اللغة.

وفي الراغب ما يقرب منه إلىٰ أن قال: وتارة عن الفهم وتارة عن الطاعة، نقول: اسمع ما أقول لك، ولم تسمع ما قلت، وتعني لم تفهم، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا﴾ وقوله: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾؛ أي فهمنا قولك، ولم نأتمر لك، وكذلك قوله: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾؛ أي فهمنا وأطعنا وارتسمنا[2]. انتهىٰ موضع الحاجة منه.

أقول: التحقيق أنّ «السمع» ليس إلاّ بمعنىٰ الدرك، وإطلاقه علىٰ آلة الإدراك، أو قوّة الإدراك، أو علىٰ المعنىٰ المتأخّر من الإدراك، لا يكون من الحقيقة في اللغة، بل هو من باب الاستعمال؛ لانتقال

(١) أقرب الموارد ١: ٥٤١.
(٢) المفردات في غريب القرآن: ٢٤٢.

المخاطب والمستمع ـ لأجل القرائن الموجودة ـ إلىٰ ما هو المقصود الجدّي للمتكلّم، فلا يكون من استعمال اللفظ في غير ما هو الموضوع له، خلافاً لأرباب الأدب قاطبة إلاّ من شذّ.

وممّا يشهد علىٰ ذلك: أنّ الأُذن لكونها من الأعضاء المزدوجة تكون مؤنّثة معنويّاً، بخلاف السمع.

وأيضاً يشهد عليه؛ عدم استعماله في الكتاب بشكل الجمع؛ لأنّه في ما هو معناه الحقيقي لا يجمع، وهو المعنىٰ الحرفي، فتأمّل.

وأيضاً يشهد علىٰ ذلك: أنّ السمع مصدر سمع يسمع، وهكذا السماع، ولا دليل علىٰ وضع آخر له حتّى يكون من الاشتراك اللفظي، كما لا يكون السماع كذلك.

ومن العجيب توهُّم هؤلاء القشريّين: أنّ السمع في هذه الآية أُريد منه الأُذن مع أنّ ما هو المناسب للختم والغشاوة هو السمع المصدري، فإنّه يختم ادّعاء حتّىٰ لا يترتّب عليه الأثر المقصود، وإذا خُتمت القلوب والأبصار فهو أيضاً باعتبار فعلهما وما يصدر منها، وهو الفهم والإبصار، لا البصر؛ ضرورة أنّ الأعمىٰ مختوم البصر، ولا يكون مختوم الإبصار إذا كان من المهتدين.

حول كلمة «البصر»

البصر حاسَّة الرؤية والعين والعلم، جمعه: أبصار[١]. هذا ما في اللغة.

وفي الراغب: البصر يُقال للجارحة الباصرة، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾[٢]، ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾[٣]، وللقوَّة الَّتي فيها[٤]. انتهىٰ.

أقول: فيما يحضرني من الاستعمالات ـ ولاسيَّما في الكتاب الإلٰهي ـ أنَّ البصر غير الباصرة، وهما غير البصيرة، فإنَّ البصيرة معلوم معناها، ومخصوص بالإدراكات والشؤون المعنوية، والباصرة هي الجارحة المادّية الَّتي تكون آلة الإبصار، ومعدَّة لحصول الدَّرْك.

وأمَّا البصر: فهي القوَّة الإحساسية الدَّرْكية الَّتي تحتجب بالكدورات والظُّلمات والمعاصي والآثام، ويصحّ التعبير عند ذلك بأنَّها ختم [عليها] بالغشاوة.

---

(١) أقرب الموارد ١: ٤٥.

(٢) النحل (١٦): ٧٧.

(٣) الأحزاب (٣٣): ١٠.

(٤) المفردات في غريب القرآن: ٤٩.

ودعوىٰ تعدُّد الموضوع له، غريبة طبعاً، فيدور الأمر بين أحد المجازين. وما يقرب من الذهن أن يكون إطلاقها علىٰ الجارحة لأجل ما فيها من الحاسّة والإدراك الحسّي، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾[1].

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾[2]، ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[3]، ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾[4] وعلىٰ هذا يقرب التوسُّع في الإطلاق علىٰ نفس الجارحة.

وممّا يؤيّد ذلك: أنَّ من النّاس من لا يفقد الجارحة، وتكون هي كاملة حسب الظاهر، ولكنّه يُعدُّ أعمىٰ لفقد البصر، وهو دركها، ومن الممكن كونه موضوعاً للجارحة الحاسّة، فيكون الموضوع له مركّباً. وهذا أيضاً غير بعيد، وربّما به يجمع بين الآيات المختلفة في الاستعمالات والإطلاق.

فعلىٰ كلّ ذلك تكون الأبصار مختومة بلحاظ إحساسها، لا بجهات أُخر من طبقاتها السبع المختلفة، فلاحظ جيّداً.

---

(١) الأنعام (٦): ١٠٣.

(٢) آل عمران (٣): ١٣.

(٣) ق (٥٠): ٢٢.

(٤) النّور (٢٤): ٤٣.

حول كلمة «نفس»

النَّفس: الرُّوح، يُقال: خرجت نفسه؛ أي روحه، والنَّفس الدَّم، يُقال: دَفَق نفسه؛ بمعنىٰ دمه، والجسد والعين، ويراد بالنَّفس الشخص والإنسان بجملته، وبمعنىٰ «عند» يُقال: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾[1]. انتهىٰ ما في «الأقرب».

وقيل: كونها بمعنىٰ الدَّم من المجاز، فما في «الصحاح»: سالت نفسه؛ أي دمه، وفي «الأساس» دَفَق نفسه؛ أي دمه، وفي الحديث: «ما لا نفس له سائلة لا ينجّس الماء» مجاز. قال بعض المحشّين علىٰ «الصحاح»: هذا الحديث لم يثبت.

وقال ابن بري: وإنّما سُمّي الدَّم نفساً؛ لأنَّ النَّفس تخرج بخروجه.

ومن المجاز أيضاً النَّفس بمعنىٰ الجسد، وبمعنىٰ العين[2]. وأبعد عن الحقّ ما اشتهر: أنّه بمعنىٰ «عند»، فإنَّ ما في الآية ليس بمعنىٰ «عند»، بل جملة «في نفسك» بمعنىٰ «عند»، لا كلمة «نفس»، كما لا يخفىٰ، وفي كلمات اللُّغويّين مواضع كثيرة من المناقشة.

---

(١) أقرب الموارد ٢: ١٣٢٨.

(٢) راجع تاج العروس ٤: ٣٥٩.

والّذي يظهر للمحقّق المتضلّع المراجع للمجامع والقرآن الكريم ـ مع كثرة استعمالها فيه البالغة إلىٰ أكثر من ثلاثمائة مورد ـ هو أنّ النّفس ليست الجهة الرُّوحانيّة المجرَّدة ولا البدن الخالي عنها، بل النّفس هي الفرد المتمادي المقرون بالحياة الإنسانية؛ سواء كانت تلك الحياة مجرَّدة روحانية أو غير مجرَّدة، فإنّ الاعتقاد بالرُّوح خلافيّ، دون الاعتقاد بالنّفس. نعم ربَّما يطلق لبعض التوسُّعات في شخصيَّة كلّ شيء وذاته، ومنه سبحانه وتعالىٰ، وربَّما يطلق علىٰ الروح والجهة العَقْلانية والرتبة الخاصَّة منها، وهذا أيضاً بضرب من التوسُّع المحتاج إلىٰ القرينة، والالتزام بالمعاني المتعدّدة غير ممنوع عقلاً أو عرفاً.

وإن شئت قلت: النّفس هي العين وعين الشيء، وبهذا المعنىٰ تُجمع علىٰ «الأنفس»، وبهذا المعنىٰ كثير استعمالها في الكتاب العزيز، إلاّ أنّ كثرة استعمالها في الأفراد من الإنسان، بلغت إلىٰ حدّ يحتاج سائر حصص المعنىٰ الوحداني إلىٰ القرينة. وأمّا إذا ورد قوله تعالىٰ: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ﴾[١]، فهي ظاهرة في حصّة من المعنىٰ الموضوع له.

وتوهّم: أنّ القرينة ناهضة عليه، مدفوع: بأنّ من الممكن دعوىٰ أنّ المراد من «النّفس بالنّفس» أنّ كلّ شيء مضمون بالمِثْل، وكان ذلك عامّاً، وأمّا أجزاء الإنسان خصوصاً ففيها حقّ القِصاص أيضاً، بخلاف أجزاء غيره من الأموال؛ حيواناً كان أو غير حيوان.

---

(١) المائدة (٥): ٤٥.

حول الشرور والأسماء الإلٰهيّة

إنَّ الزيادة والازدياد والإنماء من الأسماء الإلٰهيَّة الفرعية المندرجة في الاسم الكلّي «الرَّبّ»، فهو تعالىٰ لأجل كونه ربّ العالمين يزيد الإيمان في قلوب المؤمنين، ويزيد المرض في قلوب المنافقين.

وقد تقرَّر: أنَّ الربوبيَّة الإلٰهيَّة عامَّة نافذة لا يمكن الفرار من تحت لوائها وحكومتها، ويكون لكلّ اسم من الأسماء الإلٰهيَّة مظهر وظهور، ومن تلك الأسماء هو «الرَّبّ»، فيكون في العالم ربّ متوسّط والحقّ المخلوق به والرَّبّ المربوب به.

وهكذا يكون في العالم مظهر الازدياد والزيادة والإنماء في ناحية الشرور والمفاسد وفي جانب السيّئات والإظلام، وذلك المظهر النَّفس الإنسانية، فإنَّها توجب زيادة المرض بإبقاء حالته وعدم العدول عن الباطل، فمن هو الزائد ويكون فاعل الزيادة بالمباشرة، هو نفسه الخبيثة الرذيلة المديمة الباقية علىٰ السوء باتّباع الشهوات والشرور، فتزداد فيها الصفات السيّئة والرذائل الشريرة، فتكون من هذه الجهة نامية وزائدة ومظهر قوله تعالىٰ: ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾.

فلا يتخيَّل: أنَّ الله تعالىٰ يريد بإرادة مستقلَّة بدوية مباشرية زيادة

المرض فيهم، بل كلّ شيء في ناحية الكمال مستند إليه بالذات، وفي ناحية الشرور مستند إليه بالعرض والاعتبار؛ لأنّ فعل الحقّ كما يصحّ أن يستند إلىٰ الخلق، فيُقال تارة: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ﴾[1]، وأخرى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾[2]، وهكذا في ناحية الوحي، فيُقال: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾[3] تارة أُخرى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠﴾[4]، وهكذا، كذلك فعل المتأخّر والخلق فيما لا يزال يستند إليه تعالىٰ علىٰ العكس، فيكون مباشر زيادة المرض نفس المريض، ولكن لمّا كان ذلك بإذن الله تعالىٰ، وبتربيته علىٰ نظام أسمائه الإلٰهيّة، يستند إليه تعالىٰ، فيعلم من هذه النسبة صحّة كون كلّ شيء مظهر اسم من الأسماء الإلٰهيّة حتّىٰ في العدميّات والتبعيّات والشرور والسيّئات.

(١) الزُّمر (٣٩): ٤٢.

(٢) السَّجدة (٣٢): ١١.

(٣) الشعراء (٢٦): ١٩٣ ـ ١٩٤.

(٤) النجم (٥٣): ١٠.

استناد النعمة إليه تعالىٰ دون غيره

من الأمور الملحوظة في هذه الآيات[1] الشاهدة علىٰ نهاية بلاغة الكلام: أنَّ النعمة استندت إليه تعالىٰ وأنَّ المُنعَم عليهم لا تكون النعمة من قِبَلهم، بخلاف الغضب والضلال، فإنَّهما نُسبا إليهما من غير استناد إليه تبارك وتعالىٰ، فيكون أسباب الغضب والضلال في أنفسهم، ومن سوء أفعالهم وعقائدهم. وستظهر بعض المسائل العقليَّة حول هذه الدقيقة.

تقابل الأوصاف الثلاث:

ثمَّ إنَّ من المحاسن الَّتي تزيد في فصاحة السورة وبلاغتها؛ أنَّ الأوصاف المأخوذة في هذه الجمل متقابلة، ولا يُزاد عليها شيء، وذلك لأنَّ الإنسان لا يخلو ـ بحسب الحال ـ من إحدىٰ هذه الحالات الثلاث: إمَّا يكون من المُنعَم عليهم ومورد الرَّحمة والإنعام بالهداية إلىٰ تلك النعمة والوصول إليها، أو يكون من الَّذين أَيِسوا من هدايته وانخلعت قابليَّة مادّته عن الوصول إلىٰ نور الهداية، فيكون في ظلماتٍ بعضُها فوق بعض، أو يكون من المستضعفين، لا بالغاً إلىٰ الهداية ولا مغضوباً عليه بغضب الظلمة والذلَّة، بل هو متحيِّر وفي

(١) من سورة الحمد.

الطريق متردّد، ويمكن أن تناله يد الغيب ونور الهداية. ولكلّ واحد منهم مراتب كثيرة ربَّما تكون غير متناهية.

غاية الهداية كون الإنسان المنعم عليه:

ومن المحاسن المستخرجة من ذكر هذه الجملة عقيب قوله تعالىٰ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾: أنَّ المطلوب هي الهداية المنتهية إلىٰ كون الإنسان من المُنعَم عليهم، فالهداية وإن كانت هي النعمة، إلاَّ أنَّ المراد ـ لعدم لزوم التكرار ـ هي الهداية الَّتي تكون مطلوبة للوصول إلىٰ المُنعَم عليهم، وإلاَّ فيلزم كون مفاد الآية هكذا: «اهدنا الصِّراط المستقيم، صراطَ الَّذين أنعمتَ عليهم نعمة الهداية؛ أي صراط المهتدين»، وهذا خلاف البلاغة جدّاً، فالبلاغة تقتضي أن تكون الآية الكريمة الشريفة بصدد المعنىٰ الآخر، وهو هكذا: «اهدنا الصِّراط المستقيم هداية إلىٰ المطلوب الأعلىٰ، صراط الَّذين أنعمتَ عليهم وأتممت نعمة الهداية في حقّهم»، والله العالم بحقائق آياته.

وإن شئت قلت: الهداية علىٰ أصناف وأقسام ربَّما تبلغ إلىٰ عشرة:

١ ـ الهداية بنور الفطرة المخمورة برفض الحجب النُّورانيَّة والظُّلمانيَّة في السلوك إلىٰ الله تعالىٰ، وعدم الابتلاء بالمعاصي والذُّنوب القالَبيَّة والقلبيَّة، ولا بحجاب الكثرات الأفعاليَّة والأسمائيَّة.

٢ ـ الهداية بنور الشريعة والاهتداء بأصل التشريع الإلٰهي والرِّسالة الإلٰهيَّة.

٣ ـ الهداية بنور الإسلام والإقرار به لساناً وقلباً.

٤ ـ الهداية بنور القرآن، والاعتقاد بأنّه تبيان كلّ شيء لا يتوقّف فيه علىٰ ظواهره برفض حقائقه، ولا يدخل بالتخيّلات الشّيطانيّة في الآيات القرآنيّة؛ بالتأويلات الباردة والتفسيرات المضحكة المحرّمة، بل يأخذ القرآن كتاب التفكُّر والتدبُّر، ويجده كتاب الهداية والاستكمال، ويرقىٰ به إلىٰ آخر منازل السير والسلوك بقدم المعرفة والإيمان، فلا يكون من المُفرِطين ولا من المُفرّطين، لا من الَّذين لعبوا بآياته حسب شهواتهم، ولا من الجامدين المنكرين لجواز النظر فيه والتدبُّر في مُحْكَماته، بل يهتدي بهداية القرآن، ويأخذ حدّ العدالة والطريقة الوسطىٰ.

٥ ـ الهداية بنور الإيمان وإبراق القلب: برسوخ الحقائق الإدراكيَّة في قلبه، وصيرورتها مَلَكةً فيه حتَّىٰ يبلغ أن يصير عرش الرَّحمٰن، فإنَّ قلب المؤمن عرش الرَّحمٰن[١].

٦ ـ الهداية بنور اليقين في جميع نشآته.

٧ ـ الهداية بنور العرفان.

٨ ـ الهداية بنور العشق والمحبَّة.

٩ ـ الهداية بنور الولاية.

١٠ ـ الهداية بنور التجريد والتفريد والتوحيد.

ولكلّ واحد من هذه الأنحاء ـ مضافاً إلىٰ المراتب ـ حدّ إفراط وتفريط.

---

(١) أنظر بحار الأنوار ٥٥: ٣٩/٦١.

فعلىٰ هذا تكون الهداية المطلوبة في قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ الهدايات الابتدائيَّة، والنعمة الَّتي أنعم الله تعالىٰ عليهم هي الهداية الحقيقيَّة، والهدايات الَّتي تكون في أُخريات السلوك.

حول كلمة «السّماء»

«السَّماء» قال في «الأقرب» هي الفلك الكلّي، وما يحيط بالأرض من الفضاء الواسع، ويظهر فوقنا وحولنا، كقُبَّة عظيمة فيها الشَّمس والقمر وسائر الكواكب[١]. انتهىٰ.

وأصله من السُّمُوّ بالواو؛ لأنَّه بمعنىٰ العُلُوّ والارتفاع ولا بأس بأن يُجمع علىٰ «أسْمِية»، كما عن بعضهم، فإنَّ الجمع وإن يردّ الأشياء إلىٰ أُصولها، إلاَّ أنَّها ليست قاعدة كُلّية، ولذلك يجوز في جمعها السَّمٰوات والسَّماوات.

وقال في «القاموس»: السَّماء سقف كلّ شيء وكلّ بيت[٢]، وفي شرحه: السَّماء كلّ ما علاك فأظلَّك[٣].

وبالجملة: اختلفت كلماتهم، ويظهر من موارد الاستعمال: أنَّ السَّماء موضوع للأعيان الواقعة في جهة العُلُوّ والارتفاع، ويشهد له قول الراغب: كلّ سماء بالإضافة إلىٰ ما دونها فسماء، وبالإضافة إلىٰ ما فوقها. فأرض، إلاَّ السَّماء العليا، فإنَّها سماء بلا أرض[٤]. انتهىٰ.

---

(١) أقرب الموارد ١ : ٥٤٥.

(٢) راجع القاموس المحيط: ١٦٧٢.

(٣) راجع تاج العروس ١٠ : ١٨٢.

(٤) المفردات في غريب القرآن: ٢٤٣.

وتدلُّ عليه الآيات الكثيرة الناطقة: بأنّه تعالىٰ خلق السّماوات والأرض، فالسّماوات والسّماويّات واحدة. وأمّا توهّم أنّ السّماء هي جهة العُلُوّ والارتفاع، وإطلاقها علىٰ الأعيان الواقعة في تلك الجهة نوع مجاز، فهو بلا وجه ولا يساعد عليه اللغة.

نعم ربّما يختلج بالبال: أنّ إطلاق السّماء علىٰ نفس القمر والشّمس والنُّجوم غريب، ويُطلق عليها السّماويّات، ولكنّه مجرّد استبعاد لا يرجع إلىٰ محصّل؛ ضرورة أنّ السّماء في مقابل الأرض، وكما أنّ الأرض عبارة عن العين الخارجية، والأرضيات هي الموجودات في الأرض، كذلك السّماء، هٰذا كلّه بالنظر إلىٰ اللّغة وموارد الاستعمالات في اللّغة.

وأمّا السّماء في القرآن فهي كما تستعمل في جهة العُلُوّ، تستعمل وتُطلق علىٰ العين الخارجية.

فمن الأوّل: قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾[1] وأمثالها كثيرة، وقوله تعالىٰ: ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾[2]، وقوله تعالىٰ: ﴿بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾[3] وغير ذلك من الآيات الكثيرة.

ومن الثاني: قوله: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾[4]، وقوله تعالىٰ: ﴿سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾[5] وأمثاله كثير، وقوله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ

(١) إبراهيم (١٤): ٣٢.
(٢) الأنعام (٦): ١٢٥.
(٣) الأعراف (٧): ٩٦.
(٤) البقرة (٢): ٢٢.
(٥) نوح (٧١): ١٥.

ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ بِأَمۡرِهِۦۚ﴾[١]، وقوله تعالىٰ: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ﴾[٢]، وقوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ ٣٧﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا﴾[٤]، وغير ذلك من الآيات المشابهة لها، وربَّما يُطلق أحياناً في بعض الآيات علىٰ نفس السحاب، نحو قوله تعالىٰ: ﴿وَأَرۡسَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡهِم مِّدۡرَارٗا﴾[٥].

والَّذي هو المهمّ في المقام حلّ مشكلةٍ تتراءىٰ أحياناً وهي: أنَّ السَّماء بمعنىٰ جهة العلوّ ممّا لا بأس به، والسَّماء بمعنىٰ الكُرة الخاصَّة من الكُرات السَّماويَّة، كالقمر والمريخ وأمثالهما، أيضاً غير ممنوع إذا أُطلق وأُريد؛ سواء كان من المجاز أو من الحقيقة.

وأمَّا إطلاق السَّماء وإرادة الجسم الآخر المُسمَّىٰ بالفلك، المعروف عند أبناء الهيئة القديمة وأصدقاء بطليمس وأصحابه، أو إرادة الجسم الآخر غير الفلك المصطلح عليه فهو غير واضح؛ ضرورة أنَّ الجوّ العالمي والفضاء الأكبر فيه الكُرات الكثيرة والمنظومات الصغيرة والكبيرة، وكلّها معلّقات بغير عَمَد ترونها، ولا يوجد وراءها شيء آخر حسب العلم والمناظر اليومية.

وربَّما يختلج بالبال: أنَّ القرآن قد تأثّر بالهيئة الباطلة القديمة، وكان نظره إلى هداية النَّاس من غير تصديق معتقداتهم العلمية، فإنَّ من

---

(١) الرُّوم (٣٠): ٢٥.

(٢) غافر (٤٠): ٦٤.

(٣) الرَّحمٰن (٥٥): ٣٧.

(٤) ق (٥٠): ٦.

(٥) الأنعام (٦): ٦.

يقوم بإرشاد البشر، وبشارة الطوائف والملل، وسيرهم في الملكوت الأعلىٰ، فلا يهمّه الأمور الأخر، وربّما كان تصديقهم فيما لا يضرُّ ولا ينفع، أولىٰ وأحسن في وصوله إلىٰ مأموله وبلوغه إلىٰ مقصوده ومرامه، وهو الاهتداء وإخراجهم من ظلمات جهالات الأخلاق والعمل والاعتقادات الخاصّة ـ كأحكام المبدأ والمعاد ـ إلىٰ نور المعرفة بالله وبرسله وأحكامه.

فعند ذلك يصحّ استعمال «السّماء» في ما اعتقدوه من السّماوات السبع السيّارة؛ حتّى قال الله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ﴾[1]، فإنّه يقرب من مقالتهم الفاسدة في طبقات السّماء وأنّها مطبقة بعضها علىٰ بعض إلىٰ السّماء التاسعة والجسم الكلّي والفلك الأعلىٰ، وقال: ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا ١٥﴾[2]، فإنّه كان ممّا يرون بعقولهم، ويعتقدون بذلك حسب ما وصل إليهم من أسلافهم.

أقول: هذا أمر لا يجوز في حقّه تعالىٰ، وقد ادّعىٰ بعض القاصرين: أنّ جميع القصص القرآنية قصص أخلاقية وتعليمية؛ من غير نظر إلىٰ صدقها وكذبها، وهذا ممّا لا يمكن تجويزه في حقّه تعالىٰ، مع أنّه خلاف الظواهر والتواريخ، وتفصيله في محلّ آخر.

وأمّا فيما نحن فيه، فما يظهر لي ونشير إليه بإجماله ـ وتفصيله يطلب من مقام آخر ـ هو: أنّ السّماء بناء مركّب بغير عمد ترونها ـ وهي الجاذبة العمومية الّتي لا تُرى، كما نصّ عليها القرآن ـ وهذا البناء مركّب من الكُرات المختلفة المتطابقة بحسب السير والمسير

(١) الملك (٦٧): ٣.
(٢) نوح (٧١): ١٥.

ومحالٌ الحركة الدورية، فـ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾؛ فهو تعالىٰ جعل سبع سماوات طباقاً؛ أي بعضها فوق بعض بالقياس إلىٰ المركز الأصلي، وهو الشَّمس، أو بالنسبة إلى المركز الاعتباري، وهو الأرض.

وبالجملة: إطلاق السَّماء وإرادة جهة العُلُوّ جائز، وأمَّا في هذه الآيات الشريفة فقد أُطلق علىٰ الأجرام الفلكية، وهذا أيضاً كما أُشير إليه جائز، وقد نصَّ عليه في اللغة.

وبما ذكرنا يظهر إمكان حلّ المشكلة المعروفة المشار إليها، وربَّما يأتي تفصيل آخر حوله بمناسبات أُخر.

تذنيب: حول تأنيث وتذكير السَّماء:

قال في «المصباح»: سماء مذكّر، وقال ابن الأنباري: يُذكَّر ويُؤنَّث، وقال القراء: التذكير قليل(١)، وقال الأزهري: السَّماء عندهم مؤنَّثة؛ لأنَّها جمع سماءة(٢).

وفي «المفردات»: السَّماء المقابلة للأرض تؤنّث، وقد يذكّر ويستعمل للواحد والجمع، كقوله عزَّ وجلَّ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾(٣)، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾(٤)(٥). انتهىٰ.

---

(١) راجع المصباح المنير ١: ٢٩٠.

(٢) تاج العروس ١٠: ١٨٢.

(٣) البقرة (٢): ٢٩.

(٤) المزمّل (٧٣): ١٨.

(٥) المفردات في غريب القرآن: ٢٤٣.

وقال في «شمس العلوم» للقاضي: إنَّ كلّ مؤنّث بلا علامة تأنيث يجوز تذكيره، كالسَّماء والأرض والشَّمس والنَّار والقوس والقدر، قال: وهي فائدة جليلة[١]. انتهىٰ.

والَّذي يظهر لي: أنَّ السَّماء ليست مؤنَّثة لفظيّاً؛ لأنَّ الألف مقلوب الواو، ولذلك يكون منصرفاً، فهو من المؤنّثات المجازية والسماعية، والأكثر علىٰ مراعاة التأنيث معها، ولعلَّ ذلك لأجل التشابه بالمؤنَّث اللفظي، ولذلك لا يوجد في الكتاب الإلٰهي مذكّراً إلاَّ في مورد[٢]، والأمر سهل.

تنبيه: إطلاق السَّماء علىٰ الجوّ

ربَّما يطلق «السَّماء» علىٰ الجوّ المتراكم الأزرق المشاهد من بعيد أنَّه شيء محيط علىٰ الأنجم والشَّمس والقمر، ومن ذلك قوله: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾[٣]، ولكنَّه ـ حسب ما يظهر لي ـ من الاستعمال علىٰ طبق الإحساس المتعارف، نظير إسناد الطلوع والغروب إلىٰ الشَّمس والقمر؛ حيث إنَّ الحركة المنتهية إلىٰ الطلوع والغروب معلولة الأرض ودورانها، وهذا النحو من الإطلاقات والإسنادات كثيرة، ولابدَّ منها في ظروف الإحساس والإدراك البدوي والتخيُّل العمومي العامّي.

إيقاظ: حول معنىٰ «السَّماوات»

السَّماء في القرآن مفرداً يقرب من ١٢٠ مورداً، وجمعاً ١٩٠

---

(١) راجع تاج العروس ١٠: ١٨٢.

(٢) وهو في سورة المزمل (٧٣): ١٨ ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦ﴾.

(٣) فصّلت (٤١): ١٢.

مورداً، وربَّما تكون مفرداً، ويرجع إليه ضمير الجمع، نحو قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾[١].

وفي هذا النحو من الاستعمال إشكال: وهو أنَّ طبيعة السَّماء ـ بما هي هي ـ لا كثرة فيها، كسائر الطبائع، وإنَّما الكثرة تلحقها لأُمور لاحقة بها، ولفظة «السَّماء» موضوعة لتلك الطبيعة، فحينئذٍ إن لوحظت الطبيعة جمعاً فلا منع من إرجاع ضمير الجمع إليها بالضرورة، وأمَّا إرجاع ضمير الجمع إليها حال كونها مُفردة فغير معقول؛ لأنَّ الضمير ليس إلاَّ للإشارة إلىٰ ما سبق، وما هو السابق ليس إلاَّ الطبيعة الوحدانية، فكيف يُعقل الإرجاع المذكور؟

وما اشتهر: من حمل هذا النحو من الاستعمال علىٰ أنَّ المراد في المرجع هو المعنىٰ الجنسي، غير صحيح؛ لأنَّ المعنىٰ الجنسي بما هو هو أيضاً معنًى واحد، وما دام لم تلحقه الكثرة واقعاً لا يعقل إرجاع الكثير إليه.

وما اشتهر في الأُصول: من جعل الطبيعة مرآة لخصوصيَّات الأفراد غير صحيح؛ ضرورة أنَّ المرآتية ليست إلاَّ بالجعل والمواضعة، ولا يمكن أن يدلّ اللفظ الموضوع للطبيعة إلاَّ علىٰ ما وضع له. نعم يمكن المجاز، وهو خلاف الفرض.

اعلم: أنَّ هذه الشُّبهة قد مرَّت في هذا الكتاب مع جوابها في ذيل قوله تعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾[٢] بناءً علىٰ رجوع ضمير الجمع إلىٰ الألف واللام الموصول، فراجع.

---

(١) البقرة (٢): ٢٩.

(٢) راجع الحمد: الآية ٧، مبحث النحو والإعراب.

حول الحياة البرزخيّة

ذهب جمع إلىٰ أنّه لا حياة بعد الموت إلاّ الحياة الأُخروية، وهي القيامة، فلا برزخ؛ بمعنىٰ الحياة المتوسّطة، نعم هناك برزخ إلىٰ يوم يبعثون.

وممّا يشهد عليه هذه الآية الشريفة[1] فإنّ قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ هو الموت عن هذه الحياة الدنيويّة ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾، وهي الحياة الأُخروية، ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وهي الرجوع إلىٰ ساحة الحساب بعد ذلك الموت وتلك الحياة، ولو كان الإنسان منتقلاً من هذه النشأة إلىٰ الحياة المتوسّطة، لما كان وجه لقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾، فالتراخي يشهد علىٰ طول مدّة الممات، وهو في البرزخ، ويؤيّده قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾[2] بل الإحياء بعد الإماتة يشهد علىٰ عدم الحياة المتوسّطة، وإلاّ فلا معنىٰ للموت أصلاً؛ لأنّ الإنسان دائم الوجود في النشآت المختلفة، فالآية تدلّ على خلاف ما ذهب إليه جمع المتكلّمين والفلاسفة.

وبالجملة: صارت المسألة فلسفية وخرجت عن الكلامية، ولو

---

(١) التفسير الكبير ٢: ١٥١، شرح المقاصد ٥: ١١١ ـ ١١٧، شرح المواقف ٨: ٣١٧ ـ ٣٢٠.

(٢) المؤمنون (٢٣): ١٥ ـ ١٦.

انحلّت المعضلة عند الفيلسوف فتنحل عند غيره بالأولوية القطعية؛ لأنّ الآية أظهر في فساد مرامهم من إنكار موت الإنسان رأساً ثمّ الحياة، كما لا يخفىٰ.

أقول: قد مرّ أنّ الموت من الأُمور الواقعية إذا قيست إلىٰ ذات الأشياء، ومن الأُمور الإضافية إذا قيست إلىٰ الحياة في سائر الأشياء؛ الأرض ميّتة بالقياس إلىٰ زرع خاصّ، وحيّة بالقياس إلىٰ زرع آخر، وربّما تكون ميّتة، ولا يتحمّل مطلق الزرع، وفي هذه الآية حسب الأظهر يكون النظر إلىٰ الحياة والموت الإضافيّين؛ أي كنتم أمواتاً بالقياس إلىٰ الحياة الدنيوية، فإنّ الإنسان ما لم يتولّد يعتبر ميّتاً بالقياس وإن كان حيّاً في ذاته، ثمّ بعد تلك الحياة الدنيوية يحصل الموت؛ أي الخروج عن تلك الحياة الدنيوية، ولو كانوا أحياء عند ربّهم يُرزقون، إلاّ أنّها حياة أُخرىٰ لها آثار أُخر، ثمّ بعد تلك الحياة المجتمعة مع الموت عن الحياة الدنيوية، تحصل الحياة الأُخرى تشبه الحياة الدنيوية بحسب الآثار والأحوال.

والظاهر أنّ قوله تعالىٰ: ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ هي الحياة الأخيرة الباقية فالإحياء الثاني إحياء في البرزخ، فتكون الآية أدلّ علىٰ وجود الحياة في البرزخ. نعم قضيّة كلمة «ثمّ» للتراخي هو الفصل، إلاّ أنّه لأجل بُعد زمان البرزخ المتوسّط الّذي فيه حياةٌ وإقبارٌ؛ حياةٌ بالقطع لقيام النقل والعقل، وإقبارٌ وهو الممات بالقياس، فتنحلّ المعضلة عند الحكيم والمتكلّم جميعاً.

بطلان القول بالتجسيم

ذهب جمع من القشريين من الكلاميّين المنتمين إلىٰ الإسلام إلىٰ أنَّ الله يتجسَّم أو فيه من التجسّم والجسمية شيء؛ نظراً إلىٰ بعض الآيات، ومنها قوله تعالىٰ: ﴿إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾[1]، فإنَّه لا يمكن إلاّ في صورة التحديد والتجسّم، وهكذا قوله تعالىٰ: ﴿ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾، فإنّه لا معنىٰ له إلاّ إذا كان فيه من التحديد شيء، وهو يلازم التجسّم، وأمّا كونه مادّياً فلا، فإنَّ من الأجسام ما لا مادّة لها، بل هي محدودة بالمقدار التعليمي، والجسم هو ما يمكن أن يُفرض فيه ثلاثة خطوط علىٰ زوايا قوائم، وهو يمكن في حقّ الصور الذهنية من الأشياء الخارجية، مع أنّها بلا هيولىٰ ولا مادّة.

وكان الالتزام بمثله أهون من الالتزام بذاك، عصمنا الله من الزلل، وآمننا من الفتن، وطهّرنا من الدّنس، وأذهب عنّا الرِّجس، ويُطهّرنا ـ إن شاء الله ـ تطهيراً عن هذه التوهّمات والتخيُّلات الشّيطانية والجُزافية السفاهيَّة.

أقول: من المسائل الّتي تلزم علىٰ كلّ ذي شعور التوجُّه والالتفات إليها حديث المخاطبة بين اللامتناهي مع المتناهي المحدود

(١) راجع التفسير الكبير ٢: ١٥٢.

المادّي الزماني، فإنّ التنزّل عن تلك المقامات اللاحدّية ممّا لابدّ منه في تلك الخطابات والتوجيهات، ولاسيّما إذا كانت الهيئات اللّغوية والكلمات الوضعية كلّها من الأمور المادّية المتصرّمة والزمانيّة المتدرجة، فعليه لا ينبغي اصطياد المسائل العقلية وأحكام الربوبيّة وأوصاف الوجود التامّ اللامتناهي، من هذه النظرة ومن تلك المنظرة فإنّه اعوجاج وإضلال وضلاله، وقال الشّاعر الفارسي، ولَنعم ما قال:

چونكه باكودك سر وكارت فتاد هم زبان كودكى بايد گشاد[1]

فلا يعقل أن ينتقل البشر المادّي إلىٰ تلك الربوبيّات الرقيقة والإلٰهيّات الدقيقة والعرفانيات الراقية، إلاّ بالإمدادات الغيبية، والإعانات القلبيّة، والمشاهدات الإيمانية، والمكاشفات المعنوية، وإلاّ فالألفاظ قاصرة.

فالاتّكال علىٰ هذه الاستنباطات ليس من دأب المحقّقين في المسائل العقلية الإلٰهيّة، فلاحظ واغتنم.

(١) مثنوى معنوى، دفتر ٤، بيت ٢٥٧٧.

العرفان وبعض بحوثه

البحث الأوّل

حول وجود الآخرة

الإيقان بالآخرة والإذعان بالنشأة الثانية والأخيرة من غير توصيف الآخرة بشيء معلوم، إيماء إلىٰ أنَّ كلّ آن وفي كلّ شأن تكون الدُّنيا وتكون الآخرة، فإنَّ الأشياء ـ حسب حركتها الذاتيَّة، وحسب التجلّيات المستندة إلىٰ مختلف الأسماء والصفات ـ تكون كلّ يوم في شأن، فقوله تعالىٰ: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ من غير تقابل بينهما وبين الحدّ المعيّن من الدُّنيا، يكون في قوّة الظهور في أنَّ المتَّقين الموصوفين بتلك الأوصاف الجماليَّة والنعوت الكماليَّة، والمؤمنين المنعوتين بتلك الأوصاف الحسنة والمنزّهين عن الرذائل السيّئة، لا يكون رأيهم مقصوراً علىٰ الآخرة الخاصّة، بل متوجّهون إلىٰ الدار الآخرة وهم في كلّ آن فيها، فإنَّ الآخرة في باطن الدُّنيا، وتكون مسيطرة علىٰ أهلها، وأهلها دائماً فيها وناظرون إليها، وجميع الحقائق بلحاظ توجّهها إلىٰ الآخرة الأخيرة في القوس الصعودي في الآخرة، وبلحاظ التوجّه إلىٰ هذه السفينة وهذا المركب، تكون في الدُّنيا، بل هي عين الدُّنيا، كما تكون عين الآخرة، ولنعم ما أفاد:

عارفان هر دمىٰ دو عيد كنند　　عنكبوتان مگس قديد كنند

البحث الثاني

حول كون التقوىٰ خالصاً

يُستشمّ من الآية الكريمة: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾: أنَّ المتَّقين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وممَّا رزقناهم ينفقون؛ من غير نظر إلىٰ توابع هذ الإيمان من الحسنات الدُّنيويَّة والمَلَكات الأُخرويَّة، ومن غير رياء وسمعة، بل تكون أعمالهم القلبيَّة والقالَبيَّة خالصةً عن جميع الأغراض والغايات الراجعة إلىٰ أُمورهم، ويؤمنون بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك أيضاً مخلصين وخالصة من شوب الكدورات الإمكانيَّة ومن غير إشراب اللذائذ النفسانيَّة، بل العقلانيَّة، ولذلك يقول: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾، لا للآخرة يعملون، ولا أنَّهم في الآخرة يُحشرون، بل هم الموجودون الفارغون عن هذه الهوسات الظلمانيَّة، وعن تلك الرذائل الماديَّة.

ولذلك ورد في أحاديثنا الشريفة: إنَّ من المتَّقين والمؤمنين من يدعىٰ إلىٰ الجنَّة فلا يلتفت إليها، وفيها: «إنَّ الجنَّة أشوق إلىٰ سلمان من سلمان إليها»(١)، فإنَّ سلمان قد جاوز حدّ المشتهيات النفسانيَّة الدُّنيويَّة والأُخرويَّة، رزقنا الله تعالىٰ، فعلىٰ هذا المعنىٰ يصحّ أن يُقال بعد ذلك: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾.

(١) راجع عوالي اللآلي ٤: ١٠١/١٤٧، وروضة الواعظين ٢: ٢٨٢، وبحار الأنوار ٢٢: ٣٤١/٥٣.

البحث الثالث

كمال الإيمان بحصول اليقين

في تقديم الجارّ والمجرور وإفادة حصر إيقانهم بالآخرة إشارة إلىٰ أنَّ تمام إيقان المتّقين وكمال إيمان الموقنين بحصول اليقين بالآخرة، وكأنّهم لا يتوجّهون إلىٰ غير دار الآخرة، لا يتوغّلون إلاّ في العلم الإيقاني بالآخرة.

وقيل: إشارة إلىٰ أنَّ هؤلاء الموصوفين بالأوصاف السابقة المختصّ بهم اليقين، ليس علمهم وإيقانهم إلاّ متعلّقاً بالآخرة؛ لأنّهم جعلوا الآخرة نصب أعينهم وغاية همّهم، فلا يلتفتون إلىٰ غيرها حتّى يتعلّق يقينهم به، بخلاف غيرهم، فإنّهم جعلوا الدُّنيا نصب أعينهم، ونبذوا الآخرة وراء ظهورهم، فلا تعلّق لعلمهم النفساني بالآخرة؛ لأنَّ علومهم مقصورة علىٰ الدُّنيا وعلىٰ ما يلزم للعيش فيها، فهي نفسيّات غير موقنة ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾ ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾.

البحث الرابع

حول عموم الحشر

فيما سبق منّا تبيّن أنَّ التقوى صفة عامّة لجميع الأشياء، وأنَّ كلّ شيء يصحّ توصيفه بالتقوىٰ والتحرّز عن التخلّف عن الأوامر التشريعيّة والتكوينيّة، فإذا قالت السماوات والأرض: ﴿أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾[1] فهو عين التقوىٰ والتجنّب عن الهوىٰ بالخضوع والخشوع لدىٰ المولىٰ، وهذا

(١) فصّلت (٤١): ١١.

الكتاب هدًى للمتَّقين، والإتيان بصيغة الجمع المخصوصة بذوي العقول ليس للتغليب كما يعتقده العوامّ، بل هو لأجل ما تحرَّر وتكرَّر من ثبوت العلم المركَّب لكافَّة الوحدات الطبيعيَّة ﴿يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾(١).

وعلىٰ هذا تكون الأوصاف المذكورة صفة المتَّقين من جميع الأنواع المادِّيَّة والروحانيَّة، بل كانت نعت الأسماء والصفات، ومن تلك الأوصاف أنَّهم بالآخرة يُوقنون، وحيث تكون الآية في موقف يستشمّ منها أنَّ الحشر ثابت للمتَّقين، فيعلم منها ثبوت الحشر لجميع المتَّقين من الأنواع المختلفة.

نعم بناءً علىٰ بعض التقاريب الماضية والتحارير السالفة، كانت الآية في موقف إفادة مدح الموقنين بالآخرة؛ سواء كانوا من المحشورين أو من غير المحشورين، وعلىٰ التقدير الثاني سواء كان عدم حشرهم لعُلُوّ مقامهم؛ لما أنَّهم محشورون في عالم الأسماء والصفات بل والذوات، أو لعدم لياقتهم للحشر، فلتتدبَّر تعرف جدّاً.

وغير خفيّ: أنَّ ما هو جهة المدح هو الإيقان بالآخرة وبأصل المعاد والنشأة الثانية، وأمَّا اختلاف النَّاس حسب الحشر وحسب المعتقدات، فهو لا يضرّ بذلك حسب هذه الآية الكريمة الشريفة.

إفادة وكفاية:

إنَّ الدار الآخرة ليست أخيرة الحركات الاشتياقيَّة، وليست منتهىٰ

---

(١) النُّور (٢٤): ٤١.

سير أرباب الأسفار الروحانيَّة، بل هي وسط الطريق، والتوصيف نسبيّ، أو أُريد منه جميع النشآت المتأخِّرة الغيبيَّة، كما أُريد من قوله: ﴿يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ جميع النشآت والكينونات الغيبيَّة المتقدِّمة، أو هو أعمّ والله أعلم.

بحث تاريخي

نطقت الآيات الكثيرة بصحف إبراهيم وموسىٰ، وأخبرت عن الكتب السَّماويَّة النازلة علىٰ الأنبياء السابقين، ولا شاهد قطعيّ علىٰ حدود تلك الكتب والألواح وعلىٰ تعيين الأنبياء الَّذين تشرَّفوا بالوحي والإنزال والَّذين لم يتشرَّفوا، وسيأتي في بعض المناسبات الأُخر كلام طويل حول هذه المسألة ـ إن شاء الله تعالىٰ ـ لا نحتاج فعلاً إلى السبْر والفحص عن الإسناد ومدارك المسألة؛ حتَّىٰ يقف القارىء الكريم على أمر قطعيّ وموضوع مبرهن إن شاء الله تعالىٰ.

وهنا نشير إلىٰ رواية أخرجها الحسين الآجُريّ وأبو حاتم البُستي في حديث أبي ذرّ، قال: قلت: «يا رسول الله كم كتاباً أنزل الله؟ قال: مائة كتاب وأربعة كتب أنزل الله تعالىٰ علىٰ شيث خمسين صحيفة، وعلىٰ أخنوخ ـ إدريس ـ ثلاثين صحيفة، وعلىٰ إبراهيم عشر صحائف، وأنزل علىٰ موسىٰ قبل التوراة عشر صحائف، وأنزل التوراة والإنجيل والزبور والفرقان»[1].

(١) الجامع لأحكام القرآن ١: ١٨٠، معاني الأخبار: ٣٣٣ ـ ٣٣٤، الخصال ٢: ٦٢٤/ ١٣.

علم الأسماء والعرفان
(السفر من بيت النّفس المظلمة)

قد تحرَّر في محلّه: أنَّ غير هذا السفر الظاهري والحركة المتوسّطة بين المبدأ والمعاد، سفراً معنويّاً ينقسم إلىٰ غير النهاية؛ حسب السير في المعاني والروحانيّات، وحسب الحركة في الحسنات الأخلاقيّة والفضائل الإنسانيّة؛ بالخروج من الحُجُب الظُلمانيّة وبترك الغرائز الرذيلة، إلاّ أنَّ المعروف منهم[1] ـ ومن تحريراتنا في «القواعد الحكَميَّة» لبعض المناسبات العرفانيَّة ـ أنَّ عُمُده أربعة، وقد ذكرناها في بعض البحوث السابقة، ونشير إليها حتَّىٰ يتوجَّه السالك العارف إلىٰ أنَّ هذه السورة قد اشتملت ـ حسب الذوقيّات الإدراكيَّة ـ علىٰ تلك الأسفار غير مرَّة.

اعلم: أنَّ السفر الأوّل هو السير من الخلق إلىٰ الحقّ المخلوق به والحقّ الثاني؛ برفض الكثرات والخروج عن تلك البيوت والدور، والوصول إلىٰ مرتبة القلب بشهود الوحدة الظلّيَّة المستجمعة لجميع

(١) راجع رسالة في تحقيق الأسفار الأربعة، محمَّد رضا القمشة اي، ضمن شرح الهداية الأثيرية: ٣٩٤.

الأوصاف والكمالات الكلّيَّة، وتلك الوحدة مظهر الوحدة الأصليَّة، ولعلَّ إلىٰ هذه السفرة الصعبة يشير المولوي:

جمله دانسته كه اين هستي فخ است ذكر وفكر اختياري دوزخ است[١]

والسفرة الثانية من الحقّ المخلوق به إلىٰ الحقّ الأوَّل؛ بخروجه عن تلك الوحدة الوهميَّة، ووصوله إلىٰ مقام الواحديَّة؛ بمشاهدة الأوصاف والصفات الإلٰهيَّة، وملاحظة أحكام الرُّوح بعد الخروج عن بيت القلب وقبل الوصل إلىٰ مقام السرّ.

والثالثة من الحقّ الأوَّل ـ ومن الحضرة الواحديَّة الجمعيَّة ـ إلىٰ الحقّ المتجلّي بتجلّي الأحديَّة الغيبيَّة الذاتيَّة، بخروجه من المرتبة السابقة ووصوله إلىٰ هذه الحضرة. وهناك سفرة أُخرى غير ممكنة وقد استأثرها لنفسه لا ينالها الأوحدي.

ويصل في هذه الورطة إلىٰ مقام الخفاء بل والأخفىٰ، وهنا الضلالة الحقيقيَّة لما لا يبقىٰ منه الأثر، ويبقىٰ ببقاء الله، فإذا كان ممَّن شملته العناية الإلٰهيَّة والرَّحمة الرَّحيميَّة، يشرع في السفرة الأخيرة من الحقّ الأوَّل إلىٰ الخلق، واجداً لمقام البرزخيَّة الكبرىٰ، متنعِّماً بأنواع النعمة، وفي هذه السفرة يأتي بالتشريع والقانون. وقد اختلفت أحكام الراجعين إلىٰ الحقّ حسب اختلاف حالاتهم في هذه الأسفار، واختلفت الشرائع الإلٰهيَّة لاختلاف مقاماتهم:

فمن سافر من بيت النَّفس المظلمة بالمرَّة، وجاهد في الله حقّ جهاده، وتوجَّه إليه توجّهاً تامّاً بجميع شؤونه وأحكام وجوده، هو النَّبيّ

---

(١) مثنوي معنوي، دفتر ششم، بيت ٢٢٦.

الإسلامي الخاتم، محمَّد بن عبد الله الأعظم ﷺ روحي وروح العالمين لتراب قدمه الفداء، وقد صاحبه في هذه السفرة الأنوار الأُخر والأئمّة الاثنا عشر بوحدة نورانيّة، حشرنا الله تعالىٰ معهم، ورزقنا الله شفاعتهم.

فإذا طلعت لك هذه الحقائق وظهرت عليك تلك الرقائق المبرهنة في مقاماتها والمشفوعة بالمشاهدات العرفانيّة عند أهلها، فإليك الآيات الأخيرة من هذه السورة الجامعة، فإنَّ المنعَم عليهم هم الَّذين رجعوا عن السفرة الثالثة إلىٰ الشهود، ومن الفناء الذاتي والصفاتي والأفعالي إلىٰ البقاء ببقاء الله، ومن الباطن والغيب المطلق إلىٰ الظاهر والشهادة المطلقة، فهم المهتدون الحقيقيّون الَّذين يطلب السالك أن يهتدي بهداهم ويقتدي بهم.

والمغضوب عليهم هم الَّذين لم يخرجوا من سجن الطبيعة، ولم يتحرَّكوا إلىٰ دار العزَّة والاهتداء، وانغمروا في الشهوات والرذائل، وانغمسوا في الخبائث والمادَّة، ولم يُدركوا من الغيب شيئاً ولا من الحقيقة أمراً، ولم يذوقوا من أطعمة الآخرة، ولا من لذائذ القيامة؛ حتَّىٰ ماتوا كالأنعام، بل هم أضلّ سبيلاً.

وأمَّا الضالّون المتحيّرون الباقون في السفرة الثانية والثالثة، ولم تدركهم العناية الإلٰهيَّة بالخروج من جلباب الحجب النُّورانيَّة، فلم يصبحوا في الآفاق المطلوبة؛ بالرجوع من تلك الوحدات، فلم يتمكَّنوا من حفظ مقام الكثرة في الوحدة والوحدة في الكثرة، فضلّوا ـ كما أنَّ الحكمة ضالّة المؤمنين ـ وقد تبيَّن لك أنَّ الضلال أصله الهلاك، فهلكوا، والله هو المؤيّد، وعليه التكلان.

إفاضة وإنارة: في اعتبارات «المنعم»

اعلم أنَّ ـ حسب التقسيم المعروف في الأسماء الإلٰهيَّة ـ «المُنعِم» من أسماء الأفعال، وحسب ما تحرَّر: أنَّ جميع هذه الأسماء ـ في اعتبار ـ من أسماء الذات، وفي اعتبار آخر تنقسم إلىٰ الأسماء الثلاثة: الذات والصفة والفعل، وربَّما يُعَدّ الاسم الواحد ـ باعتبار اختلاف الآثار في مختلف النشآت ـ من الأسماء الثلاث أو الأخيرين منها[1]، ومن تلك الأسماء ـ حسب ما يأتي منَّا تفصيله في أوائل سورة البقرة إن شاء الله تعالىٰ ـ اسم «المنعم»، فإنَّ من ظهوره تتجلَّىٰ الأعيان الثابتة في النشأة العلمية، وتتقدَّر الأشياء بقدرها، ومن تجلِّيه الآخر تظهر الأشياء في النشأة العينيَّة، فهو تعالىٰ منعم بالإنعامين: الإنعام بفيضه الأقدس والإنعام بفيضه المقدَّس، والإنعام الثاني ظهور الإنعام الأوَّل؛ وتجلٍّ عينيّ لتجلٍّ علميّ.

وفي اعتبار أنَّ «المنعم» من اعتبارات الذات في المرتبة الواحديَّة، كعلم الذات بالأسماء والصفات؛ ضرورة أنَّ وصف الإنعام الذاتي وإن لا ينتزع من الذات بما هي هي، ولكنَّه يُنتزع منها باعتبار التجلِّي الأوَّل بصدور الفيض الأقدس، فهو منعم في تلك المرحلة وذلك المقام، وحيث إنَّ «المنعم» من توابع اسم «القدير» الَّذي هو من الأُمّهات الأسمائيَّة، فلا يكون بنفسه من الأوصاف الكماليَّة الذاتيَّة، بل هو من الأوصاف الانتزاعيَّة القهرية من غير لزوم نقص في الذات، ثمَّ استكمال لها بذلك الوصف، وللمسألة طور آخر يطلب من محالّه.

ولأجل أنَّ النعمة عامَّة وخاصَّة ـ كنعمة الوجود وكمالاته

(١) راجع شرح القيصري علىٰ فصوص الحكم: ١٤، مصباح الأنس: ١١٣.

الوهميَّة، وكنعمة المعرفة وكمالاتها الحقيقيَّة ـ يكون هذا الاسم من الأسماء الرئيسة، بل في اعتبار جامعاً للاسمين «الرَّحمٰن والرَّحيم»، ولكن قد عرفت عموم كلّ واحد منهما من قِبَل الذات المقدَّسة، وهكذا إنعامه بالكمالات الحقيقيَّة عامّ من ناحية الذات الأحديَّة، وإنَّما الاختلاف في كيفيَّة الاستعدادات والقوابل، ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾[1].

نقل وتحقيق: في إشارة السورة[2] إلىٰ الأسفار الأربعة

قد اختلفوا في كيفيَّة سير السالكين وسفر العارفين علىٰ تعابير مختلفة ومشاهدات متفاوتة، والَّذي مرَّ منَّا هو الَّذي أفاض الله تعالىٰ علىٰ قلب عبده في سالف الأزمنة ـ خلافاً لزمرة أرباب التأليف ولما قيل في المقام ـ أنَّ هذه السورة بأجمعها تشير إلىٰ تلك السفرات المعنوية والأسفار الروحانيَّة؛ وذلك لأنَّ:

الاستعاذة إشارة إلىٰ السفر من الخلق إلىٰ الحقّ؛ لأنَّ هذا السفر فرار من الكثرات ومظاهر الشيطان إلىٰ عالم التوحيد ومظاهر الحقّ تعالىٰ، والاستعاذة القوليَّة إخبار بهذا الالتجاء، والاستعاذة الفعلية نفس ذلك الالتجاء والفرار.

والتسميةُ إلىٰ قوله: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾﴾ إشارةٌ إلىٰ السفر من الحقّ إلىٰ الحقّ، فإنَّ التسمية إخبار بالاتّصاف بصفاته تعالىٰ، وما بعده إلىٰ ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾﴾ إعلام بحركة السالك في صفات الحقّ

---

(١) الرَّعد (١٣): ١٧.

(٢) سورة الحمد.

تعالىٰ إلىٰ ظهور مالكيَّته وفناء العبد في ذاته، وهذا السفر حركة في صفات الحقّ تعالىٰ إلىٰ فناء العبد.

وقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾ إشارة إلىٰ السفر بالحقّ في الحقّ؛ لأنَّ مالكيَّته تعالىٰ لا تظهر إلاَّ إذا صار العبد فانياً من فعله ووصفه وذاته، وبفناء ذاته يتم عبوديَّته، وبعد كمال عبوديَّته لا يكون سيره إلاَّ إلىٰ الحقّ المطلق، ولا يكون إلاَّ بالحقّ لعدم ذات له.

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝﴾ إشارة إلىٰ السفر بالحقّ في الخلق، وهذا هو الرجعة الاختياريَّة في العالم الصغير، والبقاء بعد الفناء والصحو بعد المحو، وينبغي أن يكون هذا السفر بحفظ الوحدة في الكثرات، والصِّراط المستقيم في هذا السفر محفوظيَّة الوحدة في الكثرة؛ بحيث لا تغلب إحداهما علىٰ الأُخرىٰ، ولا تختفي إحداهما تحت الأُخرىٰ.

وهذه الأحوال قد تطرأ علىٰ السُّلاَّك؛ سواء استشعروا بها أم لم يستشعروا، أذاقنا الله وجميع المؤمنين منها ومكّننا فيها، والحمد لله أوّلاً وآخراً وظاهراً وباطناً، ولا حول ولا قوَّة إلاَّ الله العليّ العظيم[١].

(١) القائل هو سلطان محمَّد الجنابادي في تفسير بيان السَّعادة ١ : ٣٦.

علم الأسماء والعرفان
(العالم الأكبر)

اعلم أنَّ من المحرّر في محلّه: أنَّ الاسم ينقسم باعتبار إلىٰ أسماء الذات والصفات والأفعال، وإن كانت كلّها أسماء الذات في اعتبار آخر، ولكن باعتبار ظهور الذات وظهور الصفات وظهور الأفعال تُسمَّىٰ أسماء الذات والصفات والأفعال، ومن الأسماء ما يكون مجمع الاعتبارين لاختلاف اعتبار معناها؛ لما فيه ما يدلُّ علىٰ تلك الظهورات الثلاث، وقد عدّوا منها الاسم «الرَّبّ»، فإنَّه بمعنىٰ الثابت للذات، وبمعنىٰ المالك للصفات، وبمعنىٰ المصلح للفعل[١].

وقد صرَّح بذلك بعض مشايخنا، وهو المروي عن شيخ هذه الطريقة[٢]، وقد عدَّ في رسالة تُسمَّىٰ بـ«إنشاء الدوائر» الرَّبّ من أسماء الذات، وجعله الثاني؛ حيث شرع في عدّها هكذا: الله، الرَّبّ، المَلِك، القُدُّوس، السَّلام... إلىٰ آخر ما ذكره هناك[٣]، وسيظهر تفصيله عند قوله تعالىٰ: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ﴾ إن شاء الله.

(١) شرح فصوص الحكم، القيصري: ١٤.
(٢) مصباح الأنس: ١١٣.
(٣) إنشاء الدوائر: ٢٨ ـ ٣٠.

ثمَّ إنَّه علىٰ مذاق أخذ الرَّبّ بمعانٍ مختلفة، من الممكن دعوىٰ استعماله في تلك المعاني كلاً، فيكون من استعمال الواحد في الكثير وتختلف ـ حينئذٍ ـ إضافته، فإنَّه علىٰ تقدير يكون المقدّر اللام: أي ربّ للعالَمين، وعلىٰ تقدير يكون المقدّر «في»؛ أي ربّ في العالَمين، وعلىٰ الأوَّل يمكن أن يُراد منه المصلح والمالك والمعبود، وعلىٰ الثاني الثابت والسيِّد والمعبود... وهكذا.

وعلىٰ مذاق أنَّ «العالَم» من العلامة أو من العلم، قابل للصدق علىٰ الفرد والكلّي والكلّ والجزء وهكذا، فلك أن تقول: العالَم كلّ ما سوىٰ الله تعالىٰ؛ لأنَّه يعلم به الله تعالىٰ من حيث أسماؤه وصفاته، وكلّ فرد من أفراد العالم يعلم به اسم من أسمائه تعالىٰ؛ لكونه مظهراً لذلك الاسم، فأجناسه وأنواعه مظاهر للأسماء الكلّيَّة، وأشخاصه وجزئيَّاته مظاهر للأسماء الجزئيَّة، فالعقل الأوَّل ـ لاشتماله علىٰ كلّيات الحقائق وصورها إجمالاً ـ عالَم كلّيّ مظهر اسم الرَّحمٰن، والنَّفس الكلّيَّة ـ لاشتمالها علىٰ جميع الجزئيَّات الَّتي اشتمل عليها العقل الأوَّل تفصيلاً ـ عالَم كلّ مظهر اسم «الرَّحيم»، والإنسان الكامل الجامع للمرتبتين ـ الإجمالي من حيث روحه، والتفصيلي من حيث مرتبة قلبه ـ عالَم كلّ مظهر للاسم الجامع للأسماء والصفات، وهو الاسم «الله».

ولمَّا كان كلّ فرد من الأفراد مظهراً للاسم الخاصّ، كانت العوالم غير متناهية في هذا الوجه، ولكن الحضرات الكلّية الإلٰهيَّة خمسة، فتكون العوالم الكلّيَّة خمسة:

الأوَّل: حضرة الغيب المطلق وعالَمها عالَم الأعيان الثابتة في الحضرة العلميَّة، ويُسمَّىٰ الغيب، وعالَمها عالم الأمر والربوبيَّة والعقل.

الثاني: حضرة الشهادة وعالَمها عالم الحضرات الأعيان الثابتة العينيَّة، وعالَم الشهادة، وهو عالَم الملك والشهادة المطلقة في مقابل الغيب المطلق.

الثالث: حضرة الغيب المضاف، وهو الأقرب إلىٰ حضرة الغيب المطلق، وهي صورة مجرَّدة عقليَّة، وعالَمها عالم الأشباه والأنوار، وعالم الجبروت، وعالم النُّفوس الكلّيَّة والعقول المجرَّدة.

الرابع: حضرة الشهادة المضافة، وهي أقرب إلىٰ عالم الشهادة المطلقة، وهي الصورة المثاليَّة المناسبة لتلك الشهادة، وعالم المثال والملكوت والخيال المطلق والمنفصل، وفي اعتبار عالم المُثُل المعلَّقة.

الخامس: الحضرة الجامعة للأربعة مظهراً، وعالَمها عالم الإنسان والكون الجامع لجميع الأكوان والعوالم وما فيها، فكلّ عالَم متأخّر مظهر العالم المتقدّم، فعالَم الناسوت مظهر عالم الملكوت، وهو مظهر الجبروت، وهو مظهر اللاهوت، وهو مظهر الهاهوت؛ أي الواحديَّة الجمعيَّة مظهر الأحديَّة الذاتيَّة[1]، وهناك عالم آخر لا رسم له ولا اسم ولا يُشار إليه حتّىٰ بهو، وفي كونها ذاتَ مظهرٍ خلافٌ، المعروف عدمه[2]، وارتضىٰ الوالد المحقّق ـ مُدَّ ظلّه ـ أنَّ له مظهراً لا من سنخ الظاهر، فلا يُشار إليه[3]، والله العالم.

(١) شرح فصوص الحكم، القيصري: ٢٧ ـ ٢٨.
(٢) شرح فصوص الحكم، القيصري: ١١٩، مصباح الأنس: ١٤.
(٣) تعليقات الإمام الخميني على مصباح الأنس: ٢١٨، تعليقات الإمام الخميني على شرح فصوص الحكم: ٢٦.

إيقاظ وتذكرة: في معنى «العالَم»

قد ارتضىٰ أهل المعرفة هناك طريقة أُخرىٰ في معنىٰ العالَم وتقسيمه: وهي أنَّ العالَم هو الظلّ الثاني؛ أي العالَم ذاتُ الفاعل، والفاعل ظلّه، والقابل ظلّ المعلوم، فيكون العالَم هو الظلّ الثاني، ولذلك يُقال للإنسان الكامل: ظلّ الله، أو لمن يتوهَّم فيه كمال الجمال، كالملوك: ظل الله، فهو ليس إلاّ الحقّ الظاهر بصور الممكنات؛ أي لظهوره بتلك التعيّنات سُمّي باسم السّوىٰ والغير باعتبار إضافته إلىٰ الممكنات؛ إذ لا وجود للممكن إلاّ مجرَّد هذه النسبة، وإلاّ فالوجود عين الحقّ، والحقّ هويَّة العالَم وروحه، وهذه التعيّنات في الوجود الواحد أحكام اسمه الظاهر، الَّذي هو مجلًّىٰ لاسمه الباطن.

ولهذا قيل: العالَم غيب لم يظهر قط، والحقّ تعالىٰ هو الظاهر ما غاب قط، وأهل الظاهر علىٰ عكس ذلك.

وقيل: كلّ هؤلاء عبيد السوء فندعو الله تعالىٰ أن يشفي عباده من هذا الداء ومن تلك الداهية العظمىٰ.

بحث وإرشاد: حول كون «ربّ» من الأسماء المختصَّة

قد اشتملت كتب اللغة والتفاسير علىٰ أنَّ «الرَّبّ» من الأسماء المختصَّة، ولا يجوز إطلاقه علىٰ غيره تعالىٰ إلاّ في صورة الإضافة، فهو الحدّ الوسط بين كلمتي «الله» و«الرَّحمٰن» وبين سائر الأسماء، كما لا يخفىٰ[١].

---

(١) المفردات في غريب القرآن: ١٨٤، لسان العرب ١: ٣٩٩، تاج العروس ١: ٢٦١، الكشّاف ١: ١٠، مجمع البيان ١: ٢٢، أنوار التنزيل وأسرار التأويل ١: ٧.

ودعوىٰ ممنوعيَّة ذلك فقهاً غير ممكنة؛ لعدم الدليل الشرعي عليه، وتفيد عمومات الحلّ والبراءة جوازه، مضافاً إلىٰ ورود ذلك في بعض الأدعية: «يا ربّ الأرباب»[١]، فما اشتهر من عدم إطلاقه عند الإطلاق علىٰ غيره تعالىٰ، مخدوش بذلك جدّاً، وعدم اشتهار تسمية غيره تعالىٰ به ككثير من الأسماء لا يورث منع الإطلاق.

ثمَّ إنَّ المراد من هذا الدُّعاء، «يا ربّ الأرباب»، كما يمكن أن يكون أرباب الظاهر كربّ الدار والبستان، يمكن أن يراد الوسائط التكوينيَّة كربات الأنواع وأربابها المشتهرة في الكتب العقليَّة، وقد بسطنا القول في ذلك، وأثبتنا امتناع هؤلاء الأفراد العقليَّة بعون الملك العلاَّم.

نقل وتوضيح: تطبيق العالَم الكبير علىٰ العالَم الصغير

في بعض المآثير: العالَم عالمان: صغير وكبير[٢]، ويؤيّد ذلك ما نُسب إلى أمير المؤمنين عليه السلام:

أتـزعَـمُ أنّـكَ جُـرمٌ صـغـيـر وفيكَ انطوىٰ العالَمُ الأكبرُ[٣]

وقد ذكر العرفاء الشامخون في تطبيق الكبير على الصغير كلمات جمَّة، لا يهمّنا نقل خصوصيّاتها.

وإجماله: أنَّ هذا العالم الكبير إنسان واحد بالعدد؛ باعتبار النَّفس والعقل الكلّيّين اللّذين هما من عالم الوحدة، وباعتبار سريان

(١) بحار الأنوار ٨٤: ٦/١١٠ و٨٨: ٧٨ و٩٢: ٩٤ و٩٥: ٣٧٠ و٨٩: ٢٦٨ و٨٣: ٢٣٢.

(٢) راجع المفردات في غريب القرآن: ٣٤٥.

(٣) ديوان منسوب إلى أمير المؤمنين: ٥٧ قافية الراء.

الوحدة الحقّة الظّلّيّة إلىٰ أجزائه، وهو عين الهويّة، ولاسيّما باعتبار تدلّيه جمعاً إلىٰ وجهة الله تعالىٰ وتعلّقه بالحقّ المتعال، تكون السّماوات كلّها أحياء عقلاء، مسبّحين بحمد ربّهم لا يسأمون، ومتواجدين في عشق جماله لا يفترون؛ وذلك لمكان النّفوس المتعلّقة بها وعقولها المشبّهة بها.

ويؤيّد ذلك ما في بعض الآثار النبويّة: «أطّت السّماء وحقّ لها أن تئطّ؛ ما فيها موضع قدم إلاّ وفيه ملك راكع أو ساجد»[(١)]، فإنّ الإنسان الكبير ذو العقل والنّفس كالصغير، والشّمس قلب له، كما أنّ القلب الصنوبري في الإنسان الصغير أشرف الأعضاء وله الرئاسة، كذلك الشّمس في الإنسان الكبير سيّد الكواكب من الرئيسة والمرؤوسة، وتلك المادّة العنصريّة الأرضيّة والسّماويّة في جنب تلك العوالم الروحانيّة، كحجر المثانة[(٢)].

وهذا التطبيق في الجسمانيّات بلحاظ هذه المنظومة، ولكن في الروحانيّات تكون جميع العوالم بالنسبة إلىٰ الإنسان الكامل صغيرة، ولذلك قيل:

وفيك انطوىٰ العالمُ الأكبر

فإنّ الانطواء دليل أكبريّة الإنسان، والأكبريّة دليل علىٰ أنّ هذا العالَم صغير بالنسبة إلىٰ سائر المنظومات الشّمسيّة والمجرّات السّماويّة.

---

(١) الدّر المنثور ٥: ٢٧٣، علم اليقين ١: ٢٥٩، عوالي اللآلي ٤: ١٠٧/ ١٦٠، مسند أحمد ٥: ١٧٣، سنن الترمذي ٣: ٣٨١/ ٢٤١٤.

(٢) شرح المنظومة (قسم الفلسفة): ١٥١.

وغير خفيّ: أنَّ كلّ إنسان فيه قوّة كلّ كمال وجمال، فيكون التطبيق بالقوّة، بالنسبة إلىٰ الكاملين يكون التطبيق بالفعل، وإلىٰ بعض ما شرحناه ـ من أعظميّة الإنسان الصغير جسماً من العالَم الكبير معنًى وإحاطة ـ يُشير إلى ما ورد في رواياتنا حول بيان حدود أئمّتنا عليهم السلام وجوداً وسعة وكمالاً[(١)]، وقد أُشير إلىٰ بعض تلك الحدود الروايات السابقة، وكفىٰ في ذلك ما يقول خادمهم البسطامي: «لو أنَّ العرش وما حواه ألف مرّة وقع في زاوية قلب العارف لما ملأه»[(٢)]، ومن شاء فليرجع إلىٰ محالها.

---

(١) الكافي ١: ١١١ ـ ٣/١١٣ ـ ٥ و٧ و١٠.

(٢) تفسير القرآن الكريم، صدر المتألهين ١: ٧٧، الأسفار ٨: ٣١١.

بحث عرفاني ورمز إيماني

العبادة ورعاية أسماء الله

قضيَّة هذه الآية من سورة الحمد ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: أنَّ العبادة من تبعات الربوبيَّة، وأنَّ مقتضىٰ الاسم «الرَّبّ» هو الأمر بالعبادة؛ لأنَّها عين الربوبيَّة والتربية المعنوية، اللازمة عليه تعالىٰ بالنسبة إلىٰ كلّ الطوائف والملل، ولذلك علَّق ـ حسب الظاهر ـ العبادة علىٰ الربوبيَّة فعلىٰ هذا تجب عبادة الاسم الخاصّ، وهو الرَّبّ الَّذي خلق حسب اقتضاء الاسم والصفة، فيشاهد السالك في سلوكه والعرفاء في محاضراتهم والنَّاس عند القيام بالصلاة ونحوه، الاسمَ الخاصّ، ويرون هذا النعت، ويجعلونه نصب أعينهم حين العبادة والخضوع وفي وقت السجود والركوع، ولا يصلح سائر الأسماء والنعوت.

وقضيَّة الآية الأخرى ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[1] هو أنَّ العابد يراعي الاسم الجامع «الله»، ويحضره في قلبه بهذا الاسم الكلّ، ويعبد الذات الأحديَّة الإلٰهيَّة تحت هذا اللواء والعنوان، فيلزم المناقضة بين الآيتين؛ ضرورة أنَّ اختلاف التعبير ينشأ من الاختلاف فيما هو مقتضىٰ الأسماء والصفات، وربَّما

(١) النحل (١٦): ٣٦.

يكون السالك المراعي جانب الاسم الخاصّ في العبادة، أقوىٰ سلوكاً وأقرب وصولاً ممَّن يعبد الله علىٰ الاسم الآخر كالعالم والقادر.

وربَّما تنتهي هذه المسألة إلىٰ أنَّ من السالك العابد من لا يعرف الله ولا العالم ولا القادر، بل يعرف ربّ العالَم، فيعبده ويستعين به غير متوجّه إلىٰ سائر الصفات والعناوين، ولا يكون في هذه العبادة مشركاً ولا متخلّفاً.

والَّذي هو التحقيق: أنَّ جميع الأسماء لكونها محاطة تحت الاسم المحيط الجامع، يكون ذلك الاسم فيه جميع الخواصّ والآثار، فلا تهافت بين الآيتين.

هذا، مع أنَّ عبادة ربّ العالمين ـ والرَّبّ الَّذي خلق كلّ شيء وأحسنه وقدَّره، ونعم ما أحسن وقدَّر ـ ترجع إلىٰ عبادة الله في هذه الآية؛ لأنَّ النظر هنا آليّ، وما هو المنظور فيه استقلالاً هو الاسم الجامع «الله» عزَّ وعلا.

تنبيه وإيقاظ: حول عبادة الله في جميع الأحوال

إنَّ عبادة كلّ شيء بحسبه، وهذه الآية لمكان عمومها وإطلاقها ربَّما تدعو النَّاس في جميع مراحل وجودهم، وفي كلّيَّة النشآت السابقة واللاحقة إلىٰ عبادة الله تعالىٰ.

وقد قال بعض المشايخ: إنَّ الجنَّة الَّتي ليست فيها الصلاة لا خير فيها، فلا يكون دار البرازخ المتوسّطة ودار الآخرة والقيامة الكبرىٰ والعظمىٰ علىٰ تفاوت درجاتها، دار الفراغ عن العبادة ومناجاة ربّ العالمين، فيعبد النَّاس حسب مراتب معارفهم ربّ العالمين علىٰ

مقتضىٰ ما يشتهون، فإنَّ فيه ما تشتهي الأنفس وتلذّ الأعين، والبرازخ روضة من رياض الجنَّة، فعبادة الله في كلّ نشأة مطلوبة، بل لازمة عقلاً، وشكره تعالىٰ واجب عند كافَّة العقلاء في كافَّة الحالات، نعم في هذه النشأة تكون تكليفاً، وفي النشآت الأُخر تكون العبادة لجمع من أهل الخير والصلاح، ولطائفة من أرباب الشهود والفلاح، عينَ الرِّضا والالتذاذ، كما هي كذلك لأهلها في هذه النشأة، وقد مرَّ مراتب النَّاس ومراتب العبادة في ذيل آيات سورة الفاتحة، وأنَّ من النَّاس من يعبد الله ولو كان فيها النَّار والعذاب الخالد.

إشارة ملكوتيَّة وإنارة علمية: عدم إمكان عبادة غير الله

قد اشتهر بين أهل الوفاء والصفا ـ حتَّىٰ شاهدوا هذا الأمر في المرائي والخلوات ـ: أنَّ عبادة غير الله تعالىٰ لا يمكن أن تتحقَّق، فيكون الأمر بالعبادة مسوقاً من المرحلة إلىٰ المرحلة، ويكون توجيه النَّاس من عبادة الأصنام والأوثان إلىٰ الرَّبّ الَّذي خلق الإنسان من باب اختلاف المظاهر والظواهر.

اگـر مـؤمـن بـدانـسـتي كـه بـت چـيـت
يقين كردى كه حق در بت برستي است[١]

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[٢]، وقـد ورد عـن ابـن عـبَّـاس ـ حسب ما قيل ـ أنَّه قضاء تكويني[٣] والله العالم.

وبالجملة: يمكن الجمع بين هذه المقالة وبين الآية: بأنَّ الأمر

---

(١) متَّخذ من گلشن راز، الشبستري.

(٢) الإسراء (١٧): ٢٣.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١: ٢٣٧.

فيها ليس إلاّ صيانة عن الخطأ في الفكر، وحفاظاً عن الاشتباه في القول، ولا خطاء واشتباه في ذات العمل حسب الواقع، فإنَّ الحمد لله ربّ العالمين، فكيف تقع العبادة لغير الله تبارك وتعالىٰ؟! والله هو المؤيّد والمسدّد، وإليه المرجع والمآب.

إشعار بحثي ومكاشفة إيقانية: حول استناد القرآن إلىٰ الرَّسول (ص):

قد خاطب النَّاس في هذه الآية بقوله: ﴿اَعْبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾، وقال في الآية الأُخرىٰ المذكورة آنفاً: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اَعْبُدُواْ اَللَّهَ﴾[1]، وعندئذٍ يطلع البحث الإلٰهي حول أنَّ المخاطبة، هل هي من الله تعالىٰ أو من الرَّسول، أو منهما؟ بعد الفراغ عن أنَّ التفصيل بين الآيات في هذه المرحلة والمشكلة؛ بأنَّ هذه الآية من الله تعالىٰ والآية الكذائية من الرَّسول غير صحيح، كما تحرّر، فمن قائل: إنَّ المخاطبة من الله والنسبة إلىٰ غيره من المجاز؛ لأنّه رسول وواسطة لحكاية كلام الله تعالىٰ، وليس هو مشرّعاً ولا مخاطباً بالاقتباس، وهذا هو رأي الأكثر وعلماء الشريعة قاطبة في كيفيَّة استناد الكتاب العزيز إليه تعالىٰ وإلىٰ الرَّسول ﷺ وأمين الوحي ﷺ.

وربَّما يُقال: إنَّ من هذا الخلاف في النسبة، يظهر الاتّفاق في المنتسب إليه في وجه خارج عن أُفق النَّاس خواصّهم، فضلاً عن عوامهم، وتفصيله في مباحث الوحي والتنزيل وكيفيَّة الإيحاء ونزول جبريل.

وإجماله: أنَّ المسافر إلىٰ الله تعالىٰ، بعد الفوز بالوحدة برفض

---

(١) النحل (١٦): ٣٦.

سرابيل الكثرة، ونزع نِسَب المادَّة والمدَّة وخلع نِعالَي الفعل والفكرة، تتصل روحه القُدُّوسيَّة بسماء الرفعة، فتخرق أبصار القلوب حُجُب النُّور، وتصل إلىٰ معدن العظمة، وتصير أرواحهم معلَّقة بعزّ قُدسه، ومتدلّية بنور شوكته، فلا يبقي ولا يذر شيئاً من جلباب البشريَّة إلاَّ ويطرحها من ورائه، فيصير يده الَّذي يفعل بها ولسانه الَّذي يتفوَّه به، ورِجْله الَّتي يمشي بها، فكلامه كلامه وصحبته صحبته ونسبته نسبته، فإذا فرغ عن هذه السفرة الأخيرة الصعودية والعرضيَّة، يشرع بالسفرة الرابعة الخلقية، ويرجع إلىٰ النَّاس بما ينطق به، ولا ينطق عن الهوىٰ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝٥﴾[1]، ففي هذه الآية بالنسبة إلىٰ الآية الأُخرىٰ إشعار بهذه المائدة الملكوتيَّة والمعجون السرمديّ، فلتكن علىٰ بصيرة من الأمر حتَّىٰ تظهر لك حقيقة القصَّة ومخّ القضيَّة وحتَّىٰ يطلع الفجر ﴿وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ۝١٤﴾[2]، و﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾[3].

---

(١) النجم (٥٣): ٤ و٥.

(٢) الطارق (٨٦): ١٤.

(٣) هود (١١): ٨١.

بحث عرفاني وإرشاد أخلاقي

اعلم: أنَّ هذه الآية الشريفة ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ (الآية ٨ ـ البقرة) ـ حسب مراتب الإيمان ـ قابلة للتطبيق علىٰ جميع المؤمنين والمسلمين، وأنَّ كلّ إنسان إذا راجع قلبه ومخزن علمه وإيمانه بالله وباليوم الآخر، يجد وجداناً أنَّه ما آمن به تعالىٰ، فإنَّ الإيمان بالاسم الجامع والإيقان بالله له الآثار والخواصّ، فمن كان يؤمن بالله تعالىٰ، وبأنَّه تعالىٰ هو الجامع الكلّي، وهو الكامل علىٰ الإطلاق، وأنَّه المتحقّق بالحقيقة والذات، وأنَّ الوجود لا يليق إلاّ بالحضرة الإلٰهيَّة، ومن تجلَّىٰ قلبه بالوحدة الذاتيَّة الإطلاقية وبالواحدات الأسمائيَّة والصفاتيَّة والأفعاليَّة، كيف يمكن أن يجد نفسه بحذائه تعالىٰ، ويلمس وجوده وراء وجوده، فإذا كان الأمر كذلك حسب البراهين العلميَّة والأدلَّة الإيمانيَّة والشواهد العرفانيَّة، فلا يكون مؤمناً بالله، فيستحقّ أن يُقال في حقّهم: إنَّهم لا يؤمنون، وما كانوا مؤمنين.

ومن كان مؤمناً بالله تعالىٰ، وبأنَّه لا إلٰه إلاّ الله، ولا مؤثّر في الوجود إلاّ هو، وأنَّه إليه ترجع جميع الكمالات، وبيده أزِمَّة الأُمور وجميع الإرادات الكلّية والجزئية، فكيف يمكن أن يذهب إلىٰ الأبواب الباطلة، ويرفع أياديه إلىٰ غيره تعالىٰ، ويطلب من غيره تعالىٰ، فإذا

كان الأمر كما تبرهن وتبيَّن يجد أنَّه لا يكون من المؤمنين، وينبغي نفي الإيمان عنه.

ومن كان مؤمناً بالله تعالىٰ وباليوم الآخر، وبأنَّ الدار الآخرة دار باقية، والدار الدُّنيا فانية لا كمال فيها إلاَّ كمالاً وهمياً، فلا يهتمّ إلاَّ بالسلوك إلىٰ تلك الدار؛ بجميع ما يساعده فيها من الخيرات والبركات، وبكسب الحسنات وطرد السيِّئات؛ حتَّىٰ يتحلَّىٰ بحلية التخلية، ويتجَلّىٰ بجلاء التجليَّة والصفات الحميدة.

وإذا كان الأمر كذلك فيجد في وجدانه وفي قلبه أنَّه لا يكون من المؤمنين، ولا يستحقّ أن يعبَّر عنه بأنَّه مؤمن، فيلزم استحقاقه لقوله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾.

ومن كان يؤمن بالله وباليوم الآخر يصنع لله ولليوم الآخر، ويهتمّ بذلك حتَّىٰ يخلو عن الشِّرك والرِّياء، وينجو من الظُّلمات في البرزخ وفي النَّار ويتخلَّص عن السُّمْعة والعُجْب والعصبيَّة وغيرها، فإذا كان في نفسه من أهل هذه الصفات والأفعال يصدّق هذه [الآية] الكريمة الجامعة العامَّة، ويعتقد أنَّها لا تختصّ بالمنافقين ولا بالمسلمين والمؤمنين، بل قلَّما يتَّفق أن يخرج عنها أحد، والله الموفَّق المؤيّد.

وإذْ قد تبيّن لك هذه الآية بسعتها واتّضح شمولها، فليتنبَّه كلّ مؤمن ومسلم إلىٰ أن يتخلَّص عن مضمونها، ولا يكون في سلك الكفَّار واليهود والمشركين.

وإنّي إذا أمرّ علىٰ حالاتي الشخصية وعلىٰ أحوال الخواصّ نلمس يأساً شديداً، ونظنّ أنَّ التخلُّص من هذه المشكلات وتلك المعضلات ـ في هذه الأعصار وتلك الأمصار ـ ممَّا لا يُمكن عادة،

ولاسيَّما مع كثرة المُهلكات والموبقات وقلّة المُنجيات وأسباب الهداية.

ولكن لمَّا كان القنوط واليأس من جنود الجهل، وعلىٰ ضدّ الفطرة السليمة، والطينة المخمورة، ويكون من توابع الفطرة المحجوبة، وربَّما يُعدّ من المعاصي الكبيرة، ومن الموانع عن الاهتداء، ويكون سدّاً عن السعادة والسيادة، ولمَّا كان الإنسان ذا طبيعة مصحوبة بالمادّة والإمكانات الاستعدادية، وذا سجيَّة كامنة فيها قوَّة الوصول إلىٰ الخيرات والسعادات الدنيويَّة والأُخرويَّة في جميع الأحيان والأزمان، ولا تحتجب المادّة الحاملة للصورة الإنسانيَّة عن جلوات الحقّ وتجلّيات الرَّبّ، فلابدَّ ويجب عليه السعي البليغ والاجتهاد الواسع والقيام القاطع؛ لنيل تلك السعادة ودرك المعارف الحقَّة، والوصول إلىٰ حمام الصلح وعنقاء الوجود؛ بتوسيط الأسباب الخاصَّة وتسبيب المُعدَّات الممكنة، وبالرجوع إلىٰ أرباب الأنفس القُدسيَّة، ومزاولة النُّفوس الراقية المُرشدة والأولياء الكمّلين والأذكياء والأبرياء، مع تطبيق القواعد الشرعية الإلٰهيَّة والوظائف التكليفيَّة الإسلامية على أقواله وأفعاله وأعماله؛ راجين ـ في عين الجدّ والانتهاض ـ من الله العزيز الإمداد الغيبي والإعانة السَّرْمدية والعون الأحمدي والمحمَّدي والإعداد العلوي، ومتوجّهين إلىٰ الوسائل الزاكية بالإخلاص والتقوىٰ، ومتعوّذين بالله تعالىٰ من شرّ الشَّيطان الرَّجيم اللئيم، ومن كلّ دابَّة هو رخذ بناصيتها مترنّمين بالآيات الرَّحمٰانيَّة والأشعار العرفانية والمدائح الإيمانية.

وبالجملة: إذا غلبته الشقوة من كلّ جانب، فعليه أن يطوف حول

السعادة حتَّىٰ تحيط به، ويحول حول الخيرات حتَّىٰ يصير خيّراً، فإنَّ جنود العقل والخير وإن تكن أحياناً مغلوبة، إلاَّ أنَّها لأجل ورود الموائد الملكوتيَّة والأغذية الرُّوحانيَّة الجبروتيَّة، تقتدر علىٰ هضمها وجبرانها وتتمكَّن من قطعها وحرمانها فيصبح ـ إن شاء الله تعالىٰ ـ مرآة تامَّة ومجلًى عامّاً، ويكون مؤمناً صريحاً بعونه وتوفيقه.

الأخلاق والمواعظ القرآنية
(اليأس من روح الله)

اعلم يا شقيقي في الإيمان ويا صديقي في الطريق القويم والصّراط المستقيم: أنَّ الكتاب الإلٰهي كتاب الدعوة إلىٰ الحقّ بأنحائها، وكتاب الوعظ والإرشاد والتوجيه إلىٰ المعارف والأوصاف الفاضلة والنعوت الإنسانية، ويؤدِّب القارىء في مطاوي قضاياه وقصصه بأنواع الآداب البشرية والرسوم المعقولة الفاضلة، ومن ذلك أنَّ النظر إلىٰ هذه الآية وإن كان يوهم أنَّ من الأوصاف الإنسانية المداراة مع النَّاس، والله تعالىٰ أولىٰ بذلك من غيره، فكيف رضي بالاستهزاء بهم ولم يدارِهم؟! وكيف يمدّهم في طغيانهم يعمهون، وقد أمر بالمداراة مع الخلق والصبر علىٰ البلاء والحلم في مواقف الظلم والتعدّي؟!.

ولكن الدقيق من التأمّل والحقيق من التفكُّر: يورث أنَّ المنافقين وإن خلوا إلىٰ شياطينهم إلاَّ أنَّ الخلوة معهم والتستُّر في كفرهم وعنادهم لم يستلزم هتك حالهم وكشف سريرتهم، والَّذي أوقعهم في افتضاحهم، فأصبحوا مهتوكين بين العوامّ والأنام، وعلىٰ روس الخاصّ والعامّ، ما أظهروه وشهدوا علىٰ أنفسهم بكفرهم وبأنَّهم هم

المستهزئون، فأخذ الله عليهم واستهزأ بهم ومدّهم في طغيانهم يعمهون.

وإن شئت قلت: جميع الأوصاف الإنسانية وجميع المحامد البشرية والرعايات الأخلاقية، ليست مطلوبة علىٰ الإطلاق، بل لكلّ منها حدّ مخصوص، ولها حالة استثنائية، فإذا كان الإنسان المنافق بنظر بعين السوء إلىٰ حسن سلوك الآخرين، وينتفع من المداراة مع ضرر المؤمنين، ويتقوّىٰ بالصبر والحلم علىٰ هدم أساس المرسلين، فليس من تجويز العقل المداراة معه والحلم في حقّه، بل الأخلاق والعقول متعاضدة علىٰ إعدام هؤلاء النَّاس، ولأحد أن يقول: إنَّهم ليسوا حينئذٍ من النَّاس، ولا من المنسلكين في أنواع الحيوان، ألا وهو العدوّ لله ولرسوله وللمؤمنين، فاحذروا منهم، وقاتلهم الله أنّى يؤفكون ﴿إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

إذا تبيّن لك حلّ هذه المشكلة: فيا أخي في الله، ويا نفسي الّتي بين جنبيّ! خَفِ الله قبل كلّ شيء، واحذروا فإنَّ الطريق صعب والسدود كثيرة، وإذا ترىٰ ضعفاً في جهدك وفتوراً في قواك، فهل إلىٰ النجاة ترىٰ من سبيل، وإلىٰ الجنَّة تجد الصِّراط المستقيم؟ وهل بالفرار من المصائب تكون الرجعة، وإلىٰ العدم والوراء يمكن الاهتدام؟ كلاً ثمّ كلاً، فكن مع الله في جميع الحالات ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾[1]، ولا تيأس من روح الله، فإنّه لا ييأس من روح الله إلاّ القوم الفاسقون، وكن علىٰ بصيرةٍ من أمرك، فإنَّ الإنعامات الإلٰهيَّة والعنايات الربَّانيَّة ـ في جميع الآنات الزّمانيَّة

---

(١) هود (١١): ١١٤.

والدَّهريَّة ـ تعشق المربوبات، وتفي بالشرائط والمقتضيات، إلاَّ أنَّ منها ما هو بأمرك وتحت اختيارك، وهي إرادتك في الأُمور وعزمك علىٰ الحوادث في الدُّهور؛ حتَّىٰ لا تضمحلّ قدمك ولا يتدكدك رأيك.

فإنَّ الرَّحمة الواسعة الكلّية والقدرة الجامعة البسيطة، ربَّما تشمل العبد في حال من الحالات حتَّى يفيء إلىٰ أمر الله، ويفنى في فنائه، ويحشر يوم القيامة مع المتَّقين، ويكون في الجنَّة مع المقرَّبين والتوَّابين، «ألا وإنَّ لله في أيَّام دهركم نفحاتٍ ألا فتعرَّضوا لها»[1].

واعلم: أنَّ النَّفس من أسوأ الأعداء وأشدّ الخصماء وألدّ الخصام، وأنَّها أمَّارة بالسوء إلاَّ ما رحم ربِّي، وأنَّها المنافق الحقيقي، وهي الشيطان القرين، وساء قريناً، ولا تريد ولا تقصد إلاَّ أن تصل إلىٰ آمالها بهتك حُرُمات الله، وهدم السنن والشرائع الكلّية العامَّة والشخصية الخاصَّة في قلبك، فاستعن بالله العزيز، واصبر ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾ حتَّىٰ تخرجوا من هذه الورطة المحيطة، ولا تعتنِ بهذه الأُمور العلمية، ولا تقنع بالمفاهيم الكلّية الظُّلمانيَّة والحُجب النُّورانيَّة المانعة، بل اجتهد إلىٰ أن يتمثَّل فيك حقيقة الإيمان.

وقد جاءكم كِتَابٌ ونور ﴿يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾[2] و﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾[3]، فإيَّاك ثمَّ إيَّاك من معاشر السوء ومن

---

(١) راجع عوالي اللآلي ١: ٢٩٦، وبحار الأنوار ٦٨: ٢٢١، الباب ٦٦.

(٢) المائدة (٥): ١٦.

(٣) سبأ (٣٤): ٤٦.

مداراة المنحرفين والمجاملة مع الفاسقين والكافرين، فإنَّ من قرين السوء وجار السوء كان ﷺ ـ علىٰ ما في بعض الأخبار ـ يستغفر في كلّ صباح سبعين مرّة[١]، فإذا كانت تلك القدسية الحقيقية الإلٰهيَّة، وتلك المرآة الكلّية الجوهرية، تتكدَّر بأمثال معاشريه وأصحابه المعلومين وتشتكي من هؤلاء الجيران والمرافقين، فكيف بالآخرين؟! فنعوذُ بالله السَّميع العليم من الشَّيطان اللعين الرَّجيم إلىٰ يوم الدِّين.

(١) راجع بحار الأنوار ١٦: ٢٥٨/٤١، أمّا التفسير المذكور فهو احتمال من المصنّف.

الأخلاق والآداب والنصيحة
(الرّحمة والرأفة في قلوب العباد)

اعلم: أنَّ في رواياتنا رواية تشتمل على أُصول الأخلاقيّات؛ فضائلها ورذائلها، وهي ما رواه الكليني، وأخرجه في جامعه الكبير «الكافي»، عن عدَّة من أصحابنا، عن أحمد بن محمَّد، عن علي بن حديد، عن سماعة بن مهران، قال: كُنتُ عند أبي عبد الله عليه السلام، وعنده جماعة من مواليه، فجرىٰ ذكر العقل والجهل، فقال أبو عبد الله عليه السلام: «اعرفوا العقل وجنده والجهل وجنده تهتدوا». قال سماعة: فقلت: جعلت فداك لا نعرف إلاَّ ما عرَّفتنا، فقال أبو عبد الله عليه السلام: «إنَّ الله خلق العقل، وهو أوَّل خلق من الروحانيِّين عن يمين العرش من نوره، فقال له: أدبر، فأدبر، ثمَّ قال له: أقبل، فأقبل، فقال الله تعالىٰ: خلقتُك خَلْقاً عظيماً وكرَّمتك علىٰ جميع خلقي. قال: ثمَّ خلق الجهل من البحر الأُجاج ظُلمانيّاً، فقال له: أدبر، فأدبر، ثمَّ قال له: أقبل، فلم يُقبل، فقال له: استكبرت، فلعنه، ثمَّ جعل للعقل خمسةً وسبعينَ جُنداً، فلمَّا رأىٰ الجهل ما أكرم الله به العقل وما أعطاه، أضمر له العداوة، فقال الجهل: يا ربِّ هذا خلق مثلي خلقته وكرَّمته وقوَّيته، وأنا ضدّه ولا قوَّة لي به، فأعطِني من الجند مثلما أعطيته، فقال: نعم فإن عصيت بعد ذلك، أخرجتك

وجندك من رحمتي. قال: قد رضيتُ، فأعطاه خمسة وسبعين جنداً، فكان ممَّا أُعطي العقل من الخمسة والسبعين الجند الخيرُ هو وزير العقل، وجعل ضدّه الشرّ، وهو وزير الجهل... ـ إلىٰ أن قال ـ: والرَّحمة وضدّها الغضب...»[1] الخبر.

وربَّما يمكن المناقشة في سنده من ناحيتين، إلاّ أنَّ الظاهر اعتباره حسب ما تقرَّر منّا في «القواعد الرجالية»، مع أنَّ متانةَ المتنِ وكونه في «الكافي» من المؤيّدات علىٰ صحّة الرواية وصدورها. والله العالم.

ثمَّ اعلم: أنَّ البحث حول الرَّحمة الَّتي هي من جنود العقل، والغضب الَّذي هو من جنود الجهل، يحتاج إلىٰ البسط في الكلام لا يسعه المقام، ولكن لمَّا كان أساس الكتاب الإلٰهي لهداية عائلة البشر إلىٰ الكمالات الأخلاقيَّة والأوصاف الإلٰهيَّة، فلابدَّ من الإشارة إلىٰ مسائل ومباحث إجماليَّة.

اعلم: أنَّ الرَّحمة والرأفة والعطف من جلوات الأسماء الجماليَّة الإلٰهيَّة، وقد بسطها وأعطاها الله تعالىٰ الحيوان للمحافظة علىٰ الأنواع الحيوانيَّة، والإنسان للمحافظة علىٰ النظام الخاصّ البشري، وهذه الرَّحمة من جلوات الرَّحمة الرَّحمانيَّة، وتُسمَّىٰ بالرَّحمة الرَّحيميَّة في وجه، ويشترك فيها سائر الخلائق المجرَّدة البرزخيَّة والغيبيَّة حفظاً لما هو تحت سلطانه، وأنت خبير بأنَّ هذه الرَّحمة لو لم تكن في الحيوان والإنسان، لا يبقىٰ الحيوان والإنسان، ولكانت الحياة الفرديَّة والاجتماعيَّة فَشِلت، ولاضمحلَّت النظامات الاجتماعيَّة.

---

(١) الكافي ١: ١٦/١٤.

وبالجملة: لا يبقىٰ منها عين ولا أثر، فإنَّ الحيوان لأجل تلك الرَّحمة الموجودة في وجوده يتمكَّن من تربية أولاده، ويتحمَّل الزحمات والمضادَّات الوجوديَّة والمشقَّات الكثيرة، فبتلك الرأفة والعطف تنجذب القلوب نحو الأولاد في الحيوان والإنسان، ولأجل هذه المحبَّة والعشق الَّذي هو من تجلّيات تلك الرَّحمة، يتهيَّأ لدفع المزاحمات الوجوديَّة والأعداء وغير ذلك.

وهذه الرَّحمة والرأفة هي الَّتي تبعث الأنبياء والروحانيِّين والعلماء والزعماء إلىٰ تحمُّل المشاقّ وتقبُّل المصائب في هداية البشر والإنسان إلىٰ الحقائق، وفي إخراجهم من الظُّلمات إلى النُّور.

فبالجملة: هذه البارقة الإلٰهيَّة ـ الَّتي وجدت في الحيوان عموماً وفي الإنسان خصوصاً ـ مدار المجتمعات الصغيرة والكبيرة، وأساس النظامات البلديَّة والقطريَّة والمملكتيَّة وغير ذلك.

فإذا كان الإنسان يجد في نفسه تلك الرَّحمة بالنسبة إلى أفراد نوعه وعائلته، فكيف بربّ العالمين الَّذي هو نفس حقيقة الرَّحمة؟! ومن تلك الرَّحمة خلَق الخلائق وهيَّأ لهم الأسباب للراحة والاستراحة، وأوجد من تلك البارقة الملكوتيَّة وأودع منها في النُّفوس الحيوانيَّة والبشريَّة، متمنّياً أن يصرفها النَّاس في محالّها، وتكون في ظلّها هذه الخلائق في الفرح والعيش.

فهل يجوز لك أن لا تكون رحماناً ورحيماً بالخلق، الَّذي هو إمَّا نظيرٌ لك في الدِّين أو شبيه لك في المخلوقيَّة[١]، وهل يجوز لك أن

(١) نهج البلاغة، صبحي الصالح: ٥٩٠، رسالة ٥٣.

تبيت ببِطنة وحولك أكباد تحنُّ إلىٰ القدّ، كلاً وحاشا ما هكذا الظنّ بكم! فكونوا مماثلين للرّسول الأعظم الإلٰهي، فقد قال الله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾(١)، وقد وصفه في الكتاب العزيز بأنّه﴿رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾(٢).

وغير خفيّ: أنّ من تجلّيات تلك الرّحمة الإلٰهيّة ما هو في صورة الغضب والانتقام، وهو في الدُّنيا كجعل القوانين النظاميّة السياسيّة، ولذلك قال: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾(٣)، وفي الآخرة كجعل النّار والميزان لتخليص الأفراد الأراذل من الخبائث والأنجاس النفسانيّة، فإنّها من قبيل رفقاء السوء وجلساء الذموم في تنفّر الطباع عنها والاشمئزاز منها، وقد مرّ جملة من البحث حول هذه المسألة، وقد عدّ ذلك من الآلاء علىٰ احتمال في سورة الرّحمٰن ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾﴾(٤) ولعلّ هذا هو معنىٰ قولهم: «سبقت رحمته غضبه» فإنّ غضبه من تجلّيات الرّحمة الإطلاقيّة الذاتيّة.

فعلىٰ هذا يا عزيزي ويا أيّها القارىء الكريم عليك بالجدّ والاجتهاد في الاتّصاف بهذه الصفة الربوبيّة بالنسبة إلىٰ جميع الخلائق، ولاسيّما المؤمنين، وتدبّر في الحضرة الربوبيّة وما يصنع بالعباد من العطوفة والرأفة ومن اللطف والمحبّة، مع تلك القدرة وذلك

---

(١) التوبة (٩): ١٢٨.

(٢) الأنبياء (٢١): ١٠٧.

(٣) البقرة (٢): ١٧٩.

(٤) الرّحمٰن (٥٥): ٣٥ ـ ٣٦.

الغضب الَّذي لا تقوم له السَّماوات والأرض فضلاً عنك أيُّها الضعيف المسجون في الدُّنيا والمحبوس في الطبيعة، عليك أن تجتهد في اكتساب الأخلاق الفاضلة، والتخلّق بالفضائل النفسانيَّة والتشبُّه بالإنسان الكامل، فتكون رحمة لعالمك إن لم تتمكَّن من أن تكون رحمة للعالمين، فتدبَّر فيما حكىٰ القرآن عن حدود رأفة الرَّسول الإلٰهي الأعظم في سورة الشعراء: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ۝٣﴾[1] وفي سورة الكهف: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾[2].

سبحان الله ما أعظم شأنه ﷺ، فإنَّه يتأسَّف علىٰ حال الكفَّار والجاحدين، ولقد بلغت مودَّته ومحبَّته في إيصال العباد إلى الدار الآخرة وإلىٰ السعادة العُظمىٰ إلىٰ حدّ أخذ ربُّ العالمين في تسليته وتسكينه عمَّا يقع في قلبه الشريف؛ حذراً عن هلاكه وخوفاً من تقطُّع قلبه وروحه.

فيا أيُّها الأخ الكريم والعبد الأثيم: إن اتصفتَ بالرَّحمة الإلٰهيَّة وتصوَّرتَ بصورة تلك البارقة الملكوتيَّة، فمرحباً بك ونعيماً لك، وإن تمثَّلت بمثال الرَّحمة المحمَّديَّة، وتنوَّرت بنور وجوده الَّذي هو رحمة للعالمين، فبُشرىٰ لك وإذا كنتَ عاجزاً عن ذاك وذا، فلا أقلّ من الاجتهاد في سبيل الشركة مع المؤمنين السابقين، المحشورين مع النَّبيّ ﷺ والأمير عليه السلام الَّذين وصفهم الله تعالىٰ في الكتاب في سورة الفتح: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾[3].

---

(١) الشعراء (٢٦): ٣.

(٢) الكهف (١٨): ٦.

(٣) الفتح (٤٨): ٢٩.

وقد ورد في الآثار المرتضويَّة والأخبار الجعفريَّة الأحاديث الكثيرة المتضمّنة لهذه الصفة، ولا بأس بالإشارة إلىٰ بعضٍ منها:

١ ـ قد أخرج الكُليني بإسناده عن الصَّادق عليه السلام أنّه يقول لأصحابه: «اتَّقُوا الله وكونوا أُخوة بَرَرة، متحابّين في الله، متواصلين متراحمين، تزاوروا وتلاقوا، وتذاكروا أمرنا وأحيوه»[١].

٢ ـ وبإسناده عنه عليه السلام قال: «يحقّ علىٰ المسلمين الاجتهاد في التواصل، والتعاون على التعاطف والمواساة لأهل الحاجة، وتعاطف بعضهم علىٰ بعض حتّىٰ تكونوا كما أمر الله عزَّ وجلَّ: ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ متراحمين، مغتمّين لما غاب عنكم من أمرهم علىٰ ما مضىٰ عليه معشر الأنصار علىٰ عهد رسول الله صلى الله عليه وآله»[٢].

٣ ـ وعن «مجالس» الطوسي ـ قدّس سرُّه القدُّوسي ـ عن عليّ عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنَّ الله عزَّ وجلَّ رحيم يحبّ كلّ رحيم»[٣].

٤ ـ وعن العلاَّمة الحلّي في «المستدرك» في «الرّسالة السَّعديَّة» عنه صلى الله عليه وآله أنّه قال: «والَّذي نفس محمَّد بيده لا يضع الله الرَّحمة إلاَّ علىٰ رحيم». قالوا: يا رسول الله كلّنا رحيم؟ قال: «ليس الَّذي يرحم نفسه وأهله خاصَّة ولكنَّ الَّذي يرحم المسلمين» وقال صلى الله عليه وآله: «قال تعالىٰ: إن كنتم تُريدون رحمتي فارحموا»[٤].

---

(١) الكافي ٢: ١٤٠/١.

(٢) الكافي ٢: ١٤٠/٤.

(٣) الأمالي، الشيخ الطوسي: ٥١٦/١١٢٩.

(٤) الرّسالة السّعديّة: ١٦٥، مستدرك الوسائل ٢: ٩٥ كتاب الحج، أبواب أحكام العشرة، الباب ١٠٧، الحديث ٣.

٥ ـ وعن «الجعفريات» عنه ﷺ قال: «من لا يَرحم النَّاس، لا يرحمه الله»[١].

٦ ـ وعن «عوالي اللآلي» عنه ﷺ: «الراحمون يرحمهم الرَّحمٰن، ارحموا من في الأرض، يرحمكم من في السَّماء»[٢].

فالملاطفة من جنود الرَّحمٰن ولا تختصّ بكون طرفها الإنسان أو الحيوان، بل تشمل كلّ شيء حتَّىٰ النباتات.

فيا قُرَّة عيني المحترم ويا رفيقي وصديقي أفلا تتدبَّر في الكتاب العزيز؛ حيث كرَّر البسملة فيها، واستدركها في سورة النمل؛ لما فات في سورة التوبة، فهل تحتمل أن لا يكون في هذا التكرير غرض أعلىٰ ومقصد أجلىٰ، وهو سوق البشر إلىٰ اتباع هذه الجلوات، وبعث النَّاس إلىٰ جعل هذا البرنامج دستور عمله ووجهة فكره، فكن في دُنياك باذلاً عمرك في نجاة عائلتك من تبعات أعمالهم، وجنّبهم عمَّا يتوجَّه إليهم من العقوبات الشديد، والعذاب الأليم في البرازخ والقيامة، ولا تكن كالمعطّلين الوجود والبهيمة أو أضلّ، فاهتمّ في أمر أخيك المسلم، ولا تكن من الغافلين عن أمر بديع:

وهو أنَّ أرباب الرَّحمة وأصحاب الرأفة والعطوفة، ربَّما يصدر منهم الخشونة والغضب، ولكنَّه ـ رحمة بالنسبة إلىٰ النوع، وغضب بالنسبة إلىٰ الفرد، خير بالقياس إلىٰ النظام الكلّي، وشرّ بالقياس إلىٰ

(١) الجعفريات: ١٦٧، مستدرك الوسائل ٢: ٩٥ كتاب الحج، أبواب أحكام العشرة، الباب ١٠٧، الحديث ٤.

(٢) عوالي اللآلي ١: ٣٦١/ ٤٢، مستدرك الوسائل ٢: ٩٥ كتاب الحج، أبواب أحكام العشرة، الباب ١٠٧، الحديث ٨.

الآحاد الفانية في الاجتماع، وربّما يكون رحمة بالنسبة إليهم، وأيضاً لما أُشير إليه: أنَّ في ذلك نجاة من البلاء العظيم، وهو الابتلاء بالنّار وتبعات الأفعال والصفات في النشآت الآتية.

فيا عزيزي ويا محبوبي كفاك هذا نصحاً، وكفىٰ هذا الفقير المفتاق إلىٰ رحمةَ ربّه ذكراً، فنرجو الله تعالىٰ أن يوفّقنا لمرضاته، ويهدينا إلىٰ السعادة الأبديَّة، فإنّه خير موفّق ومعين.

ثمَّ إنَّ البحث عن ضدّ الرَّحمة، وهو الغضب والقسوة، سيأتي في محلّه إن شاء الله تعالىٰ، ولا يجوز الخروج عمّا هو المربوط بالمسألة فإنّه من الإطالة المنهيّ عنها.

بحث وإرشاد

قد تقرَّر عند أهل الذوق والتحقيق: أنَّ جميع الصفات الكماليَّة داخلة في الفطرة وتعدّ من الفطريّات، ويكون في الإنسان فطرة العشق بالكمال علىٰ الإطلاق وفطرة الزجر عن النقص، والرَّحمة من الصفات المحمودة في هذه الطينة والطبيعة، وتحتاج في خروجها من القوَّة والفطرة الإجماليَّة إلىٰ الفعليَّة التفصيليَّة، وربَّما تصير الفطرة لأجل الكدورات الملتحقة والعلل السابقة ـ وهي الأرحام الخبيثة، والأصلاب غير الشامخة ـ محجوبة ومبغوضة ومُبَعدة ومسفرة، فإيّاك وهذا، وعليك بذاك.

الموعظة والأخلاق والنصيحة
(المراحل والمنازل والوصول)

اعلم يا أخا الحقيقة ويا قُرَّة عيني العزيز: أنَّك إذا تأمَّلتَ بعين الإنصاف وحسن البصيرة، أنَّ الَّذي تصدَّىٰ لتربيتك والَّذي خلقك وأحسن خلقك، وأرسل إليك الأسباب الباطنيَّة والظاهريَّة؛ لإخراجك من الظُّلمات إلىٰ النُّور ومن الأدناس، إنَّه هو الرَّحمٰن الرَّحيم بجميع الخلائق والعوالم، وإنَّه ربّ العالمين؛ الغيب والشهود، وإنَّه مالك يوم الدِّين في الدُّنيا والآخرة، وإنَّ بيده كلّ شيء، وإليه يرجع كلّ شيء، وإنَّه كلّ الكمال وكلّه الكمال، وكلّ الجمال وكلّه الجمال، ولا كمال ولا جمال إلاَّ كماله وجماله.

فعندما تيقَّنت بذلك، وبلغت إلىٰ شهوده في تلك المراحل والمنازل، فهلاَّ تقول: إيَّاك نعبد كذباً وافتراءً، ولتكن في حذر من ذلك، فعليك الاجتهاد والجدّ في الوصول إلىٰ غاية المأمول لأصحاب العقول والإيقان، ولأرباب الشهود والعرفان، وهو أن تقول: إيَّاك نعبُدُ خالصاً، ولا شيء وراءه في هذه العبادة والطاعة في جميع الحلقات المحيطة بها، ولا تخطر في قلبك من أحد شيئاً، ولا تخاف من غير العزيز الجبَّار، المنطوي في جبروته مالكيَّة غيره وقاهريَّة سواه، فبعد

الإقرار والاعتراف بتلك الحقائق والرقائق، وبعد الإذعان بأنَّ ربّ السَّماوات العُلىٰ والأرضين السُّفلىٰ، هو الحميد الغنيّ، وهو المالك وهو الرَّحمٰن الرَّحيم، فلا يجوز في شرع الحقيقة والعرفان اشتراك الغير في عبادته بأيّ وجه كانت الشركة، وهكذا الاستعانة بالغير، بل يرىٰ في هذا الموقف أنَّه لا يتمكَّن الفقير من إعانة الفقير، والممكن من إعانة الممكن.

فإذا وصل القارىء السالك إلىٰ هذا المقام، وهو مقام الجمع بين الغيب والشهود، ومقام الأنس مع الرَّبّ الودود، فيترنّم بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾ حاصراً ذلك فيه؛ وإن لم يكن التقديم للحصر، ولكنَّه يجب عليه إرادة الحصر وقصد الانحصار، بل العبد السالك الفاني عن تعيّنات المادَّة وحدود الشهوات والمُدَّة، لابدَّ وأن يسعىٰ في المقامات الأُخر الخاصَّة بالعارفين بالله، والكاملين في ذات الله، والمخلصين في توحيد الله، وكلّ ذلك رشح من رَشَحات معرفته بالله في التوحيدات الثلاث، التوحيد الذاتي والصفاتي والأفعالي، فإنَّ التوحيد في العبادة في ظلّ هذه التوحيدات وصورة تلك الوحدات، وعليك بالتجريد والتفريد أوَّلاً وبالشهود والعرفان ثانياً؛ حتَّىٰ يتمكَّن العبد من توحيده في العبادة علىٰ الوجه اللائق به، وإن حُكي عن سيّد البشر ﷺ: «أنت كَما أثنيت علىٰ نفسك، ما عبدناك حقّ عبوديَّتك، وما عرفناك حقّ معرفتك»[1].

---

(١) راجع مسند أحمد ١: ٩٦ و١١٨ و١٥٠، سنن ابن ماجة ٢: ٣٨٤١/١٢٦٣، سنن الترمذي ٥: ٣٥٦٢/١٨٧ و٣٥٦٣، بحار الأنوار ٦٨: ٢٣/١، مرآة العقول ٨: ١/١٤٦.

فإذا وصلت إلىٰ هذا المقام، يظهر لك أنَّ للعبوديَّة ظهوراً في جميع العوالم وفي مختلف نشآت العبد؛ من نشأة العقل والرُّوح إلىٰ القلب والطبع، ومن رأسه إلىٰ قدمه، وفي جميع حركاته وسكناته. ولعلَّ إلىٰ بعض هذه الدرجات أُشير في حديث عنوان البصري وقال «وهو أن لا يرىٰ العبد لنفسه فيما خوَّله الله ملكاً؛ لأنَّ العبيد لا يكون لهم ملك، بل يرون المال مال الله يضعونه حيث أمر الله، وأن لا يدبّر لنفسه تدبيراً، وأن يكون جملة اشتغاله بما أمره الله تعالىٰ به ونهاه عنه، فإذا لم يَرَ العبد لنفسه فيما خوَّله الله تعالىٰ ملكاً، هان عليه الإنفاق فيما أمره الله تعالىٰ أن ينفق فيه، وإذا فوَّض العبد تدبير نفسه إلىٰ مدبّره، هان عليه مصائب الدُّنيا، وإذا اشتغل العبد فيما أمره الله تعالىٰ ونهاه، لا يتفرَّغ منهما إلىٰ المراء والمباهاة مع النَّاس، فإذا أكرم الله العبد بهذه الثلاث هان عليه الدُّنيا والرئاسة والخلق، ولا يطلب الدُّنيا تفاخراً وتكاثراً، ولا يطلب ما عند النَّاس عزّاً وعلوّاً، ولا يدع أيَّامه باطلاً، فهذا أوَّل درجة المتَّقين»[1] الحديث.

فبالجملة: أن يرىٰ العبد نفسه وجميع العالَمين من جميع الجهات، فقراء إلىٰ الله الغنيّ عن الكلّ من كلّ الجهات، فإذا يوجّه خطابه إلىٰ الذات، ويرىٰ أنَّ هذا الخطاب من الإمدادات الغيبيَّة ومن التوفيقات الإلٰهيَّة ومن الإعانات الربَّانيَّة، فعند ذلك كيف يرتضي بالتشريك في العبادة وبالرياء والسمعة وغير ذلك من الأمراض النوعيَّة القلبيَّة؟! أعاذنا الله تعالىٰ من شرورها بمحمَّد وآله الطاهرين.

---

(١) بحار الأنوار ١: ٢٢٤ ـ ٢٢٥.

الأخلاق والنصيحة والأدب
(الخدعة وسراديب الأسواء)

من الأخلاق الذميمة والأوصاف الرذيلة الخدعة، وضدّها الصراحة والصدق.

وربَّما يُقال: إنَّ هذه الصفة وكثير ممَّا قارنتها، ليست محكومة بالحسن والقبح إلاَّ لأجل الآثار والمقاصد، فمن يخادع لأجل إحقاق الحقّ وإبطال الباطل، فخُدعته حسنة، ومن ينعكس يكون من المخادعين المُقبِحين.

والَّذي يقوىٰ في النظر: أنَّ الأوصاف تنقسم إلىٰ الحسنة والقبيحة انقساماً واقعياً، إلاَّ أنَّ من الشجاعة والسخاوة ما يستعمل في جهة الشَّر، فيكون استعمالهما فيه قبيحاً، دونهما في ذاتهما، ومن الخدعة والمكر والحيلة وأمثالها ما يستعمل في ناحية الخير فهو أيضاً كذلك، فيكون نفس الاستعمال حسناً لمَّا رجَّح العاملُ جانب الأمر الأهمّ؛ بابتلائه بالخدعة الَّتي هي مذمومة ذاتاً ورذيلة حقّاً.

فكثيراً ما يخفىٰ حقيقة الأمر على الروَّاد والمحصّلين وعلىٰ طلاَّب العلوم؛ خالطين بين الجهات والعناوين، معتقدين أنَّ تلك

الأوصاف حسنها وقبحها ذاتيَّان أو طبعيَّان أو فطريَّان علىٰ اختلاف التعابير، مع أنَّ الأمر ليس كما تخيَّلوه.

فبالجملة: الخدعة مذمومة جدّاً. نعم ربَّما يجب الخداع للوصول إلىٰ صفة أهمّ منها، أو إلىٰ أمر وفعل وحادثة هي عظمىٰ من تلك الخدعة، ولذلك يركبها العقل ويسوقها الفكر حتَّىٰ لا يضلّ ولا يشقىٰ، فإعمال تلك الأوصاف الحسنة أو القبيحة، ليس مستحسناً علىٰ كلّ حال، أو قبيحاً في كلّ مجال.

ويشهد علىٰ هذه المقالة: قوله تعالىٰ ردّاً عليهم: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾، فإنَّه يستكشف منه أنَّ الخدعة من الرذائل الراجعة إليهم حقيقة أو أثراً، وخاصَّة وأنَّ هذه الآية في موقف هتكهم و[التشنيع عليهم] بأنَّهم يريدون خداع الله تعالىٰ والمؤمنين، فيعلم منه أنَّها من الصفات القبيحة في حدّ ذاتها وإن أمكن تُستحسن عرضاً وبالغير، فتدبَّر.

إذا تبيَّنتَ هذه المسألة فليعلم:

أوّلاً: أنَّ الإنسان ـ حسب النوع والعادة ـ وإن لا يتمكَّن من تحقيق جميع النعوت الكماليَّة، ورفض جميع الرذائل والقبائح والشرور والسيِّئات، ولاسيَّما أن يتحقَّق بأعلىٰ مراتبها ويتخلَّىٰ عن جميع زواياها ولكنَّه يقتدر علىٰ أن يتجلَّىٰ فيه الأوصاف إجمالاً، ويرفض ويتخلَّىٰ عن تلك الرذيلات بالنسبة.

وممَّا يجب أن يهتمّ به الأوصاف الكريمة، المنتهية إلىٰ الأعمال والأفعال الإنسانية والإسلامية؛ حتَّىٰ يكون إنساناً كاملاً ومسلماً مؤمناً بالحمل الشائع، وممَّا يلزم عليه التحرّز عن أضداد هذه النعوت؛

برفض الشرور والملكات المنتهية إلىٰ الأعمال الخبيثة والأفعال القبيحة، ومن هذه الأوصاف هي الخدعة ومقابلها الصراحة.

وقد شوهد أحياناً بعض الأكابر من المسلمين، قد ابتُلوا ببليّات كثيرة حتّىٰ القتل والسبي حذراً عن الخدعة والاحتيال، وما ذلك إلاّ لأجل قوّة إيمانهم وصفاء ذاتهم وصراحة قولهم وصدق فعلهم.

فيا أيُّها العزيز القارىء الكريم وإن كان راقم هذه الحروف من القاطنين في سجن الشرور والطبائع، والمخلَّدين في سراديب الأسواء والظُّلمات، ولكنَّك لا تكن مثله، فعليك الجدّ والاجتهاد والقوّة والنشاط بترك الخدعة والمكر، ولاسيَّما مع المؤمنين الأبرياء والمسلمين الأصدقاء، ولا تكتفِ من هذه الآية بقراءتها وكتابتها أو تفسيرها وتوضيحها، كخادمك راقم الحروف، فإنَّ هذه المفاهيم والأساطير ممَّا ترجع إلينا وفيه الحسرة الكلّية والتأسُّف الشديد ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ۝٨٩﴾[1] عن كدورات الخداع والاحتيال والمُكور، ولا يتمكَّن الإنسان ـ يا أخي العزيز ـ من تحصيل القلوب السليمة في البرازخ والنشآت المتأخّرة، فعليك بالتهذيب وتحصيل السلامة والقلب السليم في هذه النشأة، ولاسيَّما في عصر الشباب والأزمنة الابتدائية والأحيان الأوّلية، وإلاّ فربَّما يصبح الإنسان شيخاً وقد امتلأ قلبه قبحاً، وصارت ملكاتها راسخة بحيث لا يتمكَّن من قلع مادَّة فسادها، فنعوذ بالله العزيز من شرّ النَّفس اللئيمة.

وليعلم ثانياً: أنَّ هذه الآية ربَّما تشير إلىٰ ممنوعية جميع أنحاء

---

(١) الشعراء (٢٦): ٨٨ و٨٩.

الخُدع، وأنَّ مُخادعة الله مذمومة بأقسامها، ومنها الرياء، فإنَّ المرائي يتشكَّل بشكل العابد إلاّ أنَّه يعبد الشَّيطان، وهو له قرين، والخدعة ليست إلاّ ذلك حسب ما عرفت منّا في توضيحها، ولا يكون المرائي إلاّ مُبطِناً شرَّه ومُظهراً خيره وهكذا.

وإلىٰ هذه اللطيفة تشير رواية شريفة؛ علىٰ ما رواه الصدوق بإسناده المعتبر عن مسعدة بن زياد، عن جعفر بن محمَّد، عن أبيه عليهما السلام: «سُئل فيما النجاة غداً؟ فقال: إنَّما النجاة في أن لا تخادعوا الله فيخدعكم، فإنَّه من يخادع الله يخدعه، ويخلع الله عنه الإيمان، ونفسَه يخدع لو يشعر. فقيل له: كيف يخادع الله؟ فقال: يعمل بما أمر الله عزَّ وجلَّ به، ثمَّ يريد به غيره، فاتَّقوا الله والرياء، فإنَّه شرك بالله عزَّ وجلَّ، إنَّ المرائي يُدعىٰ يوم القيامة بأربعة أسماء: يا كافر، يا فاجر، يا غادر، يا خاسر، حبط عملك، وبطل أجرك، ولا خلاق لك اليوم، فالتمس أجرك ممَّن كنت تعمل له»[1].

فيا أيُّها الإنسان الكريم، ويا أيُّها المؤمن المسافر إلىٰ رحمة الله وبركاته: ما ألهاك عن الله العزيز؟! وما أشغلك عن ربِّك الرؤوف الرَّحيم؟! حتَّىٰ تصبح من الغادرين المحتالين، وتعمل لغير الله، مع أنَّ الأمر كلّه بيده في هذه النشأة وسائر العوالم والنشآت فكأنَّك تظنُّ في ريائك مأدبة في الدُّنيا ومكانة فيها ترىٰ أنَّ في جلب قلوب ـ النَّاس وأفئدة الخلائق معيشة مرضية لك مقضيَّة، كلاً ثمَّ كلاً، أزِمَّة الأُمور طُرّاً بيده والكلّ مستمدّ من

(١) راجع معاني الأخبار: ٣٤١، وثواب الأعمال: ٣٠٣/١.

مدده[١]، فلا تقرع أبواباً كثيرة، ولا تدع أرباباً شتّىٰ، ﴿...أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾[٢] وقدير.

ونعم ما قيل: كيف يمكن أن يرائي من يعتقد بالتوحيد، ومن يعبد الله ويعتقده فكأنّ المرائي لا يصير كافراً بريائه، بل رياؤه كاشف عن كفره السابق وعدم اعتقاده وإيمانه، والله هو الحافظ المنعم، وعليه التوكُّل والتكلان.

توجيه وتشريف

قيل: في هذا الفنّ وأمثاله نقف أمام حقيقة كبيرة وأمام تفضُّل من الله الكريم، تلك الحقيقة هي الّتي يؤكّدها القرآن دائماً ويقرّرها، وهي حقيقة الصلة بين الله والمؤمنين؛ إنّه يجعل صفّهم صفّه وأمرهم أمره وشأنهم شأنه، يضمّهم سبحانه إليه، ويأخذهم في كنفه، ويجعل عدوّهم عدوّه، وما يوجّه إليهم من مَكْر مُوجّهاً إليه سبحانه، وهذا هو التفضُّل العُلوي الكريم، التفضُّل الّذي يرفع مقام المؤمنين وحقيقتهم إلىٰ هذا المستوىٰ السامق، والّذي يوحي بأنّ حقيقة الإيمان في هذا الوجود أكبر وأكرم الحقائق، والّذي يسكب في قلب المؤمن طمأنينة لا حدّ لها، وهو يرىٰ الله جلّ شأنه يجعل قضيّته هي قضيّته، ومعركته هي معركته، وعدوّه هو عدوّه، ويأخذه في صفّه، ويرفعه إلىٰ جواره الكريم، فماذا يكون العبيد وكيدهم وخداعهم وأذاهم؟! وهو في ذات الوقت تهديد وعيب للذين يحاولون خداع المؤمنين والمكر بهم وإيصال الأذىٰ إليهم؛ تهديد لهم بأنّ معركتهم ليست مع المؤمنين

---

(١) راجع شرح المنظومة (قسم الفلسفة): ٨.

(٢) فصّلت (٤١): ٥٣.

وحدهم، إنَّما هي مع الله القويّ الجبَّار القهَّار، وأنَّهم إنَّما يحاربون الله حين يحاربون أولياءه، وإنَّما يتصدَّون لنقمة الله حين يحاولون هذه المحاولة اللئيمة.

وهذه الحقيقة من جانبيها جديرة بأن يتدبَّرها المؤمنون؛ ليطمئنُّوا ويثبتوا ويمضوا في طريقهم، لا يبالون كيد الكائدين ولا خداع الخادعين، ويتدبَّرها أعداء المؤمنين، فيفزعوا ويرتاعوا ويعرفوا من الَّذي يحاربونه ويتصدّون لنقمته حين يتصدّون للمؤمنين[1]. انتهىٰ.

وفي هذا النصّ: إرشاد وإيعاز إلىٰ كيفيَّة مداراة المالكين لمماليكهم والسادة لعبيدهم والرؤساء لرعاياهم، فإذا كانوا مؤمنين فهم في صفّ الله تعالىٰ مع بُعد الفصل، فكيف بهم في عشرتهم معهم ومواساتهم، والله وليّ الحمد والتوفيق.

وفيه أيضاً: إيماء وإشارة إلىٰ إغماضه تعالىٰ عن خطيئاتهم، واكتفائه بجعلهم في صفِّه سبحانه بإيمانهم، فليكونوا مثله حتَّىٰ يعامل معه معاملته.

(١) التفسير في ظلال القرآن ١: ٤٥ _ ٤٦.

الأخلاق والموعظة
(الغضب، مناجاة)

اعلم أنَّ الغضب من الصفات الممدوحة، ومن الكمالات الموهومة اللازمة في هذه النشأة لتقوّم المحافظة علىٰ البقاء به، كما تحرّر في الكتب الأخلاقيَّة، ومن الرذائل والخبائث في نظر آخر إذا كان خارجاً عن حيطة العقل وسلطان الاعتدال، وحيث إنَّ البحث عن ذلك وعن الضلالة يأتي في المواقف الأنسب، وأنّهما من جنود الشّيطان والجهل، وأن لا يوجد في رواية العقل والجهل وجنودهما من الضلالة أثر، ولكنَّها من المندرجات في بعض الكلّيّات المذكورة فيها، مثل الباطل والشرّ[١].

وإنّي في جميع بحوث هذا السِّفْر القيِّم، لاحظت الاختصار وعدم الخروج عن المناسبات الأوَّليَّة وعند حدود الدلالات اللفظيَّة بالنسبة إلىٰ الآيات الكريمة، وإلاّ «مثنوي هفناد من كاغذ شود».

ثمَّ اعلم أيُّها الأخ الكريم والقارىء العزيز: أنَّ النعم الإلٰهيَّة المتناهية نوعاً وصنفاً، وغير المتناهية شخصاً، الّتي استولت عليك من الجوانب الشتّىٰ ومن النواحي والضواحي المختلفة، والعنايات الربّانيَّة

(١) راجع الكافي ١: ١٦ ـ ١٧/ ١٤.

الَّتي شملتك من الابتداء إلىٰ منتهىٰ السير ـ في جهات كثيرة؛ معنويَّة ومادّيَّة، روحيَّة وجسمانيَّة ـ تقتضي أن تقوم لله وفي الله، وأن تُجيب إلىٰ طاعته وعبادته بعدم إبطال تلك النعم، وبعدم الانحراف عنها، فعليك يا أيُّها المحبوب المكرَّم أن لا تغترّ بما في هذه الصحف من الإنعامات الغيبيَّة، فإنَّها مفاهيم قالَبيَّة، وما دام العبد لا يخرج من تلك المعاني التخيُّليَّة إلىٰ الحقائق الغيبيَّة، لا يصير كاملاً ولا يُعَدُّ عبداً.

فعليك بتهذيب النَّفس عن جميع الرذائل والشرور، والتحلّي بحِلْية الفضائل والخيرات، وبمحاسن الأخلاق الكريمة والمحسّنات العقليَّة، وعليك بالمجاهدة والرياضات بترك لذَّات الدُّنيا مهما أمكن، وملازمة أهل الخير والتقوىٰ في كلّ مكان ميسَّر لك، فإنَّ من أشرف الأُمور وألذّ الأشياء عند أهل السداد والعرفان، المسافرة في مختلف البلاد لدرك أرباب الكشف والإيمان، وأصحاب القلوب والقرآن، وقد كان دأب السلف وديدن الخلف علىٰ هذه الطريقة المُثلىٰ وتلك الرويَّة العليا.

فيا إلٰهي وسيِّدي قد أفنيتُ عمري في شِرَة السهو عنك، وأبليتُ شبابي في سَكرة التباعد منك، فيا إلٰهي ومولاي أسألك أن توفّقني لأن أنال من الخير ما يليق بجنابك، وأن أختطف من البرّ ما في سعة رحمتك.

وأسألك اللّهمَّ أن توفّقني لدرك ما في كتابك العزيز القرآن الشريف؛ من مخازن علومك وخزائن معارفك، وأسألك اللّهمَّ أن لا تحجب بيني وبينها الذُّنوب والسيِّئات، ولا تحرمني منها بالمعاصي والآفات.

فيا ربّي ويا عزيزي وأملي وسيّدي ومولاي إليك نبتهل ومنك نسأل يا ذا الجود والكرامة أن نقوم بالأعمال الصالحة، وأن تملأ قلوبنا من أنوار هذه السورة المباركة، وأن تُعيننا علىٰ طاعتك بالمواظبة علىٰ أحكامها ومراعاة آدابها، وأن لا نكون من الَّذين يقرأون القرآن وينقرونه كنقر الغراب، ولا من الَّذين يلعنه الكتاب، ولا من المحجوبين عن حقائقها ودقائقها، ولا من المسجونين عن شؤونها وأطوارها، فإنَّه قد ورد: «رُبَّ تالٍ القرآن والقرآن يلعنه»(١) فرُبَّ مفسّرٍ للكتاب ومن أفنىٰ عمره في توضيح مقاصده والقرآن ينزجر منه ونعوذ بالله تعالىٰ أن تكون منهم.

يا خير المسؤولين ويا خير المعطين اشفِ به صدورنا، وأذهب به غيظ قلوبنا، واهدِنا به لما اختُلف فيه بإذنك يا رحيم ويا كريم.

(١) راجع بحار الأنوار ٨٩: ١٨٤/١٩.

بعض المواعظ الأخلاقية والإرشادات اللازمة
(الخيالات والمفاسد)
﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾

١ ـ **اعلم يا أخي في الله ويا شقيقي في الطريق وسلوك السُبل الحقَّة في الأزقَّة** أنَّ من الأدب في مقام الاحتجاج إظهار ما في النَّفس، وإبراز ما في القلب بطريق الأسئلة، وعلىٰ نهج الجهالة وعدم الخبرويَّة، ولو كان بحسب اعتقاده خبيراً بصيراً، ولكنْ أولئك الملائكة المقدِّسون المسبِّحون، فإنَّهم مع كونهم في هذه المثابة من الوجود والمرتبة، ومع كونهم في نشأة عالية من نشآت العين والخارج والتحقُّق، لا يعترضون ولا يعتركون ولا يصبحون في اللجاج والمعارك، وغاية ما عندهم؛ هو عرض أمرهم وخواطر بالهم وخيالاتهم؛ بذكر ما كان عندهم من المفاسد النوعية المسبوق بها فكرهم وإدراكهم، أو انتقلوا إليها بعدما كانوا عالمين بما تحت الخلافة في الأرض السفلىٰ وبطون الأودية وسطوح التراب، وبذكر ما عندهم من الصفات الحميدة والأوصاف الحسنة والحسنات الكثيرة، مراعين الأدب نهايته ومواظبين عليه غايته.

٢ ـ يظهر أنَّ هذه الآية تُرشد إلىٰ أنَّ الله تعالىٰ بها يريد إرشاد

النَّاس إلىٰ المشاورة والفحص والبحث، وإلىٰ المذاكرة في الأُمور، فأظهر ما عنده من الإرادة والقصد للملائكة؛ بجعل الخلافة للإنسان حتَّىٰ تكون الملَّة مثله تعالىٰ بذكر ما في نفوسهم عند الأغيار؛ حتَّىٰ يحصل له من الحقائق ما خفي عليه، ومن الدقائق ما بطن. فالآية فيها الإرشاد الاجتماعي والفردي، حتَّىٰ في صورة كون الأمر واضحاً بيِّناً، كما فيما نحن فيه، فضلاً عن الإنسان المختفي عليه جهات المسائل ونواحي الأُمور وضواحي الأعمال والأفعال، وفضلاً عن الجاهلين القاصرين عن الوصول إلىٰ مغزىٰ الأُمور ونيل الواقعيات التكوينيَّة أو الاعتباريَّة.

٣ ـ إذا كنت تدرك وتفهم من سؤال الملائكة أوَّلاً، ومن نسبة الباطل إلىٰ خليفة الله، ونسبة الفساد سفك الدماء إلىٰ مجعوله تعالىٰ ثانياً، ومن تفاخرهم بإظهار تسبيحهم وتقديسهم له تعالىٰ ثالثاً، أنَّ هذه الأُمور غير لائقة بجنابهم وغير مترقَّبة عن حضراتهم، فلتكن ـ يا أخي ـ علىٰ خبرويَّة وإحاطة بالسيِّئات والأباطيل، وبعيداً عن الإفساد والفساد، ومتجنِّباً عن الغيبة والتهمة والكذب والافتراء بالنسبة إلىٰ المسلمين والمؤمنين، بل والأشباه والنظائر في الخَلق والخُلق ولا تجترىء على التدخُّل في أُمور النَّاس بالسؤال، ولا تكن مراقباً لصنائع القوم، فإنَّ من راقب النَّاس مات همّاً وغمّاً.

فهذه الآية من هذه الناحية أيضاً في جهة الإرشاد والإيعاز، وفي ناحية الإصلاح والتوجيه إلىٰ المحاسن الخليفة، فالفخر بذكر المحامد، ورؤية مساوىء الآخرين، والاغترار برؤية محاسن نفسه، والإغماض عن محامد المؤمنين، كلّه من الخطأ في الطريقة والسلوك

فإنَّ السالك لابدَّ وأن يصل ـ بالدراسة والتأمُّل وبالتدريب والتفكُّر ـ إلىٰ أن يكون مصداقاً واضحاً ونوراً وضياءً لقولهم: «خير النَّاس من يرىٰ نفسَه شرَّ النَّاس»، ويجد نفسه عند النَّاس نازلاً، ويكون عند الله خير النَّاس، وهو في النَّاس كأحد من النَّاس.

ولنعم ما قال الشاعر المعروف الشيرازي:

كمال سرّ محبت ببين نه نقص گناه

كه هركه بي هنر افتد نظر به عيب كند[1]

ولقد جاء في أمثلة المعارف الإلٰهيَّة: أنَّ الذُّباب يطير في الجوّ والهواء، ويتجوَّل في الفضاء حتَّىٰ يجد موضعاً فظّاً من العالم أو من بدنك، فيقعد هناك، فلا تكن كذباب العالم ترىٰ عيوب النَّاس، وتغفل عن عيوبك.

٤ ـ ربَّما في قوله تعالىٰ: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ رَمْز إلىٰ أنَّه أحسن تعبير ـ بالنسبة إلىٰ الملائكة ـ من قوله تعالىٰ: ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[2] مع إمكان أن يُقال بالنسبة إليهم؛ إنِّي أعظكم أن تكونوا من الجاهلين.

---

(١) راجع ديوان حافظ: ٢٧٢.

(٢) هود (١١): ٤٦.

توجيه أخلاقي ووعظ خطابي
(الإنسان الكبير والكون الجامع الكبير)

اعلم يا أخي في الله ويا محبوبي ويا عزيزي في الدِّين والدُّنيا، أنَّ يراعي قاصر والقلم فاتر، وفكري مبتذَل، وفهمي بسيط، واطّلاعي يسير، وباعي قصير، وممَّا يؤسف عليه ابتلائي بالبلايا الكثيرة، واتّصافي بالصفات السيِّئة، وبُعدي عن وظائف الديانة، وذنبي بالنسبة إلىٰ المسائل الإلٰهيَّة، وعصياني بالنسبة إلىٰ شروط الإنسانية، ونحمد الله علىٰ كلِّ حال، ونشكر علىٰ هذه الخصال، ولستُ آيساً عن شفاعة الشافعين ومعونة أهل اليقين ومعاضدة المتَّقين بمرافقة المؤمنين، فإنَّها من أحسن النعم الإلٰهيَّة وأرقىٰ النحلات الرَّحمانيَّة، رزقنا الله وإيَّاك كي ترقىٰ إلىٰ ما هو المأمول في آدم، وإلىٰ ما هو المرجّو من هذه الصيصية الصغيرة جرماً والكبيرة بطناً والعالية غاية والدانية مبدأ.

فعليك بالاهتمام بشأنك، ولا تكن قنوعاً في هذا الميدان الفسيح، ولا صبوراً في هذا الطريق الوسيع، وكن باذلاً جهدك في الإنسان الكبير وفي الكون الجامع الَّذي إليه المصير بعون الملك القدير، ولا تغفل عن الزوايا الموجودة في وجودك، والخلاء المتقدّر في سرّك، والعُدَّة والاستعداد الَّذي تحت تصرُّفك فإنَّ الله فيَّاض جواد

عالم قادر، يجذبك بجميع الوسائل الإمكانية، ويعشقك نهاية العشق الإلٰهيَّة بالحركة الذاتيَّة الموجودة فيك، وبالإمكانات الطبيعيَّة المودوعة لديك، فإنَّما المنكوس من اتَّبع سبيل الشَّيطان، وغير الواصل من خضع لغير الإنسان، والمحجوب عن الفطرة المخمورة من ذلّ لغير الرَّحمٰن، فإنَّه قد سلك سُبل المعاندين بالاختيار، وسار في طريق الملحدين الكافرين بالإرادة والإفكار.

فإيَّاك يا أخي وشقيقي ـ بعد الالتفات إلىٰ مغزىٰ الآيات ـ أن تكون مثلي، وأن يكون مصيرك مصيري وسبيلك سبيلي، فإنِّي رجل مُبتلًى بالبلايا، محفوف بالظُّلمات المحيطة، الحاجبة عليَّ أبواب الخيرات الَّتي نزلت بالفيض الأقدس، ونزل علىٰ الدوام بالفيوضات المقدَّسة، ولكن بعد اللَّتيا والَّتي أعشق الصالحين وأُحبّهم ولست منهم، وهذا باب فتحه الله بحمده عليَّ، وأعطاني منه شيئاً ندعو أن يستكثر عليَّ به حبّه، ويشتدّ به عشقه ووداده؛ كي أصل إلىٰ هؤلاء السالكين الصالحين بيُمنه وتوفيقه، فيا إلٰهي ومولاي قد علَّمتنا الأسماء كلّها، فلا قصور من جنابك، وقدَّمتنا علىٰ ملائكتك وكثير من خلقك، فلا بخل ولا جمود من ناحيتك وكلَّمتَني بكلام فيه الألطاف، وخاطبتني بخطاب العزَّة والاعتراف، وقلت: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ﴾، فيليق أن نقول: سبحانك لا شيء عندنا إلاَّ ما أعطيتنا إنَّك أنت الجواد الكريم، ولا يُخَصّ ذلك بالعلم، فإنَّ الوارد علينا من حياضك المترعة غير محدود، وعطاياك غير محصورة، إلاَّ أنَّ عبدك عاصٍ وخَلْقك مذنب، فيأمل غفرانك بعد هذه المزيَّات غير المتناهية والعطيَّات غير اليسيرة.

يا إلٰهي ويا سيِّدي كيف أنسىٰ فضلك عليَّ بالتعليم، الَّذي هو

أشرف شيء في العوالم العُلْوية والسُّفْلية؟! وكيف يجوز لي معصيتك ومخالفتك، وقد استحيىٰ منك الملائكة المفضولون، وقدَّسوك وسبَّحوك، فهم لو عصوك فلا ضير ولا بأس في بدو الفكر وابتداء النظر مع أنَّ الأمر ينعكس، فوالله يا مولاي ويا إلٰهي لا أجد أحداً أقلّ حياءً من آدم وولده، إلاَّ من شذّ منهم، وهم أئمَّتنا عليهم السَّلام والصلاة بما لا سكن لها ولا حدّ لجوانبها ـ ولا أتوهَّم ولا أتخيَّل في الوجود من يكون مثلي، محاطاً بالألطاف السَّماويَّة والأرضيَّة، ويعصيك ليلاً ونهاراً، ولا يدعوك خُفْيَةً وجهاراً، لا خالصاً ولا رياء، فواأسفا واسَوأتا علىٰ مثلي وآخر في خلقي.

إلٰهي وسيِّدي ومولاي لا تُحمد إلاَّ بتوفيق منك يقتضي حمداً ولا تشكر علىٰ أصغر منه إلاَّ استوجبت بها شُكراً، فمتىٰ تُحصىٰ نعماؤك يا إلٰهي وتكافأ صنائعك يا سيِّدي وتجازىٰ آلاؤك يا إلٰهي؟! ومن نعمك يَحمَد الحامدون، ومن شكر يشكُر الشاكرون، وأنت المعتمد للذُّنوب في عفوك، والناشر علىٰ الخاطئين جناح سترك، وأنت الكاشف للضرّ بيدك، كيف لا وقد خلقتني أطواراً.

فيا أخي ويا أيُّها القارىء الكريم غضّ بصرك عن هذه السطور المظلمة، ونوِّر قلبك بالمعاني النُّورانيَّة، ولا تكن ممَّن يتَّخذ العلم مأكلاً فإنَّ شرّ النَّاس من استأكل بعلمه، ولا تغتَّر بتلك المفاهيم الباطلة، فإنَّ كلّ شيء باطل إلاَّ وجهه، والشَّيطان هوالغَرور وإذا غرَّك يتبرَّأ منك، فلا تكن أسوأ من الملائكة المسبِّحين المفضولين، فضلاً عن أن تكن أسوأ من شياطين الإنس والجنّ المقبوحين.

فخذ سبيل الهدىٰ والتزم طريق المصطفىٰ من الرُّسل والأنبياء

ـ صلّىٰ الله عليه وآله الأصفياء ـ ولا تتعدّ طوره، ولا تتجاوز حدّه، ولا تدخل عقلك في شيء ممّا وصل إليك، ولا خيالَك وذوقَك في ما بلّغه إليك، وكن بصيراً في تبرئة قلبك من السمعة والرياء والشكّ والريب، وحافظاً لمسيرك المستقيم عن دخول الشَّيطان الرَّجيم، فإنَّه تعالىٰ يَعْلَمُ ما تُبدُونَ وَمَا كُنتُم تَكْتُمُونَ، فابدأ شريعة سيِّد الرُّسل وطريقته المُثلىٰ، باتّباع أئمّة الهُدىٰ ـ عليهم الصلوات العُلىٰ ـ وكُن كتوماً باتّباع التقيَّة في مواردها، ومثالاً لله تعالىٰ بحفظ السرّ والأخفىٰ من أخيك في الدِّين والعقبىٰ، ولا تفضحني بخفيّ ما اطّلعت عليه من سرِّي يا سيِّدي وإلٰهي علىٰ رؤوس الأشهاد آمين يا ربّ العالمين، ووفِّقني لأداء ما افترضت عليَّ خَلْقاً وخُلُقاً ومنطقاً يا ربّ العالمين.

الأخلاق والآداب وبعض بحوث اجتماعيّة
(عبور قنطرة المجاز إلىٰ دار الحقيقة والشهود)

اعلم يا أخي ويا قرّة عيني أنّ اللازم علىٰ السالك في سُبُل الخيرات، والمسافر إلىٰ الله بعين الحقيقة للتعيّن بالأسماء والصفات، أن يلاحظ الآيات بعين التدبُّر والتفكُّر، ويقرأها علىٰ قلبه في نهاية الدقّة والتأمُّل حتّىٰ يتوجّه إلىٰ مقاصد الكتاب، ويهتدي بهداه، وأنّ الأخذ في تبويب المسائل العلميّة والشروع في ترتيب البحوث الفنيّة، ربّما يكون من الأعمال الشيطانيّة ومن القوىٰ النفسانيّة، الراجعة إلىٰ الدُّنيا وكدورتها وإلىٰ الطبيعة وباطنها، فيصير السالك فيها والمغامر في أبحارها هالكاً وباقياً في المعنىٰ، ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ﴾[١]، فلا تغترّ بما في هذه الوريقات من الدقائق العلميّة والحقائق العرفانيّة، فإنّا راقمها من القاطنين في سجون الطبيعة المظلمة، وكاتبها من المنغمرين في الشهوات الرذيلة اليونانيّة والشاماتيّة، بل تدبّر في الكتاب الإلٰهيّ حتّىٰ تصير مظهراً له ومصاحبه، وتتجلّىٰ فيك صفاته وخصوصيّاته؛ حتّىٰ تنجو من المهالك الآتية، والعقبات الّتي تنتظرك من قريب وإن تظنّها ـ نعوذ بالله ـ بعيدة، وتفكّر في آياته، وأُنظر

(١) الإسراء (١٧): ٧٢.

كيف يهديك في نهاية اللطف، وكيف يقوم بهدايتك في غاية الإعزاز والتكريم، فيقول في صورة الأدب ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾؛ أي هم إذا استشعروا يتوجّهون إلىٰ لزوم ذلك؛ من غير احتياجهم إلىٰ الأمر فيؤمنون بالغيب، ويهذّبون ذواتهم وفطرتهم المخمورة بالإيمان بالغيب، وبعقد القلب علىٰ تركيز الغيب في قلوبهم، ثمّ يقومون لترسيخ ذلك بإقامة الصلاة والأعمال البدنيَّة، وتهذيب البدن ومزاجه الطبيعي بالصلاة، الَّتي هي الحركات المعتدلة المناسبة للمحافظة علىٰ مزاجه وعلىٰ صحّته، فإنَّ الصلاة مرقاة أهل القلوب، وميدان أرباب الصراع، فهي أُسّ كلّ شيء إن قُبِلت قُبِل ما سواها، وإن رُدَّت رُدَّ ما سواها.

ثمَّ بعد الفراغ من التهذيبين ـ التهذيب الروحاني القلبي والتهذيب المادّي البدنيّ ـ يشرع في تهذيب غيره بإنفاق ما عنده، فإنَّ رحىٰ الاجتماع تدور عليهم، ومسؤوليَّة عائلة البشر متوجّهة إلىٰ هؤلاء السالكين المهذَّبين، فعليهم تنظيم الأُمور بمقدار الميسور، فيُنفقون ما عندهم حتَّى يتمكَّنوا من أن يعيشوا في ظلّ ذلك الإنفاق والإعطاء.

فالأمر بالإنفاق من غير نظر إلىٰ خصوصيَّة في كيفيَّة من كيفيَّاته، ليس إلاَّ لأجل أنَّ الإنفاق ـ من كلّ شيء علىٰ كلّ شخص في كلّ حال وزمان ـ من الأُمور الحياتيَّة ومن المصالح الاجتماعيَّة، الَّتي بمراعاتها تبقىٰ الحياة الفرديَّة، ويحصل التهذيب الفرداني، ويتمكَّن الإنسان من القيام بالعيش الوحداني، فما ترىٰ من العمومات والإطلاقات المختصَّة بهذه الآية الكريمة ـ أي بقوله تعالىٰ: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ ـ ليس إلاَّ لأجل أهميَّة الإنفاق في أساس الاجتماع.

وإنَّا إذا راجعنا وجداننا نجد أنَّ الزكاة لا تختصّ بالأموال، كما

تومىء إليه الأخبار والآثار، بل لكلّ شيء زكاة، فلابدّ من صرفه وإيصاله إلىٰ محالّه؛ حتّىٰ يبقىٰ أصل الحياة وأساس التنميات، فهذه الآية الكريمة الشريفة تدعوك إلىٰ رفض رذيلة البخل، وتناديك إلىٰ الاتّصاف بصفة السخاوة، والإعطاء في كلّ جانب من الجوانب الممكنة، فربّ عالم يبخل في تعليم النّاس، وربّ سالك يبخل في هداية المتّقين، وربّ تاجر يبخل في إخراج حقّ الفقراء... وهكذا غافلين عن أنّ ذلك المنع والامتناع يرجع إلىٰ منع أنفسهم من الاستمتاعات المعنويّة وحرمان نفوسهم من اللذائذ المادّيّة والمعنويّة، وذاهلين عن أنّ حقيقة السلوك والعلم هو القيام بالتجلّي الفعلي الإلٰهي، فإنّ في تلك الجلوة جلوة الذات والصفات، كما تحرّر.

فعليك أيُّها الإنسان الكبير أن تبذل جهدك في عدم الاقتناع بالمفاهيم والفنون، وتجتهد في أن تعبر قنطرة المجاز إلىٰ دار الحقيقة والشهود، وما يتيسّر ذلك إلاّ بأن تصير مجْلًى لهذه الآية الكريمة، الجامعة لأنحاء السعادات الدنيويّة والأُخرويّة.

بحث وإرشاد: حول الإيمان والتصديق

اعلم أنّ في رواياتنا ما يشتمل علىٰ بيان جنود العقل والجهل، وقد عُدّ من جنود العقل الإيمان وضدّه الكفر، والتصديق وضدّه الجحود[١]، ولو كان الإيمان هو التصديق لَلَزم التكرار، مع أنّ مقتضىٰ ما تقرّر فيما سلف هو أنّ الإيمان هو التصديق.

أقول: الإيمان هو التصديق القلبي والتصديق هو الاعتقاد العقلي

---

(١) راجع الكافي ١: ١٦/ ١٤.

حسب الإدراك العلمي والبرهاني، وبينهما الفرق الواضح، فإنّ القلب مركز ظهور التصديقات العقليّة البرهانيّة، ومهبط آثار الاعتقادات العلميَّة، فكم من عالم معتقد بمسائل كثيرة في العلوم، ولا يذوق قلبه منها شيئاً، ولا يكون قلبه مهبطاً ومنزلاً لتلك الكلّيّات المفهوميَّة الإدراكيَّة، بل امتلأ قلبه بالكفر والإلحاد والزندقة والشرور.

فعلىٰ ما تحصّل تبيّن: أنَّ من جنود العقل هو التصديق والاعتقاد، قبال الإنكار وعدم انشراح صدره للتوحيد والإسلام والولاية، ومن جنوده الإيمان بظهور انشراح الصدر للإسلام فيه، وإذا كان الأمر قلبيّاً يكون المؤمن فاعل الخيرات طبعاً، ويفرّ من الشرور قهراً، وعليه يحمل تفسير الإيمان بالعمل بالأركان، فإنَّ هذا العمل لازم ذلك الإيمان بالضرورة والوجدان، وإلىٰ هذا يُشير قوله تعالىٰ في سورة الأنفال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾(١)، فإنّه يُستشَمّ منه: أنَّ الإيمان من الأعمال القلبيَّة ومن آثاره الازدياد إيماناً باستماع الآيات، ومن آثاره إقامة الصلاة والإنفاق، كما في هذه الآية الثالثة من البقرة.

ويُستشَمّ منه أيضاً: أنَّ الأعمال البدنيَّة من الإيمان إلاَّ أنَّ النظر إلىٰ أنّها من آثاره، ولا يكون من مقوّمات الماهيَّة كما توهّموه(٢).

---

(١) الأنفال (٨): ٢ ـ ٤.

(٢) راجع مجمع البيان ١: ٣٨ ـ ٣٩، والتفسير الكبير ٢: ٢٤ ـ ٢٥، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل ١: ١٦.

ويُستشَمّ: أنَّ للإيمان مراتب بين ما هو الحقّ في نظر القرآن وما هو الباطل والمجاز، ويكون ذلك هو الإيمان البَدْوي المستودع، الَّذي لم يرتكز بعدُ في القلب، وهذا الإيمان هو التصديق المقابل للجحود.

وأمَّا الإيمان المقابل للكفر فهو الإيمان القلبي الراسخ في النَّفس؛ بحيث لا يتبدَّل بالأيادي الشيطانيَّة، ولا يزول ولا يتغيَّر بالأرياح الخريفيَّة.

تنبيه: حول عدّ الصلاة من جنود العقل

قد عُدّت الصلاة من جنود العقل في الرواية المعروفة، والإضاعة من جنود الوهم والجهل.

وربَّما يُشكِل الأمر: لأجل أنَّ الصلاة من الأفعال، والحديث في موقف تعديد الصفات والخصوصيَّات الذاتيَّة، والنعوت الجماليَّة والجلاليَّة، ولو كانت هي من جنوده لكان كلّ فعل من الخيرات من جنوده.

اللَّهمَّ إلاَّ أن يُقال: إنَّ الصلاة والصوم من رؤوس الأفعال الخيِّرة، وإنَّها إن قُبِلت قُبِل ما سواها، ولا منع من اعتبار كون فعل من الأفعال جنداً من العقل؛ ضرورة أنَّ أحسن شيء يتقوَّىٰ به العقل هي الصلاة، بل لابدَّ من اعتبار الأفعال من جنود العقل؛ لأنَّ ازدياد العقل لا يعقل إلاَّ بتراكم آثار الفعل في القلب، فإنَّه به يتقوَّىٰ العقل جدّاً، ويُدرك كلّ الخيرات طبعاً.

وغير خفيّ: أنَّ في عدّ الصلاة من جنود العقل ـ بعد عدّ الإيمان من جنوده ـ شهادة علىٰ أنَّ العمل بالأركان ليس داخلاً في ماهيَّة

الإيمان ولا من مراتبه، بل الصلاة من الآثار الحاصلة به، وتختلف قوّة وكشفاً باختلاف مراتب الإيمان.

فإذا تبيَّن لك يا أخي ويا صديقي هذه الأُمور العلميَّة، وتلك المفاهيم الفنيَّة والبُرهانيَّة، فاعلم أنَّ من أصدق شعر قاله المولوي المعنوي ما قاله:

باي استدلاليان جوبين بود   باي چوبين سخت بي تمكين بؤد[1]

فإنَّ الإنسان يرىٰ بعين البرهان الحقائق الحكَميَّة، ولا يذوق بعين الحقيقة منها شيئاً، ولا يمسّ قلبه منها أثر، وهذا هو العلم المذموم، وهو العلم الَّذي يظهر علىٰ عالِمه بصورة خبيثة، فإنَّ الشَّيطان من العلماء جدّاً، بل هو أعلم العلماء، ولأجل عدم رسوخ العلم في قلبه بلغ إلىٰ ما بلغ، فعليك بالجدّ والاجتهاد في تحصيل السداد بتوجيه المعارف إلىٰ قلبك، وتركيز الحقائق في صدرك، حتَّىٰ لا تكون ممَّن نسي الله فأنساهم أنفسهم، ولا تكون من المخذولين الضالين.

إلٰهي وسيِّدي أرجوك ولا أرجو غيرك، وأطلب منك ولا أطلب من سواك، فامنُنْ عليَّ بأن تهديني إلىٰ صراطك العزيز المستقيم.

الأحدي الأحمدي المحمَّدي ﷺ، حسب رواية محكيَّة في كتب العامَّة والخاصَّة، وهي من أعجب ما روينا عنه ﷺ: «أنّه كان قاعداً مع أصحابه ﷺ في المسجد فسمعوا هدَّة عظيمة فارتاعوا، فقال ﷺ: أتعرفون ما هذه الهدَّة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: حجر أُلقي من أعلى جهنَّم منذ سبعين سنة، الآن وصل إلىٰ قعرها، فكان وصوله إلىٰ

---

(١) مثنوي معنوي، دفتر أوّل، بيت ٢١٢٨.

قعرها وسقوطه فيها هذه الهدّة، فما فرغ من كلامه ﷺ إلاّ والصراخ في دار منافق من المنافقين قد مات، وكان عمره سبعين سنة، فقال رسول الله ﷺ: الله أكبر، فعلم علماء الصحابة أنّ هذا الحجر هو ذلك المنافق، وأنّه منذ خلقه الله يهوي في جهنّم، وبلغ عمره سبعين سنة، فلمّا مات حصل في قعرها»[١]، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾[٢]، فكان سَمْعَتُهم تلك الهدّة الّتي أسمعهم الله برفع الحجب بتوسيط الرّسول أحياناً ليعتبروا، فانظروا ما أعجب كلام النُّبوّة وما ألطف تعريفه وما أغرب كلامه ﷺ.

وبالجملة: من الخلق من ينال الرتبة العليا مرتبة ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾[٣] في الحركة الجوهرية الذاتية، ومن النّاس متوسّطون بين تلك وتلك، فعليك يا أخي وعزيزي أن تكون من المعتبرين والمتوجّهين إلىٰ أنّه لا جُزاف، فإذا تمكّنت من أن تحصّل العبوديّة المطلقة للذات الأحديّة الإلٰهيّة والواحديّة الجمعيّة، يتنزّل عليك القرآن وأعظم منه، وإذا تمكّنت من نيل مقام العبوديّة المقاربة لتلك العبوديّة الذاتيّة، يحصل لك من الحقائق ما ينطق به لسانك، ويتنزلّ إلىٰ سمعك أمثال «نهج البلاغة» و«الصحيفة السجّاديّة»... وهكذا، فكلّ الأُمور المتأخّرة معلولة الأُمور المتقدّمة، وجميع الشرائط المتقدّمة معلولة المجاهَدات النفسانيّة والرياضات البدنيّة، ومسبّبة عن تحمُّل المشقّات الدُّنيويّة والتضحية والفِداء في طريق الحقّ ولنيل العشق المطلق.

---

(١) راجع علم اليقين، الفيض الكاشاني ٢: ١٠٠٢، والفتوحات المكّيّة ١: ٢٩٨، ومسند أحمد ٢: ٣٧١.

(٢) النّساء (٤): ١٤٥.

(٣) النجم (٥٣): ٩.

وأمّا الاشتغال بالتفريح والتفرُّج، والانغماس في حياض اللَّذات الحيوانية، والانغمار في الشهوات النفسانيَّة، والتوغُّل في المشتهيات الشيطانيَّة، فلا يستتبع إلاَّ طبقات الآلام الأُخرويَّة والعقبات الجحيميَّة، وقد مرَّ في هذا الكتاب مراراً الإشارة إلىٰ تلك المواعظ، وإلىٰ هذه الأُمور اللازمة جدّاً إلاَّ أنَّ راقم هذه الأسطر وقارءها في نومة الغافلين، وفي غفلة المشتغلين بالدُّنيا عن الآخرة والدِّين، وفي الذهول عن الحقائق والمسيرة الاستقبالية في البرازخ والقيامة، فأعاذنا الله تعالىٰ منها وأذِن الله أن يشفع لنا الشافعون، اللَّهمَّ آمين يا ربّ العالمين.

فإذا كنت تقرأ هاتين الآيتين أفلا تخاف من أن تكون تلك الحجارة الواقعة في قعر الجحيم عند الموت، وأفلا تخشىٰ من أن تكون وقود النَّار المشتعل علىٰ غيرك من الأناسي والعباد، فيحترق غيرك بك، فتكون عليك لعائن الله والنَّاس المتأذِّين بنارك وإيقادك.

إلٰهي أنت أعلم بي منّي، وأنت تعلم أنّي قد أفنيتُ عمري في شِرَة السهو عنك، وأبليتُ شبابي في سكرة التباعد منك، وقد دعوتك ليلاً ونهاراً خفاتاً وجهاراً، ولا أظنّك تردُّني في حاجة أفنيتُ عمري في طلبها منك، ما هكذا الظنّ بك، ولا المعروف من فضلك، ولا مشبه لما عاملت به الموحِّدين من برّك، فيا إلٰهي ويا سيّدي إنّي وإنْ كنت ذاهلاً وغافلاً عنك، ولكن سترك عليَّ يوثّبني علىٰ محارمك، ويجرّئني على اقتراف معاصيك وذنوبك، فلا تخيّبني يا رحمٰن الدُّنيا والآخرة، وخذ بيدي ونجّني وأهلي وشيعة الأمير عليه السلام من القوم الظالمين، ومن أحزاب الشياطين، وقِنا من النَّار الَّتي وَقودها النَّاس والحِجارة أُعدَّت للكافرين.

بعض التوجيهات الأخلاقيّة والإرشادات الرّوحيّة

يا أخي في الله وشقيقي في الإسلام وصديقي في الإيمان، بهذا الكتاب العظيم والسِّفر الفَخم؛ إذا كنت تتلو هذه الآيات الفاخرة والمنسجمات الإلٰهيّة، فلْتكن من المتفكِّرين فيها، لا بعين العلم والأدب، ولا بنظر الفلسفة والكلام والفقه والأُصول وعلوم الأيّام، فإنّها كلّها حجب الله النُّورانيّة، وظلمات فيها الشياطين الجزئية والكلّيّة، المانعة عن الوصول إلىٰ المرام المقصود وغاية المأمول، بل النظر فيها أنّه تعالىٰ كيف يكون له الرَّحمة الرَّحيميّة والرَّحمانيّة بالنسبة إلىٰ المرتبة الإنسانية، مع نهاية غنائه عن الخلق وتربيته؟! وأنّه تعالىٰ كيف رافق آدم في إسكانه مؤنساً له مع زوجه في الجنّة، وهيّأ له أسباب الراحة والاستراحة من جوانب شتّىٰ، بعدما وفّقه للغلبة علىٰ الملائكة أجمعين، وأخصّه بالخلافة في الأرض مع ما كان يعلم منه من الأوّل وبالسجود له وصيرورته مسجوداً له ومظهراً له تعالىٰ في صفة المسجوديّة؟! هذا كلّه بالنسبة إلىٰ الرَّحمة الرَّحيميّة.

ثمَّ بالنسبة إلىٰ الرَّحمة الرَّحمانيّة، فأسكنه الدار المحفوفة بالفواكه والأزهار، وأنت هو ذاك آدم بحسب الفطرة والطينة، وفيك تلك القوّة المسجود لها والغالبة، ولك تلك الجنّة المربوبة

بتربية الله تعالىٰ من جهة الشرائط والمُعدّات والمُقتضيات، فعندك كلّ شيء، إلاّ أنّه تعالىٰ لسياسة روحية، ولافتتان جسمي أخلاقي وخلقي نهىٰ عن القرب من الشجرة، وربّما لم يكن الصلاح في المجعول، وإنّما كان الصلاح في الجعل ونفس النهي، وعند القياس بين تلك النعم والرّحمة وهذا النهي، يتبيّن لك حدود التجرّي عليه تعالىٰ وتقدّس، ومقادير الظلم والتجاوز في هتك حرمته وحريمه، ويظهر لك خبث فعلك وصنعك، ومع ذلك كلّه وإن أخرجك الله ممّا كنت فيه لسوء سريرتك الثانوية، ولكن أقرّك في الأرض ومتّعك إلىٰ حين؛ كي يتمكّن جنابك من التوبة، وعلّمك شرطها بتلقين الكلمات الدخيلة في كسر ظلمة روحك، وتبديل فساد خلقك إلى الخلق اللائق لأن يتوب عليك وتاب عليك، فإنّه التوّاب الرّحيم.

فهل بعد ذلك وذاك لا تتدبّر في تلك الشجرة المنهي عنها في القرآن، النابتة في العالم الصغير والكبير، ولم يأنِ حين التفاتك إلىٰ صلاحك وإصلاح النّاس، بالاجتناب عن فروع تلك الشجرة، والمنهيّات الإلٰهيّة والمبغوضات الشرعية، والإتيان بالواجبات الربّانيّة والحدود المقدّسة المذكورة في الكتاب والسُّنّة؛ كي لا تكون من الظالمين والمتجاوزين علىٰ حقوق النّاس وأشباهك ونظائرك، وكي لا تكون من القاعدين التاركين جهاد النّفس والجهاد في الله بمحاربة عدوّ الله الجزئي الباطني والظاهري، وقلع المعاندين وقمع المشركين والمنافقين، التابعين لتلك الشجرة النابتة في جهات شتّىٰ في العالَم الصغير والكبير، وهذه الشجرة هي الّتي نبتت في الغرب والشرق؛ شجرة ملعونة منهيّ عن التقرُّب

إليها في كلّ زمان ومكان، وبكلّ شكل من الأشكال الخبيثة والمهيّجة، الظاهر صلاحها وحسنها المبطون خبثها وفسادها؛ بعناوين شتّىٰ سياسية وغير سياسية، فكلّ الاتجاهات الباطلة وجميع الحكومات الفاسقة والفاسدة، داخلة في هذه الشجرة.

فإذا هبط آدم العالم بأحكام العالَم والإنسان العارف المسجود للملائكة، إلاّ إبليس العاصي عن أمر الله والزالّ والمضلّ، فعليه بعد ذلك لفت النظر إلىٰ ما يأتيه من هُدىٰ الله، وإلىٰ اتّباع هداية الله علىٰ وجه لا يكون عليه خوف ولا حُزن.

فعليك يا شقيقي وأخي في الله وفي ديني، النظرة العميقة في كيفيَّة طينتك الطيّبة المعجونة بأسماء الله والمركَّبة من صفاته وكيفيَّة المحافظة علىٰ تلك الطينة والفطرة الإلٰهيَّة، وهي فطرة الله الّتي فطر النَّاس عليها، وكيفيَّة التجنُّب من ظُلُمات بعضها فوق بعض، والموجبة لصيرورة تلك الطينة المخمورة طينةً وفطرة محجوبة بحجب روحانية وظلمانية، وما ذلك إلاّ بالتدبُّر والتفكُّر في المعاشرين وفي حضور المجالس الباطلة والمحافل العاطلة معهم، والتفكُّر والتأمُّل في مخالفة النَّفس، فإنَّ في مخالفة النَّفس معرفة الرَّبّ، كما ورد عن الرَّسول الأعظم الإسلامي ﷺ[١].

ويا روحي وقلبي ويا صديقي وحبيبي، إنَّ من اتَّبع هدىٰ الله وكرامته وتوجيهاته وإرشاداته القرآنية والإلهاميَّة، لا خوف عليهم علىٰ الإطلاق؛ لا خوف بالنسبة إلىٰ المسائل الدُّنيويَّة، ولا يحزن على الأمور الراجعة إلىٰ معيشته وحياته الفرديَّة والاجتماعيَّة، ولا بالنسبة

(١) راجع بحار الأنوار ٦٧: ٢٣/٧٢.

إلىٰ البرزخيَّة والأُخرويَّة، فهل ترىٰ في نفسك ذلك إذا خلوت مع الله، وعشت في الانزواء، أم تجد الخوف والحزن، فيعلم منه أنَّك لم تتَّبع هُدىٰ الله، ونعوذ بالله أن تنسلك في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ٣٩﴾ فنرجو الله تعالىٰ لك ولراقم هذه السطور عافية طيِّبة وحسن الختام.

الموعظة الحسنة والنصيحة
(ظلم العباد والعقبة يوم القيامة)

إذا بلغت القراءة إلىٰ ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾، فإن كان القلب مُذعناً لِتلك المواقف والعقبات، ومعتقداً بتلك الأيّام والساعات، ومتوجّهاً إلىٰ تبعات الأقوال والأعمال، فترتعد منها عظامه، وترتعش منها أفئدة القارئين، وإذا كان عالماً بأنّه تعالىٰ لا يقول لغواً ولا شططاً ولا غلطاً، ولا يكون مستهزئاً ولا ممازحاً، بل كلماته كلّها صادقة تطابق الواقعيّات، وهو بريء من الأباطيل والأكاذيب، فيتحرّك نحو الفرار عن المعاصي والعمل بالطاعات، ويتحلّىٰ بحلية الأخلاق الحسنة، ويتجلّىٰ بجلباب السعادة، ويخلع ألبسة الشقاق والشقاوة، ويرتقي بأسباب العزّة والإسلام إلىٰ الملكوت الأعلىٰ ومقام؟ ﴿أَوۡ أَدۡنَىٰ﴾.

فإيّاك يا أخي الأعزّ ويا حبيبي وعزيزي أن تكتفي بالقراءات وآدابها الأدبيّة والتجويديّة، وعليك بالجدّ والاجتهاد والسعي إلىٰ التخلّق بأخلاق الله؛ حتّىٰ تكون تسمع الآية من قائلها وتصدر من حقيقتك ورقيقتك، فتكون ـ بإذن الله تعالىٰ ـ مماثلاً للملكوتيّين في الناسوت السُّفلىٰ، ومشابهاً للعُلويّين في هذه الطبيعة الظلماء، وليكن

تمام السعي والجدّ في أن تكون أنت مظهر هذا الاسم في ناحية من نواحي تلك النشأة الكبرىٰ، وفي ذلك اليوم الَّذي تخشىٰ فيه القلوب وتبلغ لديه الحناجر.

ولا يُتمكّن من هذا المقام المنيع والمحلّ الرفيع، إلاَّ بعد رفض الشَّيطان الرَّجيم حقيقة وواقعاً، لا تخيُّلاً وتقوُّلاً، فإنَّ هذا من الأطباق الشديدة الفخمة، لا يقتدر علىٰ هدمها إلاَّ الأوحدي.

فقد رُوي عن «الكافي» بإسناده عن سيِّد العابدين عليه السلام، فقال: «حدَّثني أبي: أنَّه سمع أباه علي بن أبي طالب عليه السلام يحدِّث النَّاس، قال: إذا كان يوم القيامة، بعث الله تبارك وتعالىٰ النَّاس من حُفَرهم جُرْداً مُرْداً في صعيد واحد، يسوقهم النُّور وتجمعهم الظلمة؛ حتَّىٰ يقفوا علىٰ عقبة المحشر، فيركب بعضهم بعضاً، ويزدحمون عليها دونها فيمنعون من المضيّ، فتشتدّ أنفاسهم ويكثر عرقهم وتضيق بهم أُمورهم ويشتدّ ضجيجهم وترتفع أصواتهم، فقال: هو أوَّل هول من أهوال القيامة، قال: فيشرف الجبَّار تبارك وتعالىٰ عليهم من فوق عرشه في ظلال من الملائكة، فيأمر مَلَكاً من الملائكة، فينادي فيهم:

يا معشر الخلائق، أنصِتوا واستمعوا منادي الجبَّار، قال: فيسمع آخرهم كما يسمع أوَّلهم، قال: فتنكسر أصواتهم عند ذلك، وتخشع أبصارهم، وتضطرب فرائصهم، وتفزع قلوبهم، ويرفعون رؤوسهم إلىٰ ناحية الصوت، ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾، قال: فعند ذلك يقول الكافر: هذا يومٌ عسير.

قال: فيُشرف الجبَّار ـ تعالىٰ ذكره ـ الحكم العدل عليهم، فيقول: أنا الله الَّذي لا إلَهَ إلاَّ أنا الحَكَم العَدْل الَّذي لا يجور، اليوم

أحكم بينكم بعدلي وقسطي، لا يُظلم اليوم عندي أحد، اليوم آخذ للضعيف من القويّ بحقّه، ولصاحب المظلمة بالمظلمة؛ بالقصاص من الحسنات والسيِّئات وأُثيب علىٰ الهبات، ولا يجوز هذه العقبة اليوم عندي ظالم ولأحد عنده مظلمة، إلاّ مظلمة وهبها صاحبها وأُثيبه عليها، وآخذ له بها عند الحساب...» إلىٰ آخر الحديث الشريف الطويل[١].

أقول: في أهوال القيامة وأحوالها وشدائدها وكيفيَّة العذاب والعقاب، أخبار كثيرة[٢] لا يناسبها المقام، وإنَّما المقصود بالأصالة الإيماء والإشارة إلىٰ بعض الجهات الواردة علىٰ بعض أهل الإيمان، وإلىٰ أنَّ مجرَّد قراءة ﴿مَـٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ غير جائز عند أرباب اليقين، بل لابدَّ وأن تكون القراءة مشفوعة بالحالات والآثار، فيكون ناظراً من أوَّل الشروع فيها، ومتفكِّراً في التذكّر بها إلىٰ أن يكون من أصحاب اليمين من المتَّقين؛ في استجلاب الصفات الحسنة الَّتي بها تصير الذات محسنة وكاملة ومستكفية عن غير الله تعالىٰ، فتكون خائفة من الله ومن عقوبته يوم الدِّين وشدائده وأهواله وحياء العرض علىٰ مالكه، فإنَّ ذلك أمر عظيم جدّاً، والافتضاح علىٰ رؤوس الأشهاد. ومن ذلك ما روي من غشية الصَّادق عليه السلام عند تكرار ﴿مَـٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾[٣]، وما روي عن السجَّاد عليه السلام: أنَّه إذا قرأه يكرِّره حتَّى كاد أن يموت[٤].

وبالجملة، للعارفين عند ذكر أسماء الله تعالىٰ، حالات سنيَّة

---

(١) الكافي ١: ١٥٠/٧٩.
(٢) راجع بحار الأنوار ٧: كتاب العدل والمعاد، أبواب المعاد، الباب ٣ ـ ٩.
(٣) أنظر فلاح السائل: ١٠٧، والمحجَّة البيضاء ١: ٣٥٢.
(٤) الكافي ٢: ٤٤٠/١٣، تفسير العيَّاشي ١: ٢٣/٢٣.

ولذّات فاخرة، وتفرّجات عالية في متنزّهات دار الجلال وتأنّسات ناعمة من تجلّيات أنوار صفات الجمال في دار الوصال.

وبالجملة: بعد التوجّه إلىٰ الله تعالىٰ وربوبيّته ورحمته الرَّحمانيَّة والرَّحيميَّة ومالكيَّته، يسير في هذه الأسماء في جميع العوالم من مبدئها إلىٰ منتهاها، ويتفرَّج بالتدبُّر في مالكيَّته ليوم العقوبة والدِّين في تفاصيل عوالم القيامة، ويتوجّه إلىٰ أنَّ جميع صفاته الجلاليَّة فانية في الجماليَّة، وفي الخبر: «قد سبقت رحمته غضبه»[1]، فلا يكون للعارف الكامل خوف من ناره وجحيمه، بل خوفه من نار فراقه وطول عكوفه عليه، فإذا وصل نوبة قراءته إلىٰ ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾، يفزع ويضطرب جميع أعضائه ومراتبه حتَّىٰ يُغشىٰ عليه، ولكنَّه طليعة تضمحلّ بظهور جلوات رحمته ورأفته ولطفه ومحبَّته.

(١) علم اليقين ١: ٥٧.

الأخلاق والموعظة والنصيحة
(نماء العشق الإلٰهي في القلب)

يا أخا الحقيقة ويا عزيزي! لا تغترّ بما في هذه الصحائف من الدقائق والحقائق، ولا تقنع بدرك الكلّيّات والرقائق، فتصير حمّال معانٍ ومركب لطائف، ولا تكتفِ بالحُجُب والأستار من بين الأخبار والآثار، بل عليك أن تتدبّر في الرَّبّ الَّذي يربيّك؛ ما أنعم عليك، وما يصرفه في توجيه اللطف إليك، والعلوم والفنون والفضائل والمسائل الفكريَّة ظلمات؛ فيما إذا لم تكن أثّرت في قلبك، ولا حصلت بها على الأنوار والفضائل الأخلاقيّة، وتصير وبالاً عليك في جميع النشآت الآتية، فكن متعوّذاً بالله تعالىٰ فيها من شرّ هذه التبعات، ومن آثار هذه المعلومات والصور، فإنَّ العلم حجاب أكبر، ونور يقذفه الله تعالىٰ في قلب من يشاء.

فعلى هذا النموذج والبرنامج القصير تأمّل في أسباب تربيتك، وأنّك كنت قطرة من النطفة الرذيلة النجسة من صلب الأب، فانتقلت إلىٰ رحم الأُمّ، فانظر أنّها كيف صارت عَلَقة أوّلاً، ثمَّ مُضغةً ثانياً، ثمَّ تولّدت بعد ذلك منها الأعضاء المختلفة، والعظام المنتظمة، والغضاريف والرباطات والأوتار

والأوردة والشرايين؛ علىٰ نظام خاص متين لا ينحلّ، ثمَّ حصلت في كلّ واحد من تلك المكامن والأعضاء، أنواع القوىٰ البصريَّة والسمعيَّة والشمّيَّة والذوقيَّة واللمسيَّة، ثمَّ حصل لك في ثدي الأُمّ أحسن الأشياء رقَّة وخاصَّة ما يناسب حالك، وهو اللبن اللَّطيف اللذيذ للشاربين، ثمَّ أعطف ـ تعالىٰ وتقدَّس ـ عواطف الأُمَّهات والآباء عليك، وجعلك في خبايا قلوبهم وزوايا نفوسهم مورد الحبّ والشوق والعشق؛ حفظاً لك عمَّا يتوجَّه إليك، ودافع عنك المضارّ والمضادَّات الوجوديَّة البالغة إلىٰ ملايين عدداً بل نوعاً، وانظر إلىٰ ما خلقه وهيَّأه لتربيتك البدنيَّة؛ من الأغذية والأشربة المختلفة الأنواع المتشابهة وغير المتشابهة، وأنَّه تعالىٰ كيف لاحظ في ذلك تسهيل الأمور عليك، وكيف لطف بك وفي حقّك؛ من بذل هذه الأنعم والآلاء غير القابلة للإحصاء، فإذا تفكَّرت ساعة وتأمَّلت دقيقة من هذه الناحية ـ وهي النشأة المادّيَّة ـ فاعطف وجهك ونظرك إلىٰ المسائل الرّوحيَّة والآداب الأخلاقيَّة والاعتقادات الرُّوحانيَّة.

فإنَّه تعالىٰ وتقدَّس عالم بالأسرار والعوالم، ويرىٰ حاجتك في سائر الآفاق والظروف، فيهيّىء الأسباب المُورِثة لخلاصك من الآفات والبلايا، الَّتي في جنبها تلك البلايا الدُّنيويَّة ضئيلة جدّاً ويسيرة واقعاً.

فأرسل الرُّسل وأنزل الكتب، وقد تحمَّل في ذلك الرُّسل المعظَّمون والأنبياء الشامخون، مصائب كثيرةً ممَّا لا يُعدّ ولا يحصىٰ، وقد امتلأت كتب التواريخ من تلك الرزايا المتوجِّهة

إليهم ـ عليهم الصلاة والسَّلام ـ حتَّىٰ حُكي عن رسولنا الأعظم ﷺ أنَّه قال: «ما أُوذِيَ نبيٌّ مثلَ ما أُوذِيت»[١]، وما كان ذلك كلّه إلاّ صيانة لك عن تبعات الأعمال الرذيلة في البرازخ والقيامة، فهم أطبّاء النُّفوس، مبعوثون لهداية البشر وتربيته وإخراجه من النقص إلىٰ الكمال، فإذا كنت من أهل البصيرة والفكر، وتوجَّهت إلىٰ هذه الجهات والنواحي والفواحي، فهل لا يحصل في نفسك لهذا الوجود العظيم ولهذا الكريم الكريم، الرَّحمٰن الرَّحيم، حبّ وشوق وعشق؟! فإذا لم تكن كذلك فالموت لك خير، ولَنِعْمَ ما قال عزَّ من قائل: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[٢].

وإذا وجدت في قلبك له عشقاً وشوقاً فعليك بازدياده، حتَّىٰ لا يبقىٰ في قلبك لغيره شيء، أفيحسن بالإنسان الملتفت المتوجّه إلىٰ أطراف القضايا أن تَعلَق نفسه بغير الرَّبّ العزيز الَّذي قيل في حقّه: إنَّه تعالىٰ يملك عباداً غيرك وأنت ليس لك ربّ سواه، ثمَّ إنَّك تتساهل في خدمته والقيام في وظائف طاعته، كأنَّ لك ربّاً بل أرباباً غيره، وهو سبحانه يعتني بتربيتك حتَّىٰ كأنَّه لا عبد له سواك، فسبحانه ما أعظم رحمته وأتمّ تربيته.

فعلىٰ ما تقرَّر وتحرَّر، وإلىٰ نصاب البرهان والشهود بلغ ووصل، فلا تُماطل في القيام بما أراد منك، ولا تكن من العاصين المتمرِّدين علىٰ أوامره ونواهيه، واجتهد في أن يصير

---

(١) الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير ٢: ١٤٤، بحار الأنوار ٣٩: ٥٦، تاريخ أمير المؤمنين : الباب ٧٣.

(٢) الفرقان (٢٥): ٤٤.

وجودك مرهون مقاصده، ومن أهمّ طلِباتِهِ تعالىٰ، القيامُ والاهتمام بأُمور المسلمين، وهدايةُ البشر إلىٰ الطريق المستقيم، فكن مظهر الاسم «الرَّبّ» في توجيه النَّاس إلى الآخرة، وفي تصغير الدُّنيا في نفوسهم، وفي تعظيم الدِّيانة في قلوبهم والله هو المعين والمستعان.

النصيحة والأخلاق
(القوى الظاهريّة والباطنيّة لخدمة ربّ العالمين)

يا أيُّها القارىء الكريم، ويا أيُّها السالك المشتاق إلىٰ الرَّبّ الرَّحيم؛ إذا علمت هذه الرقائق العرفانيَّة، وتلك الحقائق الحكَميَّة والدقائق الإيمانيَّة، وأحطت خُبراً: بأنَّ الآيات القرآنيَّة والسور الإلٰهيَّة الرَّحمانيَّة، مشتملة علىٰ جميع المراتب الإمكانيَّة، وتمام الكمالات الإنسانيَّة، وحصلت كلّ ذلك من تلك المباحث العالية وهذه المسائل الراقية، فعليك تنفيذها، وإيَّاك وأن تقنع منها بالصور العلميَّة والمفاهيم الكاسدة الوهميَّة، ولابدَّ من الجهد والاجتهاد في التطرُّق وسلوك هذا الصِّراط المستقيم، والوصول إلىٰ دار الخلد ونعيم الأزل؛ بالسير في الدرجات المختلفة من الهداية والفوز بالدرجة العليا منها، ورفض الهدايات الحيوانيَّة والبهيميَّة والبَذْويَّة، وكسب الهداية التامَّة العادلة؛ بالقيام بالوظائف الشرعيَّة في مقام الظاهر، والاجتهاد في الرياضات النفسانيَّة في مقام الباطن، فيحافظ علىٰ الأحكام القلبيَّة والقالَبيَّة في مقام العمل، ولا يكتفي بهذه العناوين والوهميَّات والذوقيَّات، فإنَّ وراء ذلك كلّه الخير، وإلاَّ فتلك هي الشرور الَّتي تلزمك وتُحشر معك، وتعانقك في البرازخ إلىٰ القيامة الكبرىٰ والعظمىٰ، فنعوذ بالله الجميل من هذه الصور المؤذية وتلك المقارنات غير الملائمة.

فيا أيُّها الأخ العزيز: لا تتوهَّم أنَّ كاتب هذه الحروف تجاوز عن حدّ الحيوانيَّة إلىٰ الإنسانيَّة، فضلاً عن السير في مراتبها العالية، ولا تغترّ بما في هذه الصحف، والغرور من مكايد إبليس، بل عليك الاغترار ـ إذا جاز ـ إذا تجاوزت عن المكائد النفسانيَّة، بل والقيود القلبيَّة، ورأيت الشاهد الحقيقي علىٰ صراط الإنسانيَّة المستقيم، وما ذلك إلاَّ بأن تكون في جميع الحالات مقيّداً بقيود الديانة والشرع، وأن تواظب في جميع الأحوال والأزمان علىٰ الأحكام الجائية من قِبَل خير الأنام ـ عليه وآله الصَّلاة والسَّلام ـ وتكون قواك الظاهريَّة والباطنيَّة في القيام والخدمة لربّ العالمين، فلئن صبرت علىٰ هذه المصائب وتلك المعضلات والموانع الموجودة في الطريق، وقلعت باب الحقّ للوصول إلىٰ آخر السفرة، فهو المطلوب والمقصود، وهو المأمول والمسؤول، وإلاَّ فستبقىٰ في جحيم الطبيعة والطبقة الدنيَّة، وتحشر يوم القيامة في زُمرة الحيوانات والبهيمة، وتُنشَر بحكم ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ أعاذنا الله تعالىٰ من شرّ ذلك اليوم، ووقانا حسابه.

فيا إلٰهي ويا سيّدي، إهْدِنَا الصِّراط المستقيم إلىٰ حقيقتك ونفسك، فاهدِنا سواء السبيل إلىٰ رحمتك ورأفتك ثبتنا علىٰ الطريقة الموصلة إليك وإلىٰ أُنسك ولقائك، فإنّي وإن أكن صِفْر اليد، وفي الأغلال والسجون الظُّلمانيَّة الغضبيَّة والشهويَّة والشَّيطانيَّة، ولكنّني أُحبّ التخلُّص منها، وأعشق الوصول إلىٰ حضرتك بربوبيَّتك من غير جدّ واجتهاد، تخيُّلاً أنَّ رحمتك ورأفتك تأخذني، وظنّاً بك وبحسن عشرتك بنا وللخلق أجمعين، فإنَّ من وظائف العبوديَّة حسن الظنّ بالله العظيم، فإن اهتدينا بهدايتك فهو، وإلاَّ فنحن إلىٰ الهاوية، وهي أهون من لقاء أمثال معاوية في تلك الباقية الخالدة، فمن جانب محروم من

الأنس بك وبأوليائك، ومن ناحية معذّبون بأنواع تعذيبك، ومن الثالثة ـ وهي أشدّ من الأوّلين ـ الحشر مع أعدائك والخبثاء من خلقك، فيا الله خذ بناصيتنا واهدنا الصّراط السويّ لقولك: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[١].

ثمّ اعلم: أنّ الهداية من جنود العقل، والضلالة من جنود إبليس والجهل، وقد سكت في الرواية المعدّة لتلك الجنود وأضدادها عن عدّهما منها[٢]؛ لأجل أنّ بعض العناوين الكلّيّة يشملهما.

---

(١) هود (١١): ٥٦.

(٢) راجع الكافي ١: ١٥ ـ ١٧/ ١٤، وتحف العقول: ٤٦٨ فيما وصّى الصّادق لهشام.

الأخلاق والموعظة
(الاستضاء بنور الحق واليقين)

اعلم يا أخي في الله ويا عزيزي السالك، أنَّ ذلك الكتاب لا ريب فيه، فإذا اجتهدت في تعلّمه وفي التعيّن بحقيقته وفي التشخّص بشخصيَّة مثله، وكنت في النشأة العلميَّة عين تلك البارقة الإلٰهيَّة والحقيقة الملكوتيَّة، فلا يكون لديك ريب أيضاً، فلماذا لا تحبّ أن تكتسي لباسه؟! ولماذا لا تشتاق إلىٰ أن تسلك سبيله؛ حتَّىٰ ينتفي الريب كلّه عن ذاتك؟! أفما كان أمير المؤمنين ـ عليه أفضل صلاة المصلّين ـ وأولاده المعصومين من هذه النشأة؟! أفما كانوا وما كان النَّبيّ ﷺ من الكائنات الواقعة في الزّمان والملازمات لهذه المادَّة والمدَّة؟! فإذا كانوا كذلك فكيف ارتقوا إلىٰ تلك المقامات، وتعيَّنوا بتلك الصفات حتَّىٰ نُفي عنهم الريب؟! فكن بعين الله علىٰ بصيرة من أمرك، فتُلحق بالصالحين، وتُحشر في زمرة المتَّقين، وإذا تعيَّنت بعين الكتاب في النشأة العلميَّة، وتصوَّرت بتلك الصورة البهيَّة الناضرة، فلا يكون الصادر منك إلاّ ما يسانخك في الوجود، فإنَّه لا يصدر من الحسن كلّه إلاّ الحسنُ كلُّه.

فيا أيُّها المسلم المؤمن: لا تيأس من روح الله، فإنَّ السالك في

الله يعشق الله، فإمّا يصل إلىٰ عشقه ومُناه، أو يموت في طريق عشقه وأُمنيته، وعلىٰ كلّ حال هو الفائز بالدرجة العليا، والنائل لأعلىٰ عليّين في الدار الآخرة والعقبىٰ، والله المُعين علىٰ ما يصفون.

ثمّ اعلم يا صديقي ويا نور عيني، أنّ ذلك الكتاب فيه هدًى، فعليك الجدّ والاجتهاد في أن تكون هدًى، ولا تكتفي بكونك هادياً، ولا تقنع بأن يهتدي بهديك الآخرون، فضلاً عن القناعة بأن يكون الإنسان خارجاً عن زمرة الضالّين والمضلّين، فاسعَ سعيك وجِدّ جدَّك في طريقتك المُثلىٰ ونهجك المقرَّر حتّىٰ تصل إلىٰ هذه المرتبة العُليا، ولا يكون ذلك، ولا يناله أحد، وما ناله الأصفياء إلاّ بالارتياضات النفسانيّة والتدبُّر والتفكُّر، والاقتداء بالصالحين، وباتّباع الأولياء المقرَّبين المنتشرين في البلاد والقرىٰ، فسيروا في الأرض فانظروا إلىٰ آثار رَحمةِ الله، فإنّ لله في أيّام دهركم نفحات ألا فتعرّضوا لها[1] فهذا الكتاب الإلٰهي جاء لأن يعلّم النّاس ما يصيرون به مثالاً له، فلا يكون فيه ريب، ويكون هدًى من الضلالات في جميع النشآت، فتخلّقوا بأخلاق الله حتّىٰ يتمشّىٰ لكم ما تمشّىٰ له من المشيّة المطلقة، فإنّ الإنسان هو الصورة الجامعة الإلٰهيّة، كما عرفت في الحديث الشريف، وحتّىٰ يصحّ فيكم أنّه ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ من الضلالات بأقسام الهدايات وأنواعها الممكنة.

ثمّ يا أيُّها العزيز، مسّنا وأهلنا الضرّ فأوفِ لنا الكَيل، ويا أيُّها الحجّة الباقية القائمة أعنّا علىٰ ذلك كلّه حتّى نُدرَج في زُمرة المتّقين، ونستضيء بأنوار الحقّ واليقين، فإنّ الكتاب الإلٰهي قد حثّ علىٰ ذلك

---

(١) بحار الأنوار ٦٨: ٢٢١/ ٣٠ و٨٠: ٣٥٢/ ٤ و٨٤: ٢٦٧/ ٦٤ و٨٧: ٩٥/ ١٠.

بأنحاء كثيرة، ومن أحسنها هذه الآية الكريمة، فإنَّها تومىء إلىٰ اعتبار السنخيَّة بين المهتدين بالقرآن العظيم، وبين الكتاب الَّذي لا ريب فيه، فإنَّه لا يعقل هداية الضالّ؛ لأنَّه مع فرض كونه ضالاً لا يُعقل هدايته، فإنَّ صورة الضلالة هي الصورة الآبية عن قبول الهداية، فلابدَّ وأن لا يكون متصوّراً بتلك الصورة حتَّىٰ يكون قابلاً للاهتداء بمثل ذلك الكتاب، فعليك أمر، وعلىٰ الله تعالىٰ أمور، أمَّا الَّذي عليك فهو الاجتهاد في سبيل الخروج عن التعيّن بتلك الصورة المتعصّية والرادعة المانعة، فإذا كنت خارجاً عنها برفض الشهوات والبليّات وأهواء النَّفس وأحكام المادَّة والشيطنة، تنالك ـ بحمد الله وإن شاء الله ـ المشيَّة الإلٰهيَّة الظاهرة في نشأة الغيب والشهود، ويخرجك من الظُّلمات إلىٰ النُّور، فإنَّ مجرَّد الخروج عن بيت ظلمة الطبيعة ليس من الهداية وصورتها النوعيَّة، فإنَّها حركة نحو الوجود المطلق الإلٰهي، الَّتي لا تحصل إلاَّ بعد اكتساب الزاد والراحلة، فكما لا يكون الزاد والراحلة من السفر والحركة المعنويَّة، بل هي استعداد، كذلك الخروج عن ظلمات النَّفس وغشاوات الطبيعة، لا يُعدّ من السفر المعنوي حقيقة.

وعلىٰ كلِّ حال يا أيُّها المفسِّر قم ورغِّب النَّاس في السير في المفاهيم والتراكيب والنكات والخصوصيَّات، وبشِّرهم بالسفر في حقيقة الكتاب وروحه، وفي دقيقة هذا النموذج الإلٰهي وشؤونه؛ حتَّىٰ ينال العبد ما جاء لأجله الكتاب. والله الهادي إلىٰ دار الحقيقة والصواب.

الوعظ والإرشاد وعلم الأخلاق
﴿صم بكم عمي فهم لا يرجعون﴾

اعلم: أنَّ من المحرّر في الروايات القطعية والأخبار المتواترة، ومن المقرَّر في العلوم العقليَّة والأخلاقيَّة: أنَّ الإنسان معجون مركَّب من جهات شتَّىٰ، ومن تلك التراكيب المَرعيَّة في هذه الطبيعة العجيبة، ومن النعوت المخمورة في فطرته الأوَّليَّة، هو الخوف والرجاء. ولأجل هذه الوديعة يجب عليه أن يخاف ويرجو، فلو خاف بالمرَّة، أو رجا بالكلّيَّة، لما وصل إلىٰ الحدود اللازمة، وإلىٰ المراتب الراقية، ولم يتمكَّن من الجمع بين الخيرات الحسّية والمعيشة الدُّنيويَّة والسعادة الظاهرة، وبين الخيرات العقليَّة والحياة الأُخرويَّة والسعادة الأبديَّة.

وعلىٰ هذه الرحىٰ تدور إطارات المجتمعات البشرية، وسياسة المنزل والبلد والقطر والمملكة الواسعة الكبيرة، ولأجل هذه الخصيصة يجب علىٰ المرشدين وأرباب الوعظ والهداية، أن يفتحوا في سيرهم أبواب الجانبين وسُبل الطريقتين، فلا يقولون بما يحصل منه الرجاء المطلق، ولا بما يخاف منه النَّاس كُلاً، بل لابدَّ من المحافظة علىٰ الفطرة بذكر الخوف والرجاء، وتفصيل هذه المسألة يُطلب من مقام آخر.

فعلىٰ هذا الأصل الأصيل يتوجّه هنا مشكلة: وهو الحكم بأنّهم لا يرجعون من القساوة والبطلان إلىٰ السعادة والحقّ، ومن الضلالة إلىٰ الهداية، فإنّ من يجد نفسه في هذه المرحلة من الانحطاط، ويدرك نصيبه من الشقاوة بهذه المنزلة من الدناءة والانحراف، فيُخرجه عن حدّ الرَّجاء والآمال، فيسقط للأبد في النَّار خالداً فيها ما دامت السَّماوات والأرض، وهذه الطريقة غير مرضيَّة من الكتاب الإلٰهي علىٰ ما يظهر منه، فإنّ كتابكم هذا جامع شتات المنحرفين وشامل شمل المنحطّين، وفيه من آيات الرجاء ما لا يُعدّ ولا يُحصىٰ، وقد سلك أحسن المسالك في الجمع بين الخطّين، وفي مراعاة الوجهين والناحيتين.

وبالجملة: هو كتاب الهداية والوعظ الأبدي، وكتاب اللطف والعشق السرمدي بكافَّة النَّاس والأنام؛ علىٰ أرقىٰ الوجوه وأحسن الكلام في كلّ حال ومقام؛ كيلا تزلّ لديه الأقدام؛ حتَّىٰ الرُّسل والأنبياء، فضلاً عن الأعلام.

ولعلّ سرّ ذهاب ابن عبّاس إلىٰ أنّه في موقف الذمّ والاستبطاء ـ ولا يبعد أن يكون ذلك مأخوذاً عن أهل بيت الإسلام ـ هو الفرار عن توجيه هذه المعضلة والمشكلة، فتكون الآية غير قاطعة بالنسبة إلىٰ الرجاء وعرق الأمل.

وهنا وجوه من الكلام، إلاّ أنّ الّذي يظهر لي: هو أنّ هذه الآية والآيات السابقة، كما مرّ ليست مخصوصة بحال طائفة خاصّة معلومة الحال، وليست ـ بعبارة أُخرى ـ من القضايا الخارجية والقضايا المتكفِّلة بتوضيح أحوال جمع معيَّن حتَّىٰ يستلزم منه هذه العويصة،

خلافاً لما يظهر من جمع من المفسّرين؛ اغتراراً بظواهر كثير من الأخبار وأقوال السلف؛ غفلة عن حال الأخبار ووجهة نظر الأقدمين.

ثمَّ إنَّ من الدقائق الَّتي فيها: أنَّ الحكم بعدم الرجوع معلّق بحسب الواقع علىٰ اختيارهم، وأنَّهم بالاختيار لا يرجعون، نسب عدم الرجوع إلىٰ الإرادة والاختيار، وعلىٰ هذا هم متمكّنون من الرجوع إلىٰ الفطرة والهداية علىٰ وجه لا يلزم منه كذب القضية الإخباريَّة، فليتأمّل.

وغير خفيّ: أنَّ من الممكن تضحية جمع غفير وقلَّة قليلة من النَّاس لأجل الآخرين، ومن المُجاز تفدية العزيز للأعزّ بالضرورة، فلو كان في هذه الكيفيَّة من الإرشاد، وفي اتخاذ هذا المنهج من الهداية والوعظ ـ بالنسبة إلىٰ طائفة خاصَّة من المنافقين واليهود ـ منافع النَّاس كُلاً وهداية المسلمين طُرّاً لما كان فيه مناقضة عقليَّة ولا انحراف عن جادَّة الاتصاف، فإنَّ دفع الشرّ الكثير بارتكاب الشرّ القليل، واجب عقليّ بالضرورة.

ثمَّ إنَّ مراعاة الحالين الخوف والرجاء في الوعظ والإرشاد، لازم بالقياس إلىٰ من في وجوده من النُّور شيء، وأمّا إذا ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ وهم الصُّمّ البُكم العُمْي، فكيف يمكن أن يرجعوا إلىٰ دار السعادة وحسن العافية والعاقبة؟! ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾﴾[1] دون هؤلاء الغافلين المُبْعَدين.

ففي هذه الآيات إنذار بالنسبة إلىٰ الآخرين؛ حتَّىٰ يصونوا من

(١) عبس (٨٠): ١١ ـ ١٢.

الانسلاك في نسوجهم الباطلة، والانخراط في خيوطهم الكاسدة الفاسدة.

فيا أيُّها الأخ العزيز ويا قُرَّة عيني، إيَّاك ومصاحبة الأشرار، فإنَّ فيها المضارّ، وعليك بصحبة الأخيار ومرافقة الأبرار، فإنَّ فيها لذَّات الديار، وخيرات كلّ دار، وقد سمعتُ من بعض مشايخي: أنَّ اللذيذ من هذه الدنيئة أمران: حبّ النِّساء، وخدمة الأولياء، وقد ذكرنا في بعض محافل الأُنس ومجامع أهل القلب والذوق: أنَّ من الواجب علىٰ السالكين عقد حلقات خاصَّة في كلّ أُسبوع أو شهر، فإنَّ حلقة أرباب القلوب، تذكرة بالمحبوب، وهداية إلىٰ خير مطلوب، فلو غلبت الشهوات والسهو والنسيان بمرور الأيَّام وبمصاحبة الأشرار في الشوارع والأسواق، فهي تذوب برؤية أرباب العقل وأصحاب العشق والقلب، فإذا كان المبتدىء السالك يُحبّ العافية التامَّة والعاقبة الحسنة، فيكون بقلبه ذاكراً لمعشوقه علىٰ الإطلاق في جميع الآيات والأيَّام، وفي كافَّة الحالات والأزمان، فعليه بتلك الحلقات وإحداثها واستمرارها؛ قاصدين في تأسيسها تذاكرهم وتعانقهم، وأن يكون واحد منهم يُشرق على الآخرين ويُضيئهم بالأضواء القلبيَّة والأنوار الروحيَّة، فإنَّ النجاة لا تحصل إلاَّ بالاجتهاد في هذه المبادىء وبالجهاد مع أعدائه، والله خير رفيق ومُعين.

الأخلاق والموعظة والإرشاد
(التخيُّل في المعتقدات)

اعلم يا رفيقي وعزيزي، وعليك بالتأمُّل يا شقيقي وقُرَّة عيني، أنَّ النفاق والكفر، كالإيمان ذو مراتب مختلفة ومراحل شتَّىٰ، فكما أنَّ من الكفر والنفاق ما يجتمع مع بعض الأنوار وقسم من الهدايات والتوجهات، كذلك الإيمان يجتمع ويعانق النفاق والكفر بل والإلحاد، فإنَّ من المؤمنين بحسب ظواهر الإسلام والمسلمين ـ حسب تخيُّلاتهم ومعتقداتهم ـ من يكون مندرجاً في سلك الكفَّار والمنافقين؛ لأجل ما فيهم من خصيصة وأثارة، وأيّ نفاق أعظم من المؤمن الَّذي يكون إيمانه مستودعاً عنده؟! فإنَّ المنافق حسب رأي جمع من الفقهاء مسلم؛ لما يقرّ بالشهادتين، ولكن لمكان عدم دخول الإسلام في قلبه ونفسه وعدم تديُّنه به حسب رأيه واعتقاده، يُعدّ عندنا من المنافقين الَّذين هم في الدَّرْك الأسفل.

والمؤمن المسلم الَّذي يعتقد بالإسلام ويدافع عنه، ولكنَّه لمَّا يدخل الإيمان في قلبه يكون من المنافقين ومن الأسفلين أعمالاً.

وإنَّما الفرق بينهما؛ هو أنَّ المنافق والفرقة الأُولىٰ لمكان ما لا يجد في نفسه شيئاً من الإيمان ربَّما يتبصَّر، ويدخل في سلك المؤمنين

الَّذين قال الله تعالىٰ في حقّهم: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾﴾[1].

وأمّا المؤمن المنافق المستودَع إيمانه، فلأجل تخيُّل نجاته، ولما يجد في نفسه الغرور والاغترار بالنجاة والصلاح، يكون في معرض الأخطار المحيطة ومحطّ المهالك المفنية حتّىٰ يموت ويزول إيمانه، فيكون منسلكاً في صدر الآية إذا حضره الموت.

فيا أخي وصديقي: لا تكون هذه الآيات إلاّ لتوجيه الأُمّة الإسلامية وغيرهم إلىٰ الأخطار والعقبات، وليست هذه الأنوار القدسية والأسرجة الإلٰهيَّة، إلاّ لسوق عائلة البشر نحو السعادة الدائميَّة الأبديَّة؛ سعادة لا شقاوة بعدها، وهداية لا ضلالة من ورائها، وهي لا تحصل بمجرَّد المقاولات اليومية والأقاويل اللَّيليَّة والترنّمات الآنية، بل لابدَّ من القيام وشدّ الإزار وعقد المنطق؛ حتّىٰ يتجاوز المهالك والعواقب والعقبات الشديدة والدرجات الكئوبة. وهذا ممّا لا يحصل إلاّ بتخليص العمل والقول وبتركيز الهمّة في الطاعة والبعد عن المعصية، وأن يدعو الله تعالىٰ في جميع حالاته العلانية والسرّيَّة وفي جميع الآنات اللَّيليَّة والنَّهاريَّة، لينجيه من الضلالة، فيكون تارك المشتبهات من المحرَّمات، وآتياً بالمندوبات وموارد الاحتياط حتّىٰ يحصل له التوفيق للوصول إلىٰ العزيز الرَّحيم، ويتمكّن من النزول إلىٰ فناء الله الكريم.

وليست هذه الخصائص المذكورة في هذه الآيات الكثيرة، ولا

---

(١) النّساء (٤): ١٤٥ ـ ١٤٦.

الأمثلة المعلنة لأحوال المنافقين، إلاَّ لتوجيه علماء الدِّين الَّذين هم ظواهرهم تكذِّب بواطنهم، والَّذين هم بحسب الصورة والزيّ وبحسب القول والمشي، يكونون في زمرة المسلمين والمؤمنين، وأمَّا بحسب الباطن والحقيقة وبحساب السريرة والسجيَّة، يعدُّون من المنافقين.

فيا عجباً من يوم يحشر النَّاس علىٰ صفوفهم وعلىٰ أصنافهم، وهذه الجماعة من علماء الدِّين الإسلامي وفضلاء المذهب الجعفري يُحشرون في صفّ المنافقين، وفي زُمرة المفسدين الفاسقين، لكونهم من أهل النفاق، فإنَّ حقيقة النفاق أظهر تجلّياً فيهم وأبين ظهوراً في وجوههم. والله يعصمنا من النَّار، ويعصمنا من هذه الملاحدة والفسقة، ويعصم دينه وإسلامه من هؤلاء الزمرة الفجرة الكهنة.

ونرجوه تعالىٰ أن يمنّ علينا بالهداية إلىٰ النجاة في جميع النشآت، وأن يهدينا إلىٰ سبيل الهداية والسعادة، ويوفّقنا لنيل الآمال والأماني العقلية والشرعية؛ برفض السيِّئات من الأفعال والشرور من الأفكار، وبجلب الحسنات من الأعمال والخيرات من الآراء، وأن يقوّينا علىٰ طاعته بالوصول إلى خدمة الأولياء والأبرياء، فإنَّ قرَّة عين العبد هي الصلاة وخدمة هؤلاء الخواصّ من النَّاس حتَّىٰ يصير منهم ويلتحق بهم، فإنَّ المرء محشور مع من أحبَّه؛ وذلك لأجل أنَّه يصير العاشق عين وجود المعشوق، والمحبّ عين حقيقة المحبوب، فعليك بمواصلة الاستغفار في الأسحار، وبمرافقة الأخيار والأبرار، فإنَّه أحسن أنعُم الله علىٰ عبده، وله الشُّكر علىٰ ما أعطانا.

المواعظ والحكم والنصائح
(عدم اختصاص الآيات الواردة بالنفاق وبالمنافقين)

اعلم يا صديقي ويا أخي في الله، أنَّ الآيات الإلٰهيّة والأجزاء القرآنية؛ وإن كانت واردة في بعض المسائل، ولبعض جهات تختصّ بطائفة من المنحرفين والضالّين، ومخصوصة بثُلّة من الفاسقين والساقطين، ولكنّها في النظرة الرقيقة والفكرة الدقيقة، تشمل كافّة النّاس عاليهم وسافلهم، وعموم الطوائف فاضلهم ومفضولهم، وذلك الإنسان في جميع الأحيان والمواقف متوجّه إلىٰ الكمال من النقص، ومتحرّك نحو السعادة من الشقاوة، ويخرج من الظُّلمات إلىٰ النُّور.

ويؤيّد هذه المقالة السارية في كافّة أبناء البشر قوله تعالى: ﴿...قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾[١]، فإنَّ من اتّبع رضوانه وبلغ إلىٰ حدّ الرِّضا، وهو من أعلىٰ مراتب الكمال وأشمخ منازل العرفان، يكون بعدُ في ظلمات ويتعقّبه النُّور وينتظره الهداية والصِّراط المستقيم، فمن هذه الآية الّتي هي من أعاجيب آيات الذِّكر الحكيم يتبيّن صدق

(١) المائدة (٥): ١٥ ـ ١٦.

مقالتنا، ويستظهر ابتلاء السالك في جميع آنات السلوك بالآفات والموانع.

فيا أخي وشقيقي، لا تظنّ اختصاص هذه الآيات وتلك الأمثال بالفئة المنافقين والجماعة الكافرين، فإنّك من زمرتهم وعدّتهم، فرُبَّ إنسان بلغ في سيره العلمي إلىٰ قصواه، وأدرك في طريقه التعليمي مناه وحظّه الأوفر ونصيبه الأكثر، ولكن قلوبهم خالية عن نصيبها وحظّها، وما ذاق منها ما ينتفع بها ويتوجّه إليها، بل هو بعدُ خامد ونار طافئة، فإنّ تلك المفاهيم بمنزلة النّار المستوقدة الّتي يستضيء بها، الّتي استوقدها في مرحلة الابتداء وفي المنزل الأوّل، وأضاءت ما حوله من السطوح النفسانيّة والأقشار البدوية، ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ ولم تؤثّر تلك النّار فيما كان ينبغي أن تؤثّر فيه، ولم ينتفع المستضيء، إلاّ بحسب الميول الوهميّة، واللذّات الخياليّة، والكمالات الأوّليّة.

وبالجملة، جميع المتعلّمين من أهل الظاهر والباطن، وكافّة المشتغلين بعلوم حقيقيّة وغير حقيقيّة ليسوا مأمونين عن الانسلاك في هذه الآيات، وعن الاندراج تحت هذه التحذيرات والإيقاظات، ولا يُخَصّ بذلك بعضهم دون بعض، كما توهّمه صاحب «الحكمة المتعالية» رحمه الله[1] فإنّ مجرّد الاشتغال بالعلوم العقلية غير كافٍ للهداية إلىٰ تلك السُبل والمنازل، بل ربّما تكون العلوم العقليّة أغلظ حجاباً من غيرها؛ لمكان كونها أسرع مركباً وأحسن سبيلاً وأعلىٰ درجة، فعلىٰ كلّ الطالبين، وعلىٰ زمرة المحصّلين المتوجّهين نحو الدّار الآخرة والجنّة العالية، التوجّه إلىٰ هذه العواصف والأرياح الّتي تذهب

(١) راجع تفسير القرآن الكريم، صدر المتألهين ١: ٤٢٠ ـ ٤٢٢.

بالنيران وضوئها، وتمنع عن اتّصال القلب بربّه، وعن اشتغال نار الحقيقة للوصول إلىٰ أصله.

اللّهمَّ يا إلٰهي نوّر قلوبنا بنور الإيمان والمعرفة، ولا تذهب نيراننا فتهلكنا بما فعل المبطلون، ولا تتركنا في ظلمات لا يبصرون، آمين يا ربّ العالمين.

الأخلاق والمواعظ
(التسويلات الشيطانيّة وإحاطتها بالعباد)

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ﴾(١)، فيا أيُّها العزيز قد اهتدينا بهداياتكم البليغة وإرشاداتكم الرشيدة، فشكراً لكم وجزاكم الله جزاء المحسنين.

ونرجو من الله ومن وليّه الصالح وبقيَّته في الأرض أن يمُنَّ علينا، ويمدَّنا ويعيننا حتَّىٰ لا نضلّ ولا نشقىٰ، فإنَّ الشياطين من كلّ جانب تحيط بنا، وتمرُّ علينا في كلّ صباح ومساء، وتدعونا إلىٰ الشرور والسيِّئات، ولا تقنع إلاَّ بالكفر والنفاق، وبعد أن نشتري الضلالة بالهدىٰ، فإنَّ الضلالة والهدىٰ ذوات مراتب كثيرة، ومن كان في الدرجة الثانية من الهداية الَّتي هي ذات درجات عشر، فقد اشترىٰ ثماني درجات من الضلالة والهدىٰ. . . وهكذا إلىٰ أن يكون في الدرجة العاشرة، فإنَّه ـ عندئذٍ ـ باع الضلالة بالهدىٰ فأصبح من المؤمنين الموقنين، ومن أصحاب اليمين ومن المقرَّبين، فتكون تجارتهم رابحة، ومن المهتدين حسب الحقيقة والواقع النَّفس الأمري.

---

(١) يوسف (١٢): ٨٨.

فيا أخي ويا شقيقي، ألا ولا تظنّ أنَّ مجرَّد الإيمان بالله وباليوم الآخر والإقرار بالإسلام وعقد القلب علىٰ أحكامه يكفيك، فإنَّ الضلالات ودرجاتها هي الدُّنيا، وحبّها هي الدُّنيا، ومراتبها من زخارفها ومشاغلها ولذّاتها وكيفيّاتها، وما دام القلب ـ الّذي هو عرش الرَّحمٰن ـ فيه حبّها وحبّ مظاهرها وجمالاتها وكمالاتها، فهو في الضلالة، وهو من الّذين اشتروا الضلالة بالهدىٰ، فلابدَّ وأن تقوم قياماً لا فتور فيه وتنهض نهوضاً لا ضعف ولا مرض ولا عرض يعتريه؛ حتَّىٰ تتمكَّن من إخراج الشُّبهات الإبليسيَّة والتسويلات الشَّيطانيَّة والوهميَّة، إلىٰ أن تتمكَّن من إخراج حبّ المقام والجاه والبقاء؛ حتَّىٰ تتجافىٰ جنوبكم عن المضاجع، ولا تكون من الخالدين، وذلك لا يمكن إلاَّ بالجدّ والاجتهاد والقوَّة والنشاط، وبتقليل الأغذية اللذيذة الملهية، فإنَّ رأس كلّ داء كثرة الأكل، فإنَّها تورث كثرة الشهوة والباه والنوم والغفلة، فإنَّ القلب الصافي يحصل بعد تصفية البطن وتخلية الباطن، فإذا تمكَّن الإنسان من هذا القَدَم ـ وهو القَدَم الأوَّل ـ يتمكَّن من التجلية وجلاء الرُّوح بأنحاء الأوصاف والهدايات، ويتيسَّر له أن يتحلَّىٰ قلبه بالمحاسن والمبرَّات، ثمَّ يتمكَّن الإنسان السالك من مقام التحلية والفناء والمحو والصحو بعد المحو.

وبالجملة، ينبغي للسالك أن يحافظ علىٰ رأس ماله، ثمَّ يطلب الربح، حتَّىٰ إذا فاته الربح في صفقة يتداركه في أُخرىٰ، ليبقىٰ رأس المال.

فقد حكي، أنَّه كان للشيخ أبي الدقاق مريد تاجر متموّل، فمرض يوماً، فعاده الشيخ، وسأل منه سبب مرضه؟ فقال التاجر: اشتغلت

نهاري في التجارة حتّى تعبت، فقمت هذه اللّيلة لمصلحة التهجُّد، فلمّا أردت الوضوء بدأ لي من ظهري حرارة، فاشتدَّ أمري حتّى صرت محموماً.

فقال الشيخ: لا تفعل فعلاً فضوليّاً، ولا ينفعك التهجُّد ما دمت لم تهجر الدُّنيا وتُخرج محبتها من قلبك، وتحرص عليها، فاللائق بك أوّلاً هو ذاك، ثمَّ الاشتغال بوظائف النوافل، فمن كان به أذًى من صداع لا يسكن ألمه بالطلاء علىٰ الرِّجل، ومن تنجّست يده لا يجد الطهارة بغسل ذيله وكُمّه.

ومن علائم اتّباع الهوىٰ؛ المسارعة إلىٰ نوافل الخيرات، والتكاسُل عن القيام بالواجبات، ترىٰ من يقوم بالأوراد الكثيرة والنوافل الثقيلة، ولا يقوم بفرض واحد علىٰ وجهه[1]. انتهىٰ.

فتاجروا مع الله بالأعمال الصالحة والصدقات المفروضة، واطلبوا التجافي عن دار الغرور، واقرعوا باب الاستغفار والاعتذار، ودعوا المباهاة والافتخار، ولا يغرّكم عزّكم في الدُّنيا وإقبالها عليكم، فإنَّ الإقبال مقلوب «لا بقاء» فبموتكم يذهب الذهب، وإنَّ الغناء عناء، والدرهم همّ، والدينار نار، ولا تضيع عمرك في تحصيل العلوم الفضول، فإنّه من اشتراء الضلالة بالهدىٰ، فاقنع من العلم بقدر حاجتك للعمل، فإنَّ النحو محو، والنُّجوم رجوم، والرياضيّ رياضة، والفلسفة فَلّ[2] وسَفَه، وتعلّموا العلوم النافعة الّتي هي الأنوار بذاتها، ومنها علم القرآن والحديث. كلّ العلوم سوىٰ القرآن مشغلة غير

(١) روح البيان ١: ٦٥.

(٢) هو الثلم والكسر.

الحديث؛ وكلّ ذلك لأنَّ العلوم الَّتي لا تنتهي إلىٰ الوحي والتنزيل لا يُعلم أنَّها علم ونور، ولا يصدق أنَّها الهداية والخير، وقد كثر علىٰ الباحثين اشتباهاتهم في العقليات، فضلاً عن الحدْسيات، وقد اتّفق في علم: أنَّ القاعدة الفلانية من القواعد المُحْكمة، الناهضة عليها البراهين القطعية والشواهد العرفانيَّة، ثمَّ تبدَّلت في العصور المتأخِّرة.

فإذا أمعنت النظر في حال أرباب الفكر والنظر من ابتداء التاريخ إلىٰ عصرنا ١٣٩٢ من الهجرة النبويَّة علىٰ مهاجرها آلاف الصلاة والتحيَّة، ترىٰ تبادلهم في الرأي والأنظار، وتشتُّتهم في الآراء والعقائد، ولو كنت تذهب إلىٰ مذهب حسب ما وصل إليك من البرهان، ولكن بعد التوجُّه إلىٰ هذه التقلُّبات في الأقوال والمذاهب، وإلىٰ أنَّك أيضاً منهم، فكيف تطمئنُّ إلىٰ علومك وقولك؟! فالعلم ما ينتهي إلىٰ الله تعالىٰ بتوسّط ملك الوحي وسلطان الأمر. والله هو الهادي إلىٰ الصواب، ونرجو منه ونسأله أن يمنَّ علينا بتجلّيات باهرة، وبقبسات آياته القاهرة، وهو المعين.

حول التوجيه الأخلاقي
(إحاطة النّار بنا من كلّ الجهات)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾(١).

اللّهمّ إنّا ندعوك ونسألك الإيمان والعمل الصالح وأن تعيننا علىٰ ذلك، وتقوّينا عليه بما هو عندك، ولا تجعل الدُّنيا أكبر همّنا ولا مبلغ علمنا.

اللّهمّ يا إلٰهي، أنت تعلم أنّا نؤمن بك راجين لما عندك من الثواب الجزيل والأجر الجميل، ومتمنّين لجنّتك، وخائفين من نارك، وهذا هو إيمان العبيد وعبادة الأُجراء، فاجعلنا من عبادك المخلصين والصالحين، الّذين يؤمنون بك وبما عندك حبّاً فيك وعشقاً لك ومتدلّياً إلىٰ حضرة ربوبّتك، ونرجو أن تعيننا علىٰ طاعتك وعبادتك؛ نظراً إلىٰ جميل ذاتك وبهاء نفسك، حتّىٰ نكون من عبادك المخلصين ومن العابدين الأحرار، فلا يكون طمعنا فيك الجنّة، ولا خوفنا من نارك، بل نهرب منك إليك؛ لما لا ملاذ ولا منجىٰ ولا ملجأ لنا إلاّ أنت يا كريم.

---

(١) يوسف (١٢): ٨٨.

فيا أخي ويا شقيقي وعزيزي، إنّ راقم هذه السطور وكاتب هذا الدستور بعيد عن المحاسن الآدمية، ومنغمر في الرذائل الحيوانية، بل هو أضلّ وأذلّ، ولكنّك أيُّها القارىء المخلص وصديقي الخالص لا تظنّ أنّ هذه الأُمور وهذه الورطة وتلك الخطرات المهدّدة في الطريق استهزاء وسخرية ومجاز واستعارة، لا والله، كلا بالله، بل كلّ ما جاء به النّبيّ ﷺ والوليّ في كلماته، والأئمّة ﷺ في الأخبار الصحيحة، حقّ لا مفرّ منها فخذ بيدك، وكن جاهداً في ليلك، وارجُ وتمنَّ من ربّك، وأخلص له وكن مريداً وجهه جداً، وعازماً قطعاً علىٰ هذا السفر، الَّذي أنت فيه وفي طريقه وفي وسطه، وعلىٰ ذلك الجسر والصّراط الَّذي تكون الدُّنيا أوّله، والبرزخ وسطه، والآخرة منتهاه، والجنَّة وراءه، فالجحيم مسيطرة عليك من الجهات الستّ، ولا تنجو منها إلاّ بعدما تتجاوز الصّراط وتلك القنطرة الطويلة، فكن من شيعة الَّذين يقولون وينادون بأعلىٰ أصواتهم: جُزْنا وهي خامدة[١]، جُزْنا وهي بعيدة عنّا، ولا تلمسهم ولا يلمسونها؛ لأنّ الجحيم لأهلها، ولا تتجاوز إلىٰ غيرهم، إنّ الدار الآخرة شاعرة حيَّة مدركة تدري وتميِّز بين الأشقياء والسُّعداء، فلا تكون ظالمة ومتعدّية بالضرورة، فعليك أن تكون مثالاً لهم وممثّلاً لأمثالهم.

ويا أيُّها العزيز والصديق، إنّ الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً، فيكون هو تعالىٰ في هذا المقصود والغرض الأعلىٰ، وفي هداية النَّاس في نهاية اللُّطف والرَّحمة، وفي نهاية الجود

(١) راجع علم اليقين، الفيض ٢: ٩٧١.

والرَّحمة، فلا يتحاشىٰ عن ذلك بضرب الأمثال، ولا يمتنع من توجيه الأنظار ولفت الأفكار، فأنت في دينك وفي مذهبك وفي طريقتك تكون مثله، ولا تأخذكم في الله لومة لائم، ولا تستحيوا في إظهار الحقّ وإبطال الباطل، ولا تستحيوا في توجيه الأُمَّة وهدايتهم، ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾[1]، فكثير من الأخوان الصالحين وأهلِ العلم وروّاد الحقّ والطالبين لأحكام الإسلام، يمتنعون عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ حياء واستحياء مخجلة وستراً، غفلة عن حقيقة الحال ذاهلة عن الأمر والمقصود العال، وقد حكي: أنَّ عليّاً عليه السلام كان خَشِناً في ذات الله[2]، فشيعة علي عليه السلام خشنون في ذاته تعالىٰ بإظهار الحقائق وإبراز الواقعيّات وبيان المنكرات وإعلان المعروفات؛ ناظرين إلىٰ ما لهم عند الله. من غير مراعاة حال الموقف والجهات العرفية؛ إلاَّ إذا كان يرجع إلىٰ أمر منكر أعظم، كما تحرَّر في الفقه.

فالله تعالىٰ لا يستحيي من الحقّ، وهذا نموذج وبرنامج ودستور وإيقاظ إلىٰ أن تكون الأُمَّة الإسلامية وعائلة البشر مثلاً في التجنُّب عن الأباطيل وفي هداية النَّاس إلى الحقّ المبين، فوا ويلا ثمَّ يا ويلا علىٰ الَّذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه؛ في أيّة مرحلة كانت من مراحل العالم ومن مقامات الإنسان، فإنَّ نقض العهد قبيح، وقطع ما أمر الله به أن يوصل قبيح، والإفساد في الأرض قبيح، ولا يمكن سدّ هذه القبائح إلاَّ بعد معرفة أبوابها،

---

(١) آل عمران (٣): ١٣٩.

(٢) راجع الإرشاد، المفيد ١: ١٦١، وأعلام الورى: ١٣٨، وبحار الأنوار ٢١: ٣٨٥/ ١٠.

وبعد تحصيل مفاتيحها وزواياها، فعليك بالتدبُّر فيها والتأمُّل والتعمُّق حولها، والاجتهاد والقيام لأجلها برفضها وطردها، فإنَّ القليل من الحرام حرام، فالقليل من نقض العهد والقطع والإفساد حرام؛ ولو كان في محيط الإنسان الصغير، فضلاً عن القطر الكبير والمحيط الأعلىٰ والأكبر.

اللّهمَّ إنَّا نشكو إليك فقد نبيّنا وغيبة وليّنا، فامنُنْ علينا بالحجَّة بظهور الحجَّة يا الله.

حول إفساد الكافرين
(عدم خروج الأقوال عن الأفعال)

الفساد في الأرض المذكور في الآية مورد السؤال؛ من جهة أنَّ ترك الإيمان وعدم اللحوق بالموحِّدين في العبادة أو في الذات والصفات، لا يستتبع فساداً في الأرض بحسب التجزئة والتحليل، فكيف يقول القرآن: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؟ ضرورة أنَّ الأرض ليست أرض البدن والقلب، فإمَّا يراد منها أرض المنزل والبيت، أو المحلَّة، أو المدينة، أو قطر المملكة، أو الأرض كلّها، ونحن نرىٰ أنَّ كثيراً من الفاسقين الكافرين لا يُفسدون ويُصلحون، وكثيراً من المؤمنين يُفسدون ولا يُصلحون.

أقول: إنَّ الصلاح والفساد من الطوارىء الخارجة عن اختيار المجتمع البشري بمرتبة، ومندرجة تحت اختيارهم بمرتبة أُخرى، وسدّ طرق الفساد وأبواب الإفساد والإخلال في النَّظْم الجزئي والسياسة المنزلية، وفي النظم الكلّي وسياسة البلد والقطر والعالَم، لا يمكن إلاَّ بإيجاد الشكل الوحداني والحزب الوحيد، الجامع لشتات إطارات العائلة البشرية، والكافل لمتفرّقات أبواب المجتمع العالمي، وهذا

الشكل لو كان مختلقاً من قِبَل النَّاس والمخلوقين، فتختلف فيه الآراء والأنظار، كما نرىٰ كثيراً، ووقع في الأُناسي غير مرَّة ودائماً، فلابدَّ من أن يكون العنوان الوحيد المنشأ من قِبَل مقام معلوم مصدَّق مقبول لدىٰ العامَّة، وهو الله تعالىٰ بعنوان الحزب و«حزب الله» ﴿فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾[١] والمفلحون[٢]، وبعنوان الدِّين الواحد وهو الإسلام، فلو تخلَّف واحد من الأفراد، فهو يجرّئ النَّاس الآخرين علىٰ الخروج عن هذه الوحدة الشكلية والنظامية، فيكون فساد العالَم أحياناً منتسباً إليه ومستنداً إليه بالبداهة، فعدم اللحوق بصفوف المسلمين ليس فيه شيء، وإنَّما هو مبدأ ويذر لبذور النفاق والشّقاق في قلوب الآخرين، فإذا تعدَّت الصفوف المتقابلة يلزم الفساد قهراً في الأرض كلّها.

إبلاغ وتوجيه

قد كثرت الآيات حول الإيمان بالله والأعمال الصالحة، ولا ينبغي أن يظنُّ النَّاس أنَّ الأقوال خارجة عن الأعمال، كما هو المتبادر من عمل العاملين، فربَّ صالح في أعماله طالح في أقواله وخبيث فيها جدّاً، وكان يعتقد أنَّ الأقوال خارجة عن الأعمال، خلافاً للضرورة العقلية القطعية.

فالمداومة والتأكيد المستفاد من القرآن العزيز حول هذه النكتة، يوجب انتقال النَّاس إلىٰ أنَّ مجرَّد الإيمان والمسائل القلبيَّة، لا يكفي لصلاح الأُمَّة والمجتمع، فإنَّ الفساد في الأرض من آثار الفاسقين غير المعتقدين، والمنحرفين في الاعتقادات والمسائل الروحيَّة، فما هو

---

(١) المائدة (٥): ٥٦.

(٢) إشارة إلىٰ سورة المجادلة (٥٨): ٢٢.

ضدّ الفساد في الأرض تحت قدم الإيمان والعمل الصالح، وحيث إنّ كثيراً من الأعمال الصالحة، يشكل تشخيصها وتمييزها علىٰ الأمم قاطبةً، فلابدّ من تدخُّل الوحي والرَّسول فيها؛ حتَّى يتبيَّن ذلك، ويكفي للزوم وجود العالِم الإلٰهي في المجتمع، اختلاف النَّاس في ما هو العمل الصالح، وربَّما ينتهي الاختلاف في نفس ذلك الأمر إلىٰ الفساد في الأرض.

فبالجملة، يتبيَّن هنا أُمور:

١ ـ لابدَّ من الأعمال الصالحة زائداً علىٰ الإيمان، للفرار عن الفساد ولإيجاد المحيط الصالح.

٢ ـ إنَّ الأعمال الصالحة ليست واضحة، فلابدَّ هناك من كتاب ورسول ووحي وإيحاء حتَّىٰ يوضّح ذلك ويبيّنه.

٣ ـ إنَّ ذلك الكتاب هو القرآن الداعي لمجتمع البشر إلىٰ العنوان الفريد، فيقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾[1]، وذلك الرَّسول رسول الإسلام ﷺ وأُمناء الوحي والأئمَّة المنصوبون عليهم السلام من قبله وخلفاؤهم المنصوبون من قبلهم عليهم السلام.

فبالجملة، تحصّل أنَّ تشكيل العائلة الصالحة والمدينة الفاضلة، لا يمكن بمجرَّد المسائل الفرديَّة والعباديَّة، بل لابدَّ من تحصيل الأعمال الصالحة الَّتي تنتهي إلىٰ صلاح الأرض في قبال ما تنتهي إلىٰ فسادها.

---

(١) البقرة (٢): ٢٠٨.

توجيه أخلاقي وفيه أسرار إلٰهيّة

اعلم يا أيُّها الآدمي بل ويا آدم: أنت بحسب الخلقة الأوّليّة، وبحسب الفطرة الإلٰهيَّة مسجود الملائكة أجمعين أكتعين، فكلّهم خاضعون ساجدون ومسخَّرون عندك؛ حسب مراتب وجودك ومراحل حقيقتك ومنازل مسيرك وسفرك، وقد أمر الله بذلك، وكان الله تعالىٰ ربّك رؤوفاً بك عطوفاً عليك رحيماً رحماناً، اصطفاك خليفة، وعلَّمك ما لم تكن تعلم، واستعرضك كي تجد الملائكة مقامك ومنزلتك، وبعد ذلك كلّه خضعت الملائكة وسجدت تكويناً لك؛ وتلك الملائكة الأعلون والأسفلون امتثلوا أمر الله تعالىٰ امتثالاً دائمياً سرمدياً، وأطاعوا أمر الله تعالىٰ إطاعة مسجَّلة في ذواتهم، وانقياداً لا يُتصوَّر وراءه تكويناً وتشريعاً.

فإذا كانت هذه الحقيقة في انتظارك، وتلك البارقة اللاهوتية في خميرتك، وهذه المائدة الكلّية الجامعة في جوارك، فهل إلىٰ التخلية عن الرذائل الذاتية، والتخلية عن الخبائث الصفاتية، وعن المفاسد الأفعالية والأباطيل الأقوالية، قصور وفتور؟! كلاً إنّه خلاف العدالة، وضد الإنصاف والاقتصاد، فإنَّ إبليس أبىٰ واستكبر، وتفوَّق بإبائه واستكباره علىٰ هذه الملائكة وهؤلاء الأماجد والسابقين؛ بإضلالك وسوقك إلىٰ النَّار والشيطنة والانحطاط والهجرة والمحجورية.

فيا أخي ويا نفسي وشقيقي، كيف الأمر وأنت ساجد للشياطين، والملائكة سُجَّد لك، أنت مطيع الأبالسة وملائكة الله تطيعك، أنت منقاد لك الخلائق الطاهرة القدّيسة المنزَّهة، تنقاد أنت للجانّ، والشَّيطان عدوّك وعدوّ الله تعالىٰ.

فوالله أنت مظهر لا يستحيي من كلّ شيء، وأنت أرذل من الحيوان وأضلّ سبيلاً، فعليك بالانتباه عن نومة الغافلين، والالتفات إلىٰ منازل السائرين، والابتعاد عن أن تكون من الكافرين الآبين المستكبرين، ولْتخفْ يا صديقي من حشرك مع الشَّيطان والشياطين، فإنَّ الملائكة تجرُّك إلىٰ الجنَّة، وإبليس يجرُّك إلىٰ النَّار، وأنت تساعده بترك اتّباع الشرع، وبامتثال أوامر الهوى والنَّفس، فإنَّ الخيرات والعوامل الباعثة نحو العواقب الكريمة غير متناهية، وأمَّا الشرور فتنتهي إلىٰ إبليس الَّذي لا يتمكَّن إلاَّ بمعاونتك؛ أفما سمعت عن بعض أنَّه ﷺ قال: «شيطاني آمن بي»[1].

شير رابچه همي مانـد بدو تو به پيغمبر چه مي ماني بگو[2]؟

إلٰهي إنَّ عبدك المكتفي بهذه الصحائف والسطور، بعيد عن كافَّة البوارق والنُّور، فإليك الابتهال والإنابة والتوبة، فأعنَّا يا خير معين.

---

(١) راجع كنز العمَّال ١١: ٤١٣/٣١٩٣٦.

(٢) مثنوى معنوى، دفتر دوّم، بيت ٢٢٠٢.

في الوعظ والإرشاد
((الإذعان بالقلب وليس باللّسان))

اعلم أنَّ الكفر من جنود الشَّيطان، وأعظم جند في العالم الإنساني والمحيط البشري، وضده الإيمان، وأمّا الحياة والممات فهما من جنود العقل، ولذلك لم يذكر في حديث سماعة بن مهران المشتمل علىٰ جنود العقل والجهل البالغ جندهما إلىٰ أكثر من سبعين[١]، لم يذكر فيه الموت من جنود الجهل، فالموت ليس شيئاً مذموماً ولا صفة شيطانيَّة، ولأجل ذلك عُدّ خلق الموت والحياة من صفاته تعالىٰ، فقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾[٢] وقد قدَّم الموت عليها، كما قال هنا: ﴿...وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ﴾.

فيا عزيزي وشقيقي ويا قُرَّة عيني وثمرة فؤادي، كيف تكفرون بالله؟! وكيف تكفرون بهذا الموجود العزيز الرؤوف بالعباد، الَّذي يهتمّ بهداية البشر نهاية الاهتمام؛ بإرسال الرُّسل وإنزال الكتب وتحمّل رسوله المصائب والبلايا والمتصّبر في ذات الله سنين كثيرة؟! فكيف تكفرون ولا تذعنون إذعاناً لا باللّسان والألفاظ، ولا بالعلم والعقل،

---

(١) الكافي ١: ١٥ ـ ١٦.
(٢) الملك (٦٧): ٢.

بل بالقلب والرُّوح؟! وكيف لا تؤمنون بهذا الإله الخلاَّق القادر العالم الَّذي يقلِّبكم مراراً من الموت إلىٰ الحياة؛ ليصير وجودكم كاملاً حيّاً باقياً بالحياة الطيِّبة الأبدية، وباقياً وبالبقاء الشامخ السرمدي، والَّذي يراعي حياتكم بخلق هذه الأنظمة العالمية والأكوان السُّفليَّة والعُلويَّة، والَّذي يخلق لكم ما تحتاجون إليه من بدو ظهوركم في الأصلاب إلىٰ أن تنتقلوا إلىٰ الأرحام ثمَّ إلىٰ الدُّنيا والبرزخ والعقبىٰ، فهيَّأ لكم تمام الأسباب، وسوَّىٰ لكم جميع الحوائج والشرائط بأحسن النظام وأسهل الأمر؟!

فكيف ترضون بالكفر به وإنكاره وجحوده عبادة وقولاً ونفساً وروحاً وقلباً؟! ولأيَّة جهة تختارون الباطل عليه، وتسيرون سيراً ضدّ الفطرة، وعلىٰ خلاف الهداية والسعادة.

فعليكم بالتدبُّر والتفكُّر في ألطافه ومراحمه ورأفته ومحبَّته، مع غاية استغنائه عنكم، وعن خلقكم وخلق ما في الأرض وما في السَّماء، ونهاية بعده عمَّا بين أيديكم من الأشياء الخطيرة والمحقَّرة، فهل من العدل والإنصاف، أو من شرط التعقُّل والإدراك، التغافل عنه والغفلة عن نعمه؛ بصرف النظر إلىٰ غيره ولفت التوجُّه إلى ندّه وضدّه؟! كلاَّ والقمر حاشا والبشر.

فيا أيُّها العزيز والأخ في الله، قوموا من نومتكم، واستيقظوا من غفلتكم، وتوجَّهوا وأنيبوا إلىٰ ربكم وأسلموا له ولا تكفروا كفراً ولا كفراناً، ولا تلدوا فاجراً ولا كفَّاراً.

الأخلاق والإرشاد
(اكتساب المادّة القابلة للصور الكافرة)

إنَّ الإيمان من أحكام الفطرة المخمورة، والكفر من آثار الفطرة المحجوبة، وقد تقرَّر لأهله في محلّه؛ أنَّ الإنسان مفطور علىٰ عشق الكمال و[النفور] عن النقص، فيكون متحرِّكاً ومتوجِّهاً إلىٰ الإيمان؛ لأنَّه كمال الطبيعة والطينة ومنزجراً وفرّاراً عن الكفر؛ لأنَّه النقص، وهذه الكبريات ممّا أُقيم عليها الشواهد والوجدانيات مشفوعة بالبراهين والأدلَّة والآثار.

والَّذي هو الأهمّ في نظر السالك، ويهتمّ به في السير: هو أن يتحقَّق العبد بصفة الإيمان؛ حتَّىٰ لا يكون كافراً في جميع الاعتبارات وفي كافَّة الآفاق، وهذا الكفر هو الَّذي يحتجب به الإنسان بأنواع الحجب، ولا يتمكَّن بعد الاحتجاب من خرقها وهدمها إلاَّ بالعناية الإلٰهيَّة وبالممارسة والمجاهدة النفسانيَّة، ولا يشرع ـ في حكومة العقل ـ أن يكتفي بالبحوث والاشتقاقات الأخلاقيَّة، والغور في سُبل الرذائل والملكات؛ غافلاً عمّا هو عليه وعمّا في قلبه من البلايا والآفات.

فيا أيُّها العزيز ويا قُرَّة عيني، إيَّاك وأن تصبح وقد اكتسبت المادَّة

القابلة للصور الكافرة، واحتجبت الفطرة بالحُجُب الغليظة، فإنَّه عند ذلك لا يمكن أن تتخلَّص من العذاب الإلٰهي العظيم، ولا تتمكَّن أن تنجو من جحيم الذات السرمدي الأبدي، فما دُمتَ مقارناً للمادَّة وفي الدُّنيا والنشأة القابلة للتغيُّر، وما دُمتَ شابّاً غير راسخة عروق وجودك في سجون الطبيعة المظلمة، تقدر علىٰ القلب والانقلاب، وتقدر على إضاءة النَّفس وإنارة قلبك، وتقدر علىٰ خَرْق الحُجُب، فلا تشتغل بغير ذلك، واستعن بالله العزيز وبالرَّبّ اللَّطيف حتَّى يُمدّك بملائكته لنجاتك وهدايتك، فلا تكون بعد ذلك ممَّن طبع الله على قلبه وسمعه، وختم علىٰ بصره غشاوة. فلا تأخذ بالتسويف والآمال، فإنَّ ذلك من مكايد الشيطان وحباله وخُدَعه ووسوسته ونِباله.

ولا تيأس من روح الله وعنايته، فإنَّه لطيف ورؤوف بعباده، وعطوف ورحيم في مملكته وسلطانه، ولا تأخذ ولا تترنَّم؛ بأنَّ الأمر قد مضىٰ وقد قُضي علينا بالشقاوة والنيران، فإنَّ كلّ ذلك من الشيطان الرجيم ومن إبليس اللئيم، عصمنا الله تعالىٰ من النَّفس الأمَّارة بالسوء، وندعو الله تعالىٰ أن يُعيننا علىٰ طاعته وعبادته، ويُخلِّصنا من الزلاَّت والشرك ومن الخواطر والمشاغل، آمين يا ربّ العالمين.

الموعظة الحسنة والنصيحة
(الاستماع إلى نداء القرآن قلباً وقالباً)

اعلم يا أخي إنَّ الكتاب الإلٰهي كتاب الوعظ والإرشاد والتنبيه والتوجيه، وفيه هذه الجهة وتلك القسمة أقوىٰ وأعظم شأناً من سائر الأمور الأخر، وفي جميع الهدايات أيضاً يلاحظ جانب الإرشادات الخاصّة بأنحاء التعابير المختلفة؛ ليخرجكم من الظُّلمات إلىٰ النُّور، ويهديكم إلىٰ الصّراط المستقيم، والخلاص من الجحيم.

فإذا يقول: ﴿ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾ فعليك الإجابة بالأجوبة القلبيَّة والقالَبيَّة، وعليك الإصغاء والاستماع إلىٰ ندائه ورأيه عملاً وعلماً، ولا تكن كالمنافقين ومن يحذو حذوهم في الخروج إلىٰ حدّ الإفراط أو التفريط، حتَّى لا تكون من المؤمنين قلباً وعلماً ولا من المؤمنين عملاً وقالَباً، بل اللازم مراعاة الحدّ الأوسط، واتخاذ الحدّ العدل والخطّ المستقيم من الابتداء إلىٰ الانتهاء، وعدم الانحراف عنه ولو لحظة، وذلك لا يحصل بمجرَّد تلاوة الكتاب، أو كتابة تفسيره، أو مراجعة كتب المفسّرين وغير ذلك، بل هو أمر لا يمكن تحقيقه إلاَّ بالجدّ والاجتهاد.

فإيَّاك أن تكون من السفهاء في لسان القرآن، وإيَّاك أن تشملك

هذه الكريمة الشريفة واحذر عن التشبُّه بالمنافقين، وقد عرفت أنَّ من النفاق الرياء، والمراؤون يتَّبعون أهواءهم، وهم في النفاق آكد من المنافقين؛ لما أنَّ إيمانهم وَدَعي غير راسخ ولا حقيقي، فهو والمنافق عند ظهور النشأة البرزخيَّة سيَّان، ولا يجوز أن تتخيَّل اختصاص ذلك بالمرائي، بل كلّ إنسان كان نظره وقلبه متوجّهاً إلىٰ غيره تعالىٰ ـ في فعاله وصنيعه ـ فيه نوع نفاق. ويقول بلسان الحال: ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾، ويجاب بقول الله تعالىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾.

الأخلاق والموعظة
(طلوع الحقيقة على القلب)

يا أيُّها القارىء الكريم، ويا أيُّها الأخ الرؤوف الرحيم، قد حان وقت طلوع الحقيقة علىٰ قلبك لتكون نذيراً وبشيراً، وقد بلغ زمان ظهور الإيمان والإيقان حتَّىٰ يتجلَّىٰ فيك القرآن والفرقان، وعليك بعدما قرأت وخبرت بما في هذه الآيات والبيِّنات؛ من الأسرار الإيمانيَّة والرقائق الإيقانيَّة، أن تسعىٰ سعيك، وتجهد جهدك؛ حتَّىٰ تكون من الموقنين، فإنَّ في الأرض آياتٍ لِلْمُوقِنِينَ.

فيا أخي وقُرَّة عيني، ليس الإيقان مجرَّد التلفُّظ والإخطار بالبال، وليس هو العلم البرهانيّ والبناء العملي، بل اليقين ـ كما قال به الشيخ عبد الله الأنصاري ـ مركب الأخذ في الطريق، وهو غاية درجات العامَّة، وقيل: أوَّل خطوة الخاصَّة، وهو علىٰ ثلاث درجات:

الدرجة الأُولى: علم اليقين، وهو قبول ما ظهر من الحقّ، وقبول ما غاب للحقّ، والوقوف علىٰ ما قام بالحقّ.

والدرجة الثانية: عين اليقين، وهو الغنىٰ بالاستدراك عن الاستدلال، وعن الخبر بالعيان، وخرق شهود حجاب العلم.

والدرجة الثالثة: حقّ اليقين، وهو إسفار صبح الكشف، ثمَّ الخلاص من كُلفة اليقين، ثمَّ الفناء في حقّ اليقين(١). انتهىٰ.

فإذا كان الإنسان المؤمن من الموقنين، فلا يخاف إلاَّ من ربّ العالمين، ولا يفعل ولا يصنع إلاَّ لله ربّ العرش المتين، ولا يتأمَّل ولا يتفكَّر ولا يأمل إلاَّ غايةَ آمال العارفين.

وبالجملة، كما سبق منّا كراراً؛ لا تغترّ بما في هذه الصحف والقراطيس، ولا تفتخر بالغور في الحقائق المفهوميَّة والدقائق الإدراكيَّة، فإنَّ الفخر كلّ الفخر هو أن تهتدي بأنحاء الهدايات القرآنيَّة وبأنواع الأنوار الفرقانيَّة؛ حتَّى تستيقن بأنَّك لا شيء محضاً، ويكون ذلك راسخاً في روحك وملكة في قلبك، وتترنَّم بهذ الشعر:

بس عدم گردم عدم چون ارغنون گـويـدم كـانّـا إلـيـه راجـعـون(٢)

وتقرأ في كلّ صباح ومساء هذه الآية الكريمة: ﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾(٣)، رزقني الله تعالىٰ من هذا الكأس إن شاء الله تعالىٰ.

وقد ورد في أحاديثنا الشريفة: «أنَّ أقلّ شيء أُوتيتم اليقين»(٤)، وهذا اليقين هو الَّذي قال الله في حقّه: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾(٥)، فإنَّه لا يحصل إلاَّ بالمعاينة والمشاهدة من قريب بعين القلب، وحتَّىٰ

---

(١) راجع شرح منازل السائرين: ٢٨٢ ـ ٢٨٥.
(٢) راجع مثنوى معنوى: ٥٧٦، دفتر سوّم، بيت ٣٩٠٧.
(٣) فاطر (٣٥): ١٥.
(٤) بحار الأنوار ٦٧: ٢/١٣٦ و٢١/١٧١.
(٥) الحجر (١٥): ٩٩.

يسمع بأُذن الحقيقة صوت النزع، وهذا هو اليقين الَّذي إذا حصل في هذه النشأة يختلّ به النظام أحياناً، وقال الله تعالىٰ في هذا اليقين: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾[1]، فهو قبل أن يموت قد عاين الحقيقة والآخرة وباطن الدُّنيا، وكان بذلك من الموقنين.

فيا أيُّها العزيز مسَّنا وأهلنا الضرُّ، وحلَّ بنا الظلم في السرَّاء والضرَّاء وفي الشِّدَّة والرخاء، وقد بَلَغنا من هذه السفرة نَصَبٌ شديد وتَعَبٌ كثير، فأوفِ لنا الكيلَ وتصدَّقْ علينا؛ حتَّىٰ نتمكَّن من أن نكون من الموقنين، وحتَّى نصل إلى فِنائك وبابك؛ فارغين عن الظنون والأوهام، ومتحلِّين بحلية اليقين والإيمان، ولا نستدرج في الَّذين قال الله تعالىٰ في حقّهم: ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾[2]، بل ولا من الجِبِلَّة الَّذين قال في حقّهم: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[3] ولا من المنادين بقوله تعالىٰ: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾[4].

فيا سيِّدنا ويا مولانا إنَّا توجَّهنا بك أن يجعلنا من الَّذين أنعم عليهم بنعمة اليقين حتَّى ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾.

فتحصَّل من هذه الآيات الشريفة: أنَّ لليقين ـ مضافاً إلىٰ المراتب ـ الخاصَّةَ العجيبة، وهي رؤية الآخرة في الدُّنيا، ومشاهدة الغيب في الظاهرة ومعاينة الحقائق حال الاقتران بالمجازات والله العالم بأسراره.

---

(١) الأنعام (٦): ٧٥.

(٢) النساء (٤): ١٥٧.

(٣) النمل (٢٧): ١٤.

(٤) السجدة (٣٢): ١٢.

الأخلاق والآداب
(وصيّة من راقم هذه الحروف)

وصيَّة من راقم هذه الحروف إلىٰ القارىء الأخ الكريم وإلىٰ قُرَّة عيني العزيز:

اعلم: أنَّ الإنسان فيه قوَّة الخيرات والشرور، وفيه مادَّة الحسنات والسيِّئات، ولا تغلُّب لهذه القوَّة وتلك المادَّة إلىٰ جانب من الجوانب وناحية من النواحي باقتضاء من ذاتها، بل هي تابعة للصور الواردة عليها، فإن خيراً فهي إلىٰ الخير متحرِّكة، وإن شرّاً فهي إليه مائلة ومجبولة.

وتلك الصور الواردة ليست خارجة عن اختيار الإنسان إلاَّ أنَّ منها ما في تحت إرادة الآباء والأُمَّهات، فإذا كانت الأصلاب شامخة والأُمَّهات مطهَّرة، بلد الإنسان الجامع للهيئات الحسنة، القابلة للحركة نحو الخيرات المطلقة بأتيان بالمولود المجبول علىٰ الحسنات والمشعوف بالخيرات، وإذا كانت الأصلاب والأرحام منحرفة ومظلمة، فتكون النطف محجوبة بالحُجُب الظُّلمانيَّة، وبالقوىٰ والطبائع المنحرفة الشيطانيَّة، فيأتيان بالمتهوِّدين والمتنصِّرين، كما ورد: أنَّ

أبويه يُهوِّدانه ويُنصِّرانه، وإلاَّ فكلّ مولود يولد علىٰ الفطرة[1]، ويكون مجبولاً علىٰ التوحيد والحركة نحو الكمال المطلق.

وإذا بلغ الإنسان إلىٰ حدّ الاختيار والإرادة، فلابدَّ من المحافظة علىٰ تلك الصور الواردة حتَّىٰ تنحفظ القوىٰ والطبائع الإلٰهيَّة المودوعة فيه، وتسير إلىٰ جانب الحقّ والحقيقة، وتسافر إلىٰ دار الله، وهي دار الوجود والبقاء، ومن الأسباب الَّتي يتمكَّن الإنسان من صيانة تلك الخمائر والسجلاَّت في ذاته، هو تطبيق روحيَّاته علىٰ الكتاب العزيز والقرآن الكريم والصّراط المستقيم، وأنَّه إذا يقرأ هذا الآيات في ابتداء سورة البقرة، لا يقتنع بمجرَّد اللقلقة وتحسين الصوت وتجويد الحروف والكلمات، بل يكون علىٰ بصيرة من أمره مهتدياً بالآيات، ومترنّماً ومترقّياً بالحروف والكلمات، مواظباً على إيلاجها في قلبه وإرساخها في روحه ونفسه، ويستمدُّ منها، ويتغذَّىٰ بغذائها، كما يتغذَّىٰ بسائر الأغذية، ويجاهد في سبيل ربّه بهدىٰ الربوبيَّة؛ حتَّىٰ يكون من المفلحين الفائزين الَّذين مدحهم إلٰه العالمين؛ من غير اغترار بما في تخيُّلاته وتسويلاته من المفاهيم القالَبيَّة، الخالية عن المعاني والأنوار القلبيَّة، والله وليّ التوفيق.

---

(١) راجع عوالي اللآلي ١ : ٣٥/١٨، والدّر المنثور ٥ : ١٥٥.

الأخلاق والمواعظ والنصائح
(إذا أصبحت الأمراض ملكة)

يا أخي ويا عزيزي وقُرَّة عيني، لقد أُرسل إليكم كتاب فيه المواعظ والحكم، وأُنزل إليكم نور تستضيء به القلوب والنُّفوس وفي جميع آياته ومواعظه الإلهام والإيماء إلىٰ الحسنات ولزوم نيلها، والزجر والتحذيَب عن السيِّئات ووجوب التنفُّر عنها، فإذا استمعت إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، فلا تظنُّ أنَّ هذه الآية مخصوصة بجماعة من المنافقين وأنت لست منهم وبريء عنهم، كلاًّ، بل عليك أن تحسب نفسك فيهم حتَّىٰ تقوم من مقامك وتجتهد وتجدّ في الخروج عن هذا الأمر الفزيع الفجيع، وذلك لما تحرَّر وتبيَّن في محلِّه وبلغ إلىٰ نصاب التحقيق وميقات البرهان والتدقيق، أنَّ الأمراض المتحصِّلة في النُّفوس إذا صارت ملكة، فقد بلغت إلىٰ حدّ يُقرأ عليها ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾.

فإنَّ الله تعالىٰ وتبارك خلق الخلق علىٰ نظام الأسباب والمسبِّبات، ولا يخصُّ أحداً بنظرة رحيميَّة خارجة عن اقتضاء المرجّحات والأسباب؛ لأنَّ الحقّ الرؤوف عادل مستوي النسبة إلىٰ العالَم، فإذا حصل في قلبك مرض الحسد والبخل والكبر والأنانية

والجبن وحبّ الدُّنيا والرئاسة وغير ذلك، وما أخذت في إزالتها وإفنائها، وما أخذت في محوها ونفيها، بل قوّيتها بالواردات والمؤيّدات، وسلكت مسالك الأباطيل والشياطين، فقد زادها الله تعالىٰ مرضاً وزادهم مرضاً، ونعوذ بالله العزيز من هذه الفجائع والعظائم والبلايا والرذائل، فإنَّها إذا استقرَّت في النَّفس وصارت الأنفس محكومة بها حتَّىٰ تحرَّكت فيها حركة طبيعية، يكون لهم عذاب عظيم بما كانوا يصنعون.

فعليك يا أخي ويا نظيري في خلقي، أن تأخذ بنجاتك من هذه الورطة الظلماء، وتشدّ عضدك وظهرك للاستنارة بأنوار القرآن؛ بأن تعمل به عمل إخلاص وتتدبَّر في آياته تدبُّراً حسناً وتفكُّراً مفيداً لدُنياك وآخرتك، ولا تكن ممَّن أُقفلتْ قلوبهم بالمحاسن المعنوية واللفظية والدقائق الحِكميَّة والعرفانيَّة، فإنَّها كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء.

المواعظ والحكم والأخلاق
(الأمراض العامّة والأسقام السارية)

اعلم يا عزيزي في الله وقُرَّة عيني، أنَّ اختلاف حالات النَّاس في الجلوة والخلوة من الأمراض العامَّة والأسقام السارية، وقلَّما يتَّفق لأوحديّ من الكمّلين والخواصّ من المؤمنين، أن يتخلَّص عن جميع مراتب النفاق، ويتخَلّىٰ عن التغطية والتغشية.

وهذا مرض يسري وينمو ويزداد من مرتبته الدُّنيا إلىٰ مراتبه العليا؛ حتَّى يهلك صاحبه، ويصير من المنافقين الشياطين أو أسوأ حالاً، فإيَّاك وهذه الرذيلة المهلكة الموبقة، وعليك أن تحذر عنها وتجدّ في دفعها وقلعها، وقلع مادّتها، وهي ـــ كما تحرَّر في محلّه ـــ حبّ الدُّنيا وامتلاء القلب من شؤونها وأحكامها، وفي مقابله الشِّرَّة والنسيان والغفلة عن الله والآخرة وأحكامها.

وكما أنَّ الكفَّار فيهم المنافق، وفيهم الصريح المعاند، كذلك المؤمنون فيهم المنافق، وفيهم الخالص الخاصّ والصريح البارز وقد يتَّفق أحياناً أنَّ نفاق المؤمن أشدّ ضرّاً من نفاق الكافر، فإنَّ البذر السيِّىء في الأرض المحتلَّة باحتلال الشيطان، لا يثمر

ثمره، بخلاف عكسه؛ لأنّه بذلك ربّما تصير الأرض ومحطّ القلوب والنُّفوس ظُلمانية شيطانية تدريجاً.

وقد عرفت فيما مضىٰ أنّ الإيمان المستودَع من النفاق ومن الحجب الغليظة، فإنّه يظهر إيمانه ويشتهر بما لا يستمرّ ويستقرّ فيه، فإنّ المنافق الّذي يقول عند لقاء المؤمنين آمنّا وصدّقنا وإنّا معكم، ليس منافقاً إلاّ لأنّ الإيمان ليس في قلبه، وفي حكمه المؤمن بالإيمان المستودَع، فإنّه أيضاً لمّا يدخُلِ الإيمانُ في قلبه.

اللّهمّ يا إلٰهي إليك أبتهل، وإليك أتضرّع وأرجو منك أن تعينني علىٰ طاعتك وعبادتك بحسن حالك وكرامة وجهك.

يا إلٰهي وسيّدي احفظني بحفظك عن النفاق؛ كثيره وقليله، عظيمه وصغيره، واكلأني بكلاءتك عن هذه الصفة المشؤومة والرذيلة المذمومة، الّتي توجب استحقاقي لسخطك وغضبك بل واستهزائك. يا إلٰهي وهذا ممّا لا تقوم له السّماوات والأرض.

اللّهمّ إليك الأمر وعليك التوكّل، فلا تكِلْني إلىٰ غيرك يا الله.

الفهرس

المقدّمة ٥

علم الحروف والأعداد ٩

المقام الأوّل: في سرّ الحروف والأعداد ٩

المقام الثاني: في سرد طائفة من الروايات والأخبار الواردة في خصوص هذه المسألة ٢٢

المقام الثالث: في ذكر ما قيل في هذه الروايات ٢٩

المقام الرابع: بعض الرموز المستورة تحت الباء ونقطتها ٣٦

تكملة: بحث عن أسرار حروف البسملة ٤١

علم الأوفاق: ٤٢

عِلم الحروف والأعداد والأوفاق ٤٤

نقل وإيقاظ: ٤٦

علم الحروف والأعداد (من أسرار البسملة) ٤٨

علم الأوفاق (أسماء الله الحسنىٰ) ٥١

جدول سورة الحمد علىٰ حساب الحروف ٥٤

حرف الشين للمريخ وله يوم الثلاثاء ٥٥

خاتمة تشتمل علىٰ رموز ونكت ٥٦

النكتة الأُولىٰ: حول عدد السبع ٥٦
النكتة الثانية: حول انفتاح أبواب الجنَّة الثمانية عند القراءة ٥٩
النكتة الثالثة: حول تناسب الصلاة والفاتحة (أسرار عرفانيَّة) ٦٠
النكتة الرابعة: المناسبة بين السورة وآخر سورة البقرة ٦٢
النكتة الخامسة: تحصيل العدالة بقراءة السورة (الصور السبعة) ٦٣
النكتة السادسة: في نظم سورة الحمد (أسرار ملكوتيَّة) ٦٦
النكتة السابعة: حول الأسماء الخمسة المذكورة في السورة ٦٨
السور المشتملة على الحروف المقطعة ٧١
حول ما ورد من الأخبار والمآثير ٧٣
حول الآراء المحكيَّة في هذه المسألة ٧٩
تذنيب: حول الأخبار الواردة في معناها: ٨٦
إيقاظ وإرشاد: ٨٩
حول الوجوه المفصلة المذكورة وما هو التحقيق في المسألة القريب إلىٰ أُفُق الواقع وهي كثيرة ٩٠
حول إعجاز القرآن وخلوده ١٠٢
الوجه الأوَّل: اشتماله علىٰ المعارف العالية ١٠٢
الوجه الثاني: اشتماله علىٰ أُصول الأخلاق ١٠٣
الوجه الثالث: اشتماله علىٰ الحقائق الحكمية والطبيعيَّة ١٠٤
الوجه الرابع: اشتماله علىٰ القوانين الفردية والاجتماعية ١١٢
الوجه الخامس: فصاحة القرآن وبلاغته ١١٤
بقي شيء: بعض شبه حول فصاحة القرآن وبلاغته: ١١٦

الوجه السادس: بقاء القرآن علىٰ أسلوبه ولغاته في الأمصار ١٢١
الوجه السابع: إخبار القرآن بالغيب ١٢٢
الوجه الثامن: تكرار القصص بأساليب متعدِّدة ١٢٤
الوجه التاسع: عدم اشتماله علىٰ المحتملات ١٢٥
الوجه العاشر: اشتماله علىٰ القانون والهداية ١٢٥
الوجه الحادي عشر: حول خلوص القرآن عن المضادَّة ١٢٦
الوجه الثاني عشر: كونه تبياناً لكلِّ شيء ١٢٨
الوجه الثالث عشر: اشتماله علىٰ التعابير العرفية والاصطلاحات ١٢٩
الوجه الرابع عشر: ابتكار القرآن في بعض العلوم ١٣١
الوجه الخامس عشر: اشتمال القرآن علىٰ الفنون الكثيرة ١٣٤
حول كون الكتاب هدًى للمتَّقين ١٣٥
حول كون القرآن وحياً أو نازلاً ١٣٧
حول كون الكتاب هو الهدى (القوس الصعودي والحركة المعنويَّة) ١٣٩
كتاب الله هدًى للمتَّقين ١٤٥
الهداية التكوينيَّة والتشريعيَّة (استطراق طريق الوصول) ١٥٠
حول منتهىٰ الصِّراط (المبدأ والمنتهىٰ) ١٥٤
فذلكة الكلام في المقام: ١٥٧
حول فعلية الصِّراط وإمام الزَّمان (ع) ١٥٩
بحث عرفانيّ وإفاضة إشراقيَّة (الاسم الخاص والاسم العام المحيط) ١٦٤
كشف ملكوتيّ وشهود سرمديّ الهداية إلىٰ الصِّراط والوصول إلىٰ الغاية ومعرفة الإمام ١٦٦

دليل عرفانيّ وتنبيه إيمانيّ إشارة الآية إلىٰ برهان الصدّيقين ١٧٠
الاستدلال بوحدة العالم علىٰ وحدة إله العالم وهذه الآية ﴿الحمد لله ربّ العالمين﴾ ١٧٢
بعض البحوث الفلسفيّة ١٧٧
كيفيّة خلق آدم ١٧٧
المرحلة الأولى: كيفيّة خلق الحيوان ١٧٩
المرحلة الثانية: نظرية «التطوُّر» في كيفيَّة خلق آدم: ١٨٢
المرحلة الثالثة: نظرية المسلمين في خلق آدم ١٨٥
المرحلة الرابعة: حول الأدلَّة النقليَّة: ١٨٦
بعض البحوث العقليَّة والمسائل الفلسفيَّة ١٨٩
المسألة الأولىٰ: حول كيفيَّة التعليم ١٨٩
المسألة الثانية: حول تجرُّد النَّفس ١٩٠
المسألة الثالثة: حول حديث النَّفس ١٩٢
بعض البحوث العرفانيَّة والمسائل الإيقانيَّة ١٩٥
البحث الأوَّل: في تعليم الأسماء ١٩٥
البحث الثاني: ثبوت الشعور لكافَّة الموجودات ١٩٨
البحث الثالث: حقيقة التعليم من الرَّبّ العليم ١٩٩
البحث الرابع: حول التعبير بالإنباء ٢٠١
البحث الخامس: حول غيب الأشياء ٢٠٣
بحوث فلسفيَّة ومسائل حكميَّة ٢٠٥
المسألة الأولىٰ: حدوث النَّفس ٢٠٥

المسألة الثانية: حول تأثير الأفلاك في الحياة والممات ٢٠٧
المسألة الثالثة: حول إعادة المعدوم ٢٠٩
المسألة الرابعة: حول حشر الضعفاء ٢١١
الدقيقة السادسة حول الأسفار الأربعة المعنوية ٢١٢
حكم تربية الأنام: ٢١٣
حول كلمة «النُّور» ﴿مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً﴾ ٢١٦
حول كلمة «الترك» ٢١٩
حول كلمة «الظُّلمات» ٢٢١
حول كلمة «الإبصار» ٢٢٣
حول كلمة «القلب» ٢٢٥
تذنيب: حول اصطلاح «القلب» ٢٢٧
حول كلمة «السمع» ٢٢٩
حول كلمة «البصر» ٢٣١
حول كلمة «نفس» ٢٣٣
حول الشرور والأسماء الإلٰهيَّة ٢٣٥
استناد النعمة إليه تعالىٰ دون غيره ٢٣٧
تقابل الأوصاف الثلاث: ٢٣٧
غاية الهداية كون الإنسان المنعم عليه: ٢٣٨
حول كلمة «السَّماء» ٢٤١
تذنيب: حول تأنيث وتذكير السَّماء: ٢٤٥
تنبيه: إطلاق السَّماء علىٰ الجوّ ٢٤٦

إيقاظ: حول معنىٰ «السّماوات» ٢٤٦
حول الحياة البرزخيَّة ٢٤٨
بطلان القول بالتجسيم ٢٥٠
العرفان وبعض بحوثه ٢٥٢
البحث الأوَّل: حول وجود الآخرة ٢٥٢
البحث الثاني: حول كون التقوىٰ خالصاً ٢٥٣
البحث الثالث: كمال الإيمان بحصول اليقين ٢٥٤
البحث الرابع: حول عموم الحشر ٢٥٤
إفادة وكفاية: ٢٥٥
بحث تاريخي ٢٥٧
علم الأسماء والعرفان (السفر من بيت النَّفس المظلمة) ٢٥٨
إفاضة وإنارة: في اعتبارات «المنعم» ٢٦١
نقل وتحقيق: في إشارة السورة إلىٰ الأسفار الأربعة ٢٦٢
علم الأسماء والعرفان (العالم الأكبر) ٢٦٤
إيقاظ وتذكرة: في معنى «العالَم» ٢٦٧
بحث وإرشاد: حول كون «ربّ» من الأسماء المختصَّة ٢٦٧
نقل وتوضيح: تطبيق العالَم الكبير علىٰ العالَم الصغير ٢٦٨
وفيك انطوىٰ العالَمُ الأكبر ٢٦٩
بحث عرفاني ورمز إيماني ٢٧١
العبادة ورعاية أسماء الله ٢٧١
تنبيه وإيقاظ: حول عبادة الله في جميع الأحوال ٢٧٢

إشارة ملكوتيّة وإنارة علمية: عدم إمكان عبادة غير الله ٢٧٣
إشعار بحثي ومكاشفة إيقانية: حول استناد القرآن إلىٰ الرَّسول (ص): .. ٢٧٤
بحث عرفاني وإرشاد أخلاقي ٢٧٦
الأخلاق والمواعظ القرآنية (اليأس من روح الله) ٢٨٠
الأخلاق والآداب والنصيحة (الرَّحمة والرأفة في قلوب العباد) ... ٢٨٤
بحث وإرشاد ٢٩١
الموعظة والأخلاق والنصيحة (المراحل والمنازل والوصول) ٢٩٢
الأخلاق والنصيحة والأدب (الخدعة وسراديب الأسواء) ٢٩٥
إذا تبيَّنتَ هذه المسألة فليعلم: ٢٩٦
توجيه وتشريف ٢٩٩
الأخلاق والموعظة (الغضب، مناجاة) ٣٠١
بعض المواعظ الأخلاقية والإرشادات اللازمة (الخيالات والمفاسد) ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ ٣٠٤
توجيه أخلاقي ووعظ خطابي (الإنسان الكبير والكون الجامع الكبير) ٣٠٧
الأخلاق والآداب وبعض بحوث اجتماعيَّة (عبور قنطرة المجاز إلىٰ دار الحقيقة والشهود) ٣١١
بحث وإرشاد: حول الإيمان والتصديق ٣١٣
تنبيه: حول عدّ الصلاة من جنود العقل ٣١٥
بعض التوجيهات الأخلاقيَّة والإرشادات الرُّوحيَّة ٣١٩
الموعظة الحسنة والنصيحة (ظلم العباد والعقبة يوم القيامة) ٣٢٣
الأخلاق والموعظة والنصيحة (نماء العشق الإلٰهي في القلب) ٣٢٧

النصيحة والأخلاق (القوى الظاهريَّة والباطنيَّة لخدمة ربّ العالمين) ٣٣١
الأخلاق والموعظة (الاستضاء بنور الحق واليقين) ٣٣٤
الوعظ والإرشاد وعلم الأخلاق ﴿صم بكم عمي فهم لا يرجعون﴾ ٣٣٧
الأخلاق والموعظة والإرشاد (التخيُّل في المعتقدات) ٣٤١
المواعظ والحكم والنصائح (عدم اختصاص الآيات الواردة بالنفاق وبالمنافقين) ٣٤٤
الأخلاق والمواعظ (التسويلات الشيطانيَّة وإحاطتها بالعباد) ٣٤٧
حول التوجيه الأخلاقي (إحاطة النَّار بنا من كلّ الجهات) ٣٥١
حول إفساد الكافرين (عدم خروج الأقوال عن الأفعال) ٣٥٥
إبلاغ وتوجيه ٣٥٦
فبالجملة، يتبيَّن هنا أُمور: ٣٥٧
توجيه أخلاقي وفيه أسرار إلٰهيَّة ٣٥٨
في الوعظ والإرشاد ((الإذعان بالقلب وليس باللّسان) ٣٦٠
الأخلاق والإرشاد (اكتساب المادَّة القابلة للصور الكافرة) ٣٦٢
الموعظة الحسنة والنصيحة (الاستماع إلى نداء القرآن قلباً وقالباً) . ٣٦٤
الأخلاق والموعظة (طلوع الحقيقة على القلب) ٣٦٦
الأخلاق والآداب (وصيَّة من راقم هذه الحروف) ٣٦٩
الأخلاق والمواعظ والنصائح (إذا أصبحت الأمراض ملكة) ٣٧١
المواعظ والحكم والأخلاق (الأمراض العامَّة والأسقام السارية) . ٣٧٣

كتب للمؤلف

١ ـ الكشوف في الإعجاز القرآني وعلم الحروف
٢ ـ سرّ الآيات والعدد في شفاء الروح والجسد
٣ ـ عوالم الغيب والشهادة
٤ ـ العلوم الغريبة في الميزان
٥ ـ الجواهر النورانية في العلوم والمعارف الإنسانية
٦ ـ الكنوز العلية في العلاجات الروحانية
٧ ـ بحر المعارف والأسرار
٨ ـ تحفة الأبرار في الأوراد والأذكار
٩ ـ الحقائق العلميّة في الاستشفاء بالطاقة القرآنيّة
١٠ ـ إكسير الشفاء من سبعين داء عن طريق الروحانيّات المروية والغذاء
١١ ـ أسرار ملكوتيّة وإشراقات عرفانيّة
١٢ ـ الأبعاد الخفيّة في أسرار العوالم الغيبية
١٣ ـ التمسّح بالقبور والدخول في المحظور

يطلب من المؤلف :٣٨٦٢٤٣ ـ٠٣